روايات تاريخ العرب والإسلام

اميل حبشي الأشقر

فاجعة كربلاء



دار الأندلس

روايات تاريخ العرب والإسلام

أميل حبشي الأشقر

فاجعة كربلاء

دار الأندلس
للطباعة والنشر والتوزيع

دار الأندلس - بيروت، لبنان
هاتف : ٣١٧١٦٢ - ٣١٦٤٠١ - ص.ب : ٤٥٥٣ ١١ - تلكس ٢٣٦٨٣

فاجعة كربلاء

يمر فيها مقتل الحسين بن علي (ع) ووصف للمعركة كأنك تراها - اسماء بعض القتلى من ابنائه واخوته وابنائهم وابناء اعمامه - اتهام عمرو بن الحجاج ابي امامة بقتل مسلم بن عوسجة - ارسال رأس الحسين ورؤوس الضحايا ، مع نساء الشهيد وبناته الى عبيد الله بن زياد ، ثم الى يزيد بن معاوية في دمشق - حصار الكعبة ودفاع عبد الله بن الزبير - وفاة يزيد بن معاوية - ظهور براءة عمرو بن الحجاج من دم مسلم - وزواج امامة وعبد الرحمن .

١

يوم خرج ابن الحصين المرادي ، وعبد الرحمن بن مسلم من كربلاء الى الكوفة ، كما مرّ في رواية خيانة وغدر ، دعا عمر بن ذي الجوشن ، العباس بن علي واخوته وقال لهم :

- ان عبد الله بن زياد امير الكوفة ، ارسل اليكم أمانه فأنتم آمنون .

فأجابه العباس قائلاً :

- لعنك الله ولعن امانك ، اتؤمننا وابن رسول الله لا أمان له ؟! اننا نموت مع الحسين ، وان عشنا نعيش في ظله .

وكان عدو الله ، ابن ذي الجوشن ، يبغض الحسين ولا يطيق ان يُذكر اسمه على مسمع منه .. وكان همه ، في تلك المعركة التي سعروا نارها ، ان يرى حفيد النبي المعظم ، جثة خرساء معفرة بالتراب ، ومخضبة بالدماء !!

رجع فقال لعمر بن سعد قائد الجيش :

– افعل ما انت فاعل ، فالقوم لا رغبة لهم في الاستسلام ، وهم مصرون على القتال حتى يظفروا او يموتوا .

– وكيف يظفرون وهم سبعون رجلاً ونحن نقود الالوف .. امشوا معي ..

وركب بعد العصر والناس وراءه .

الحسين جالس أمام خيمته محتبياً بسيفه ، وقد خفق برأسه على ركبته فسمعت أخته زينب ضجة الناس فدنت منه فأيقظته فرفع رأسه فقال :

لقد رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم في المنام .

– وماذا قال لك ؟

– قال لي انك تروح الينا ..

فلطمت زينب وجهها وقالت : يا ويلتاه .

قال : ليس لك الويل يا أخية .. اسكتي رحمك الله .

فقال له اخوه العباس : يا أخي لقد أتاك القوم .

فنهض قائلاً : اركب بنفسي .

فقال العباس : بل أركب انا .

– إذهب حتى تلقاهم فتسألهم عما جاء بهم .

فأتاهم في عشرين فارساً ، بينهم زهير بن القين.

فقال لهم : ما وراءكم ؟

قالوا : لقد ورد جواب امير الكوفة يأمركم فيه بأن تستسلموا أو نقاتلكم الى النهاية كما نقاتل أعداء الخلافة .

قال : لا تعجلوا حتى أرجع إلى أبي عبدالله فأعرض عليه ذلك .

فوقفوا ، ورجع العباس اليه بالخبر وكان أصحابه يخاطبون القوم ويذكرونهم الله فلما خبر العباس الحسين بما قالوه ، قال : ارجع اليهم فقد تستطيع ان تؤخرهم الى الصباح .

– وما هي الغاية من ذلك ؟

– غايتي أن أصلي لله هذه الليلة ، وأدعوه ، وأستغفره عز وجل .

فعرف العباس أن أخاه يريد أن يوصي أهله .

فعاد اليهم فقال :انصرفوا عنـــا الليلة حتى ننظر في الأمر ، فاذا أصبحنا التقينـــا ان شاء الله وحملنا اليكم الجواب .

فقال ابن سعد : ما ترى ياشمر ؟

قال : أنت الأمير وأنت صاحب الرأي .

فأقبل على الناس فقال : ما ترون ؟

فقال عمرو بن الحجاج : سبحان الله ، لو كان الحسين من الديلم ، ثم سألـكم أن تؤخروا أمركم الى الصباح لكان ينبغي أن تجيبوه .

وقال قيس بن الأشعث : انها ليلة واحدة ، فأجبهم الى ما طلبوه ، وسترى غداً أيها الأمير انهم سيعمدون الى السيف .

قال : لو كنت واثقاً بانهم سيفعلون ذلك لما صبرت ساعـة ، وأومـــأ الى رجاله بالرجوع .

فجمع الحسين أصحابه فقال : أثني على الله أحسن الثناء ، وأحمده على السراء والضراء .. ألهم اني أحمدك على نعمتك، فقد أكرمتنا بالنبوة وجعلت لنا أسماعاً وأبصاراً وأفئدة ، وعلمتنا القرآن وفقهتنا في الدين ،فاجعلنا لك من الشا كرين.

ثم قال لهم :

والله لا أعلم أصحاباً أوفى من أصحابي ، ولا أهل بيت أبر من أهــل بيتي . فجزاكم الله جميعاً عني خيراً.

وأطرق ملياً ثم قال : أظن أن يومنا من هؤلاء الاعداء غداً ، وإني قد أذنت لكم جميعاً في الذهاب ، فانطلقوا في حل ليس عليكم مني ذمام،هذا الليل قد أقبل فاجعلوه ستاراً ، وليأخذ كل رجل منكم بيد رجل من أهلي، ثم تفرقوا في البلاد، في المدائن والقرى حتى يفرج الله .. ان القوم يطلبوني ، فاذا أصابوني لهوا عن طلب غيري فتهيأوا للسير .

فقال اخوته وأبناؤه وأبناءاخوته وابناء عبدالله بن جعفر : أنفعل هذا لنبقى

بعد ؟ لا أرانا الله ذلك أبداً ..

قال : يا بني عقيل ، حسبكم أن مسلماً قد قتل .. اذهبوا فقد أذنت لكم ولا تترددوا .

قالوا وما نقول للناس ؟ أنقول ، تركنا شيخنا وسيدنا وبني عمومتنا خير الاعمام ، ولم نرم معهم بسهم ، ولم نطعن برمح ، ولم نضرب بسيف ، ولا ندري ما صنعوا ..لا والله لا نفعل ،ولكننا نفديك بالنفوس والاموال والاهل ونقاتل معك حتى نرد موردك فقبح الله العيش بعدك .

وقام مسلم بن عوسجة فقال : أنحن نتخلى عنك ؟ أما والله لا افارقك حتى أ كسر في صدورهم رمحي ، وأضربهم بسيفي ما ثبت قائمه بيدي .. والله لو لم يكن معي سلاحي لقذفتهم بالحجارة دونك حتى أموت ..

وقال جميع أصحابه مثل قول مسلم .

فلم يرَ إلا ان ينصرف الى خيمته، ليخلو الى نفسه وقد سمعته اخته زينب في ذلك الليل يقول :

يا دهر افٍّ لك من خليل	كم لك بالاشراق والاصيل
من صاحب او طالب قتيل	والدهر لا يقنع بالبديل
وانما الأمر الى الجليل	وكل حي سالك السبيل

وأعادها مرتين ،

فوثبت تجر ثوبها حتى انتهت اليه وجعلت تقول : ليت الموت اعدمني الحياة اليوم .. ماتت فاطمة أمي ، وعلي ابي ، والحسن اخي ، وسيموت الحسين ؟..

فنظر اليها قائلا : يا أخية لا يذهبن حلمك ..

قالت بأبي انت وامي استقتلت نفسي لنفسك الفداء ..

فردد غصته ، وترقرقت عيناه ، ثم قال : لو ترك القطا لنام ..

فلطمت وجهها ، وشقت جيبها ، وخرت مغشياً عليها .

فقام فصب الماء على وجهها وهو يقول : اتقي الله ، وتعزي بعزاء الله ، واعلمي ان اهل الارض يموتون واهل السماء لا يبقون ، وان كل شيء هالك الا

وجه الله .. ان ابي خير مني ، وامي خير مني ، وأخي خـــير مني ، ولي ولهم ولكل مسلم اسوة برسول الله .

وجعل يعزيها بمثل هذا ثم قال : استحلفك بالله يا زينب ان لا تشقي علي جيباً ، ولا تخمشي علي وجهاً ان أنا هلكت ..

ثم خرج الى اصحابه فقال : قربوا البيوت ، وادخلوا اطنابها بعضها في البعض الآخر ، وقاتلوا القوم غداً من وجه واحد ، والبيوب على اليمين والشمال ومـن الوراء وليحصدنا السيف بعد ذلك فنحن من اهل الجنة والعدو من اهل النار ..

وانقضى ذلك الليل وهم يصلون ويستغفرون ، فلما صلى عمر بن سعد صـلاة الصبح خرج فيمن معه ، وهو يرى ان القوم سيقاتلونه كما قال قيس بن الاشعث :

وعبى الحسين اصحابه ،

وكان هؤلاء الاصحاب ، اثنين وثلاثين فارساً ، واربعين راجلاً.

وقد جعل زهير بن القين على الجناح الايمن ، وحبيب بن مظهر على الجنـاح الايسر وحمل رايته أخوه العباس ...

وكانت الارض وراء البيوت قد حفرت في الليل الماضي

فجعلوا الحطب والقصب في مكان الحفر واضرموا النار ..

ذلك لان الحسين كان يخاف ان يهاجموه من الوراء .

فقال عمر بن سعد عندئذ لعبد الله بن زهير الازدي: انت على ربع اهل المدينة.

وقال لقيس بن الاشعث : وانت على ربع ربيعة وكندة .

وقال لعبد الرحمن بن ابي سبرة : وانت على مذحج واسد ، والحر بن يزيد على تميم وهمدان .

والتفت الى عمرو بن الحجاج قائلا : لقد جعلتك على الميمنة وجعلت ابن ذي الجوشن على الميسرة .

فقال شبث بن ربعي : ومن على الخيل ؟

— عروة بن قيس الاحمسي وانت على الرجال .

وأمر دريداً مولاه ، بان يحمل الراية ، ثم مشوا الى الامام .

فلما دنوا من الحسين ، أمر فضرب له فسطاط ، وفتّ له المسك في وعاء ، ثم دخل وعلى باب الفسطاط يزيد بن حصين الهمداني : وعبد الرحمن بن عبد ربه ، امامهما مسلم بن عوسجة .

وكان يزيد يقول لعبد الرحمن : والله ما هذه بساعة باطل .

فقال يزيد: لقد علم الناس اني ما احببت الباطل شاباً أو كهلا ولكني مستبشر بما نحن لاقون .. والله ما بيننا وبين الجنة الا ان يميل هؤلاء علينا باسيافهم .. !

ثم ركب الحسين دابته ودعا بمصحف فوضعه أمامه واقتتل القوم بين يديه .

فرفع عينيه الى السماء ثم قال : اللهم انت ثقتي في كل كرب . ورجائي في كل شدة ، وأنت لي في كل أمر نزل بي عون وعدة .. كم من همّ يضعف فيه القلب وتقل فيه الحيلة ، ويخذل فيه الصديق ، ويشمت به العدو ، شكوته اليك ففرجته وكشفته ، انك ولي كل نعمة ومنتهى كل رغبة ..

ورأى اصحاب عمر النار تلتهب في القصب فنادى شمر بن ذي الجوشن الحسين قائلا : تعجلت النار في الدنيا قبل القيامة .

فعرفه الحسين فقال : أنت أولى بالنار .

ثم تقدم الى الناس ونادى بصوت عال :ايها الناس ،اسمعوا قولي ولا تعجلوني حتى اعظكم بما يجب لكم علي وحتى اعتذر اليكم فان قبلتم عذري وصدقتم قولي وانصفتموني لم يكن لكم علي سبيل ، وان لم تفعلوا فاجمعوا امركم ثم اقضوا ... ان الله الذي نزل الكتاب هو الذي يتولى امر الصالحين ..

فلما سمع اخواته قوله بكين وصحن ، وارتفعت اصواتهن .

فارسل اليهن اخاه العباس ، وابنه عليا ، ليسكتاهن وكان يقول بصوت هادىء : سيكثر بكاؤهن ..

فلما سكتن ، حمد الله ثم قال : انسبوني وانظروا من أنا ثم راجعوا انفسكم فعاتبوها واسألوها هل يحل لكم قتلي وانتهاك حرمتي .. ألست ابن بنت نبيكم وابن وصيه ، وابن عمه ، واولى المؤمنين بالله والمصدق لرسوله ؟ أولم يبلغكم ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لي ولأخي . انتما سيدا شباب اهل الجنة

وقرة عين اهل السنة ؟ اما في هذا حاجز يحجزكم عن سفك دمي ؟

فقال شمر كلمة استخفاف ، اجابه بمثلها حبيب بن مطهر ..

ثم قال الحسين : أو تشكون في أني ابن بنت نبيكم ؟ والله ليس بين المشرق والمغرب ابن بنت نبي غيري منكم او من غيركم ..خبروني ، اتطلبوني بقتيل منكم قتلته ، او بمال لكم استهلكته ؟

فلم يجيبوه ، فنادى :

يا شبث بن ربعي ، ويا حجار بن ابجر ، ويا قيس بن الاشعث ، ويا زيد بن الحرث : ألم تكتبوا الي في المجيء اليكم ؟

قالوا : لم نفعل ..!

– بلى فعلتم ولكنكم جبناء لا تجسرون على الاعتراف ..

ثم قال : لقد كرهتموني فدعوني انصرف الى مأمني من الارض.

فقال قيس بن الاشعث : اولا تنزل على حكم ابن عمك ؟

و هويعني ابن زياد .

فقال : انت أخو أخيك .. أتريد ان يطلبك بنو هاشم بأكثر من دم مسلم ابن عقيل ..؟ لا والله ، لا أعطيهم بيدي عطاء الذليل ولا أقر اقرار العبد ..

ثم أناخ راحلته ونزل .

فخرج زهير بن القين على فرس له في السلاح فقال : يا أهل الكوفة ، حق على المسلم نصيحة المسلم ، ونحن حتى الآن أخوة على دين واحد ما لم يقع بيننا وبينكم السيف ، فاذا وقع انقطعت العصمة وكنا نحن أمة وانتم أمة .. اننا ندعوكم الى نصر الحسين ابن بنت النبي ، وخذلان الطاغية ابن الطاغية عبدالله بن زياد فانكم لم تروا من الاثنين إلا سوءاً .. يسملان أعينكم .. ويقطعان أيديكم وأرجلكم.. ويرفعانكم على جذوع النخل ، ويقتلان قراءكم أمثال حجر بن عدي واصحابه ، وهانيء بن عروة ..

فجعلوا يسبونه ، ويثنون على ابن زياد ، ثم قال أحدهم : والله لا نبرح حتى نقتل صاحبك ومن معه .

قال : يا عباد الله ، ان أبناء فاطمة أحق بالرد من ابن سمية ، فان كنتم لم تنصروهم فلا تقتلوهم . خلوا بين الرجل وبين ابن عمه يزيد بن معاوية ، فلعمري ان يزيد يرضى من طاعتكم بدون قتل الحسين .

فرماه شمر بسهم وقال : اسكت أسكتك الله .

قال : اني لا أخاطب رجلاً مثلك لا يعرف من كتاب الله آيتين .. ألا فابشر بالخزي يوم القيامة .

قال : ان الله قاتلك وصاحبك بعد ساعة .

قال : أبالموت تخوفني .. والله ان الموت مع الحسين أحب إليّ من الخلود معكم . ثم رفع صوته قائلاً : أيها الناس ، لا يغرنـّكم من دينكم هـذا النذل ، فوالله لا تنال شفاعة محمد قوماً أهرقوا دماء ذريته وأهل بيته .

فأمره الحسين بأن يرجع .

وزحف عمر بن سعد إلى القوم .

فأتاه الحر بن يزيد ، الذي جعله على ربع تميم وهمدان فقال :

— أصلحك الله ايها الأمير ، أمقاتل أنت هذا الرجل ؟

قال : أي والله قتالاً أيسره ان تسقط الرؤوس .

— أفما لكم رضى ، في واحدة من الخصال التي سمعتم ؟

— لو كان الأمر في يدي لفعلت ، ولكن أميرك لا يريد ذلك ..

فأقبل يسير نحو الحسين .. وأخذته رعدة ..

فقال له رجل من قومه يقال له المهاجر بن أوس : والله ما رأيت منك في موقف قط ، مثلما أراه منك الآن .. ولو قيل من أشجع أهل الكوفة ؟ لقلت : الحر بن يزيد .

فهز رأسه قائلا : أخيّر نفسي بين الجنة والنار فلا أختار على الجنة شيئاً ، ولو قطعت وحرقت ..

ثم ضرب فرسه ، وخرج من جيش الكوفة لاحقاً بالحسين حتى مثل بين يديه ، على مرأى من الناس ثم قال : جعلني الله فداك يا ابن رسول الله ، أنا

صاحبك الذي حبستك عن الرجوع ، وسايرتك في الطريق ، وانتهيت بك إلى هذا المكان ، والله ما ظننت ان القوم يردون عليك ما عرضت عليهم ولم يخطر لي أنهم يبلغون منك هذه المنزلة .

– وفي أي شيء فكرت عندما فعلت ؟

– قلت في نفسي لا أبالي اذا أطعت القوم في بعض أمرهم وسيقبلون بعض ما تدعوهم اليه ، ووالله لو ظننت أنهم لا يقبلون ذلك لما فعلتها .. واني قد جئت الآن تائباً مؤاسياً لك بنفسي حتى أموت بين يديك ، أفترى ذلك توبة يا ابن رسول الله ؟..

قال : يغفر الله لك .

فتقدم عندئذ أمام أصحابه فقال : أيها القوم ألا تقبلون من الحسين خصلة من الخصال التي ذكرها لكم فيعافيكم الله من قتاله ؟

فقال ابن سعد : لم أجد سبيلاً الى ذلك .

فقال : يا أهل الكوفة ، أدعوتموه ، حتى إذا أتاكم أسلمتموه . وزعمتم أنكم قاتلو أنفسكم دونه ثم عدوتم عليه لتقتلوه ؟ أمنعتموه ومن معه عن ماء الفرات الجاري يشربه الرائح والغادي وتتمرغ فيه خنازير السواد وكلابه ، وها هو وأهله يكاد يصرعهم العطش ؟ بئسما خلفتم محمداً في ذريته لا سقاكم الله يوم الظمأ ان لم تتوبوا وتنزعوا عما انتم عليه .

فرموه بالنبل فرجع حتى وقف أمام الحسين .

ومشى عمر بن سعد يتقدم جيشه ، ثم أخذ سهماً فرمى به وقال : اشهدوا لي أني أول رامٍ !

ثم ترامى الناس .

وبينا هم على ذلك ، برز رجل يقال له يسار هو أحد موالي زياد ، ثم برز بعده رجل آخر يقال له سالم ، هو مولى عبيدالله ، وطلبا القتال .

فخرج إليهما عبدالله بن عمير الكلبي ، وكان قد أتى الحسين من الكوفة ، وأقبلت امرأته معه ، فقال له يسار : من أنت ؟

فانتسب لهما .

فقال : لا نعرفك فليخرج إلينا زهير بن القين أو حبيب بن مطهر أو برير ابن خضير .

فقال : يا ابن الزانية .. وبك رغبة عن مبارزة أحد من الناس ولا يخرج إليك أحد إلا وهو خير منك ؟

ثم حمل عليه فضربه بسيفه حتى سقط فاشتغل به يضربه وهو لا يلتفت الى الرجل الآخر .

فحمل عليه سالم فضربه .

فاتقى ضربته بيده ، فأطار السيف أصابع كفه اليسرى .

ولكنه لم يتراجع ، بل مال على عدوه فجعل يضربه حتى قتله .

وتناولت امرأته عموداً ، وكانت تسمى أم وهب ، وأقبلت نحو زوجها وهي تقول « فداك أبي وأمي قاتل دون الطيبين ذرية محمد » .

فقال : عودي إلى النساء .

فامتنعت قائلة : لن أدعك دون أن أموت معك .

فناداها الحسين قائلاً : جزاك الله خيراً ، ارجعي رحمك الله ، فليس القتال من شأن النساء .

فرجعت ، وعيناها تنظران إلى جيش الكوفة .. كأنها تريد ان تغوص بين صفوفه ، وتقتحم الخيل !!

ورأى الناس عندئذ ، ابن الحجاج الزبيدي ، يدنو بجناحه الأيمن من الحسين والنار تتقد في عيون أصحابه ، فجثا أصحاب الحسين على الركب ، وأشرعوا الرماح ، فتراجعت الخيل ، فرشقوهم بالنبال فصرعوا منهم رجالاً وجرحوا آخرين .

فتقدم رجل من أهل الكوفة يقال له ابن حوزة فقال : أفيكم الحسين ؟

فلم يجبه أحد .

فقالها ثلاثاً ...

فأجابوه : نعم ، فما حاجتك ؟

قال : يا حسين ابشر بالنار .

فقال الحسين : كذبت بل أسير إلى رب رحيم وشفيع مطاع ، فمن أنت ؟

— ابن حوزة .

فرفع يديه إلى السماء قائلا : اللهم ابعث به إلى النار ...

وكان ابن حوزة على فرسه ، والنهر بينه وبين الحسين .

فلما سمع ذلك غضب وهمز فرسه فاقتحم الماء ، فتعلقت قدمه بالركاب ، وجالت به الفرس فسقط عنها وقد انقطعت فخذه حتى مات ، والفرس تخوض المياه مضطربة هائجة ..

وفي جيش الكوفة ، مسروق بن وائل الحضرمي ، وكان قد خرج مع القوم وهو يقول لمن حوله : لعلي أصيب رأس الحسين فأصيب به منزلة عند ابن زياد.

ولكنه عندما رأى ما صنع الله بابن حوزة رجع وهو يقول : لقد رأيت من أهل هذا البيت شيئاً ، فوالله لا أقاتلهم أبداً . وترك المعسكر عائداً الى الكوفة.

فقال يزيد بن معقل : أما أنا فأقاتلهم ولا أبالي .

وخرج إلى الساحة وهو ينادي: يا برير بن خضير ، كيف ترى الله صنع بك .

قال : والله لقد صنع بي خيراً وصنع بك شراً .

قال : كذبت ، وانا أشهد أنك من الضالين ..

قال : اخرج إلى سيفك وسنرى من هو الكاذب .

وتبارزا ..

فضربه يزيد بن معقل فضيع ابن خضير ضربته .. ثم ضربه ضربة قدت المغفر وبلغت الدماغ فسقط والسيف في رأسه .

فحمل عليه رضى بن منقذ العبدي .

فتناوله ابن خضير بيديه ثم قعد على صدره .

ففاجأه رجـــل يقال له كعب بن جابر الأزدي وطعنه من الوراء فغاب السنان في ظهره .

ثم جعل يضربه بالسيف حتى قتله .

فلما رجع قالت له زوجته : لقـــد أعنت ابن زياد على ابن فاطمة فلا أكلمك أبداً .

وخرج عمرو بن قرظة الانصاري يقاتل أمام الحسين فقتل .

وكان أخوه مع عمر بن سعد . فرفع صوته قائلا : يا حسين ، يا كذاب ابن الكذاب أضللت أخي وغررته حتى قتلته .

فأجابه وصوته يرتجف : ان الله لم يضل أخاك بل هداه وأضلك ...

قال : قتلني الله ان لم أقتلك .

وحمل عليه .

فتصدى له نافع بن هلال المرادي ، فطعنه ، فصرع .

فاستنقذه أصحابه .

ثم قاتل الحر بن يزيد مع الحسين قتالاً شديداً .

وبينما هو يصارع الرجال ، لقيه يزيـــد بن سفيان ، أحد رجال الجيش الكوفي ، وتلاحم السيفان .

ولكن الحر كان أطول سيفاً ، فخر يزيد قتيلا تحت قدميه .

ثم برز نافع بن هلال مرة أخرى .

فاعترضه مزاحم بن حريث من أصحاب ابن سعد .

ولم يلبث حتى لحق بيزيد بن سفيان ..

فصاح عمرو بن الحجاج يقول للناس : أتدرون من تقاتلون ؟ انـكم تقاتلون فرسان العراق ، وانهم قوم طاب لهم الموت ، فلا يبرز إليهم منكم أحد .

ثم قال : والله لو لم ترموهم إلا بالحجارة لقتلتموهم .. يا أهل الكوفة الزموا طاعتكم وجماعتكم ولا ترتابوا في قتل من مرق من الدين .

فقال عمر بن سعد : ان الرأي ما رأيت وأنا أمنع الناس من المبارزة .

وسمع الحسين قول ابن الحجاج فقال : يا عمرو ابن الحجاج ! أعليّ تحرض الناس ؟.. أنحن مرقنا من الدين أم أنتم؟انكم والله ستعلمون،إذا قبضت أرواحكم

أينا المارق !..

فأمر ابن الحجاج جماعته بان يحملوا على الحسين من ناحية الفرات .

ففعلوا ، وجالت الخيل تلمع فوقها السيوف والاسنة .

فقال مسلم بن عوسجة : الموت خير من العار ، وغاص بين الصفوف ، فلقيه رجل يقال له عبدالله من بني ضباب ، فطعنه مسلم فأرداه ، ثم حمل عليه رجل آخر هو عبد الرحمن البجلي ، فقتل ، وجال على فرسه يصرع الرجال ، حتى أحاط به القوم ، وجعلوه داخل نطاق من الرماح .

فحاول ان يضرب فلم يستطع ، ... وما لبث حتى سقط جريحا وقد خضبته الدماء ...

ورجع عمرو بن الحجاج الى المعسكر ومسلم صريع .

فمشى اليه الحسين وفيه رمق .

فوقف عند رأسه ، والدمع يجول في عينيه وجعل يقول : رحمك الله يا مسلم ابن عوسجة .. هؤلاء اخوانك الذين دافعوا عن الحق .. منهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر ...

ثم دنا منه حبيب بن مطهر فقال : عز علي مصرعك يا ابا عبد الرحمن ... ابشر بالجنة ... ولو لم أكن واثقاً باني لاحق بك ، لأحببت ان توصيني حتى أقوم بما أنت له أهل .

ففتح عينيه المصبوغتين بالدم ، وأشار الى الحسين قائلا : اوصيك بهذا وارجو ان تموت دونه .!

قالها ولفظ الروح .

فاقبلت جاريته تصيح : يا ابن عوسجة ... يا ابن عوسجة ... مات الوفاء والشرف ...!

وهي الجارية التي ربت عبد الرحمن بن مسلم ثم جعلت تقول : دلوني على قاتله ..

فقيل لها : قتله اهل الكوفة من رجال ابن الحجاج ...

فقالت لحبيب بن مطهر : ان قاتله ابن الحجاج نفسه .

قال : لا ، صرع رحمه الله في المكان الذي ترين ، وابن الحجاج في الناحية الاخرى يقاتل الناس ...

– ورأيته أنت ؟

– أجل وكنت مع الناس الذين قاتلوه ...

فانصرفت وهي تبكي القتيل الشريف وترثيه .

وكانت تخاطب عبد الرحمن قائلة : قتل أبوك وانت بعيد ، وستحجبه الارض عن عينيك إلى الابد .

وكان اصحاب ابن الحجاج ينادون : قتلنا مسلماً .

فقال شبث بن ربعي لمن حوله : ثكلتكم امهاتكم ، انما تقتلون انفسكم بايديكم وتذلونها لغيركم اتفرحون بقتل رجل مثل مسلم ؟.. أما والذي اسلمت له لقد رأيته في موقف لم ارَ مثله قط ... رأيته يوم اذربيجان يقتل ستة من الرجال قبل ان تنام خيل المسلمين أفيقتل مثله وتفرحون ؟ ...

وانها كلمة لا يستغربها القارىء ...

فشبث له في كل يوم رأي كما علمت .. وهو المتردد في امره ، الضعيف في وفائه ...

٢

قيل لابن الحجاج وهو راجع الى المعسكر : ان شيخا من شيوخ قومك يسأل عنك .

فاضطرب قائلاً : وهل قدم الشيخ من الكوفة ؟ .

— نعم .

فأمر غلاماً له بان يدعوه ، وتنحى عن القوم لاجئا الى خيمة من خيام اصحابه فلما أقبل الرجل ، فاجأه بقوله : ما وراءك يا أبا عدي ؟

— خير يا ابا امامة .. خذ هذا الكتاب ..

وناوله كتاب خولة .

فقرأ عمرو : احضر فان امامة في خطر ...

قرأ ذلك ثلاث مرات وهو هادىء .. ولكن شفتيه كانتا ترتجفان .

ثم قال وقد اختنق صوته : انك تحمل شراً لا خيراً... ماذا جرى لامامة؟

— جرى لها ما قرأت الان ..

— وتعلم انت ذلك ؟ .

— قيل لي ان الفتاة في خطر .

— ولكنك لم ترها قبل ان تترك الكوفة ..

— بل رأيتها قبل خروجي من فناء منزلك ..!!

— وتشكو ماذا ؟

— انها تشكو العافية .!

فظن الرجل ان الشيخ يهزأ به ، فقال : ابا عدي ... تهزأ بي ، وفي يدي كتاب يقول ان امامة بين مخالب الموت ؟!

— لم يخطر لي ان اهزأ بأحد قبلك ، لاهزأ بك الآن .. اني اصف لك ما رأيت .

— وماذا رأيت ؟

— رأيت امامة التي تصارع الموت .. على باب القاعة ..

— وتحلف لي ؟

— احلف برأس عدي .

— وكيف كتبت خولة كتابها هذا ؟

— لا تسألني عن ذلك فأنا لا أعلم .

فتنهد قائلاً : الحمد لله .. ثم الحمد لله .. ان في الامر سراً عمدت خولة معه الى هذه الحيلة لأرجع إلى الكوفة .. أليس كذلك ؟

— هذا ما يبدو لي ، ويجب ان تعرف انت هذا السر .

قال : لقد عرفته .. ان خولة لا يطيب لها أن أحارب الحسين ، وهي لا تستطيع ان تحملني على ترك القتال إلا من هذه الناحية .. ثم خفض صوته قائلا : لتفعل ما تشاء فأمر الحسين قد انتهى .

— أقتلتموه ؟

— لا .. ولكن ان لم يقتل اليوم قتل غداً .. فابن زياد لا يريد إلا أن تسيل الدماء ..

وقد خاف عندئذ ان يكون الشيخ كاذباً فيما رواه ، فقال : أعد عليّ ما ذكرته الآن .

ففعل ، وهو يبتسم ابتسامة المطمئن .. والصدق يتلألأ في عينيه ..

فنهض ابن الحجاج وهو يقول : لقد تركنا حرب الحسين فلنرجع .

— وانا ؟

— أما أنت فامكث بالمعسكر ريثما أعود إليك .

— ولا أرجع الى الكوفة ؟

— ترجع عندما آمرك بالرجوع ..

— بل أعود هذا المساء لأن الاقامة بالمعسكر لا تطيب لي .

— وماذا تقول لخولة ؟

– انقل اليها ما تأمرني به .

– اذن قل لهـــا ان الخطر الذي يهدد أمامة سيزول ان شاء الله ، وان عمراً سيجيء .

– وإذا سألتني عن الحسين ؟

– قل ان القوم في حربٍ ، وستدور الدائرة على من ذكرت ..

وركب فرسه ليعود الى ساحة الشرف والعز ..

وكان الشيخ يقول في نفسه : سبحان الله .. كان ابن الحجاج بالأمس من أتباع الحسين ، فأصبح اليوم من جلاديه !..

واستلقى في تلك الخيمة ليستعيد قواه ، وهو يفكر في حادثات الزمان .

٣

حمل شمر بن ذي الجوشن في الميسرة ، على رجال الحسين فثبتوا له .

ثم أحاط أهل الكوفة بالحسين ، من كل جانب .

فقاتل أصحابه قتالاً شديداً آثروا معه الموت على الذل ، ولم يحملوا على جانب من خيل الكوفة إلا كشفوه ، وهم اثنان وثلاثون فارساً لا يزيدون .

فلما رأى ذلك عروة بن قيس ، وهو على الخيل ، بعث الى عمر بن سعد يقول له : ان خيلي تلقى من خيل الحسين ما تلقاه ، فمر الرجال والرماة بأن يخوضوا المجال فليس لنا سبيل إلى القوم غير هذا

فدعا ابن سعد ، شبث بن ربعي فقال له : اليوم يومك يا شيخ مضر .

فقال : شيخ مضر تأمره بأن يسير في الرماة .. ولم تجد للامر غيره .. انني لا أفعل ..

فرأى القوم ان ابن ربعي يكره القتال . أجل ، كره شبث ان يقاتل

الحسين في ذلك اليوم !! وكان يقول للناس بعد ذلك : لا يعطي الله أهل هذا القطر خيراً أبداً .. ألا تعجبون انا قاتلنا مع علي بن أبي طالب ومع ابنه الحسين آل أبي سفيان خمس سنين ، ثم عدونا على ابنه ، وهو خير أهل الأرض ، نقاتله مع آل معاية وابن سمية الزانية !! ضلال يا لك من ضلال ..

وعروة بن قيس يلج في طلب الرماة .

فأمر ابن سعد عندئذ ، الحصين بن نمير ، بأن يزحف الى الامام ، على رأس الرماة والرجال ،

فلما دنوا من الحسين واصحابه ، رموهم بالنبال .

فترجل القوم وعقروا الخيل ، ثم رموا بدورهم كأنهم رجل واحد وارتفعت اصواتهم يثنون على الحسين وآل بيته .

وقاتل الحر بن يزيد قتالاً لم يرَ الناس مثله قط .

وصفوف الكوفيين تتزاحم وتنضم ، وهي لا تستطيع ان تهاجم الحسين ورجاله الا من وجه واحد ..

فلما رأى ذلك ابن سعد ، قال لجنوده : قوضوا البيوت عن اليمين والشمال .

فتغلغل اصحاب الحسين بين البيوت ، يقتلون الرجال وهي تقوض وتنهب ما تراه ..

فصاح ابن سعد قائلاً : النار النار ... احرقوها ..

فامتدت ألسنة النار بين الخيام .

فقال الحسين : ليحرقوها فان النار حصن لكم ..

ففعلوا .. وخرجت امرأة عبد الله بن عمير الكلبي فجلست عند رأس الحسين تمسح التراب عن وجهه وتقول : هنيئاً لك الجنة ..

فأمر شمر احد غلمانه فضربها بعمود كان في يده فماتت .

ثم اخترق شمر الصفوف حتى بلغ فسطاط الحسين ونادى : احرقوا هذا الفسطاط على أهله .

فصاحت النساء وخرجن .

فصاح به الحسين : يا ابن ذي الجوشن .. انت تحرق بيتي على أهلي ؟ ان الله سيحرقك بناره .

وأقبل حميد بن مسلم وهو من جيش الكوفة يقول : لا تفعل يا شمر ، فان أميرك يرضى بأن تقتلوا الرجال ، وتبقوا على الولدان والنساء .

قال : لا أرجع عن ذلك .

فجاء شبث بن ربعي فنهاه ، وهمّ بالرجوع .

فحمل عليه زهير بن القين ، في عشرة من الرجال ، فنحاه عن البيوت ، وسقطت القتلى حوله ، وكانت ساعة دفاع ظهر فيها اليأس بكل معناه ، رجل يبري السيف عنقه .. ورجل تراه تحت حوافر الخيل .. وآخر تحمله الاسنة ثم تقذف به الى هوة الموت ، حتى غاصت الرجال في الدماء ، وخارت القوى ، وحضرت عندئذ ساعة الصلاة .

فقال ابو ثمامة الصائدي للحسين : نفسي لنفسك الفداء .. أرى هؤلاء قد اقتربوا منك فوالله لا تقتل حتى أقتل قبلك وأحب أن القى ربي وقد صليت .

فرفع الحسين رأسه وقال: ذكرت الصلاة فليجعلك الله من المصلين الذاكرين .. نعم هذا وقتها فقولوا للقوم ان يكفوا عنا حتى نصليْ .

فسألوهم ذلك، فقال الحصين بن نمير : انها صلاة لا تقبل ..

فأجابه حبيب بن مطهر قائلاً : لا تقبل الصلاة من آل رسول الله وتقبل منك يا لعين ؟

فهاجمه الحصين وهو على فرسه .

فضرب ابن مطهر وجه الفرس بالسيف ، فشب ،وسقط الحصين على الارض وهو يرى الموت .

ولكن أصحابه أنقذوه وحملوا على حبيب .

فقتل رجلا منهم من بني تميم .

ثم رفع يده ليقتل سواه ، فطعنه تميمي آخر من الوراء فخر على وجهه ، ثم همّ بالنهوض فضربه الحصين بالسيف على رأسه ، فوقع ، ونزل التميمي فقطع

ذلك الرأس .

فلما رأى الحسين رأسه قال : انا لله وانا اليه راجعون .. هؤلاء رجالي وحماة أهلي . يحصدهم السيف ، الواحد بعد الآخر ، فارحمهم يا الله .

فقال الحر بن يزيد وزهير بن القين: بقي أن يحصدنا هذا السيف نحن الاثنين ..

وشهرا سيفيهما واقتحما الأسنة .

وكان أحدهما إذا حمل وغاص في القوم لحق به الآخر حتى يفرق الناس عنه .

فعلا ذلك ساعة لا يتراجعان ولا يطرف لهما جفن .

حتى أصيب الحر بطعنتين ، فقتل

والحسين معتصم بهدوئه ، صابر على مـــا يراه صبر الرجال المؤمنين بالله ، المستسلمين الى مشيئته عز وجل .

ثم صلى الظهر بهم صلاة الخوف .

واقتتلوا بعد ذلك أشد قتال ، حتى انتهى أهل الكوفة إلى الحسين ، فقاتل زهير بن القين بين يديه حتى سقط .

وكان نافع بن هلال قد كتب اسمه على سهامه ، وهي مسمومة ، وقد قتل بها اثني عشر رجلاً .

ولكن منيته قد دنت ، فما هي إلا ساعة حتى ضرب وكسرت ذراعاه ، وحمل أسيراً إلى عمر بن سعد .

فانتضى شمر سيفه ليقتله ، فقال له نافع : والله لو كنت من المسلمين لعظم عليك ان تلقى الله بدمائنا ، فالحمد لله الذي جعل منايانا على يدي شر خلقه ..

فضرب شمر عنقه ، ثم صاح بقومه ، فرجعوا مجتمعين الى الحسين وهم يقولون : لقد طاب القتال الآن .

فرأى أصحاب الحسين في تلك الساعة، أنهم أضعف من ان يحفظوا حياة الرجل الذي أحبوه .. بل هم لا يقدرون على الفرار من الموت .

وماذا يفعلون ، وقد كثر الناس حولهم وطوقتهم الخيل ؟ انهم يؤثرون الموت بين يدي سيدهم ، على الحياة في ظل يزيد بن معاوية .

وجعلوا يدافعون عنه والابتسامات على الثغور .

ورجال الجيشين يسقطون حوله جثثاً مهشمة .

فقام حنظلة بن اسعد الشامي فنادى : يا أهل الكوفة ، لا تقتلوا الحسين فسيأتيكم عذاب الله .

فقال له الحسين : رحمك الله انهم قد استوجبوا العذاب حين ردوا ما دعوتهم اليه من الحق ونهضوا ليستبيحوك وأصحابك ، فكيف بهم الآن وقد قتلوا اخوانك الصالحين .

فسلم على الحسين وعلى أهل بيته ، وتقدم فقاتل حتى قتل ..

ثم تقدمت الرجال بعده يودعون الحسين الواحد بعد الآخر ويغوصون في ذلك البحر الزاخر فتبتلعهم لجته ..

حتى قتل الأنصار جميعهم ، لم يبق منهم غير عباس بن ابي شبيب الشاكري ، وسويد بن المطاع ، ويزيد بن أبي زياد .

وكان عباس قد طلب البراز .

فتنحى الناس عنه لشجاعته .

فقال عمر بن سعد : ارموه بالحجارة ..

فرموه من كل جانب .

فلما رأى ذلك القى درعه ومغفره وحمل على الناس فتفرقوا عنه ساعة ثم رجعوا اليه فقتلوه .

فجثا يزيد بن ابي زياد الكندي ، عند قدمي الحسين ، ورمى بمائة سهم من سهامه ما سقط منها خمسة اسهم .

وكان الحسين يقول له كلما رمى : اللهم سدد رميته واجعل ثوابه الجنة .

ولكن شجاعته لم تحفظ حياته .. ان في جيش الكوفة ألوفاً من رجال السيف ، وليس حول الحسين غير اهل بيته ..

وجاء عندئذ دور آل البيت .

ان انصارهم قتلوا في سبيل الدفاع ، فلم يبق إلا أن يستقبلوا الموت كما استقبله

اولئك الانصار الاوفياء .

وهذا علي الاكبر ابن الحسين ، وامه ليلى بنت ابي مرة ، يحمل على القوم وهو يقول :

أنا علي بن الحسين بن علي نحن ورب البيت اولى بالنبي

تالله لا يحكم فينا ابن الدعي

فعل ذلك مراراً لا يبالي بالعاصفة الهوجاء تضيع فيها نفوس الرجال .

حتى طعنه مرة بن منقذ العبدي طعنة لفظ بعدها الروح .

وعينا أبيه الحسين تنظران اليه .. فصاح قائلاً : قتل الله قوماً قتلوك يابني ما أجرأهم على الله وعلى انتهاك حرمة الرسول .. على الدنيا بعدك العفاء ..

ثم أقبل اليه ومعه فتيانه ، فقال : احملوا أخاكم ..

فحملوه حتى وضعوه عند باب الفسطاط وقد قطعت السيوف جسده الغض.

واستخف اهل الكوفة باولئك الفتيان الصالحين .

رمى عمرو بن صبيح ، عبد الله بن مسلم بن عقيل ، بسهم فوضع عبد الله كفه على وجهه فاخترقها السهم ولم يستطع ان يحركها بعد ذلك .

ثم رماه بسهم آخر فقتله . وهاجم الناس آل علي .

حمل عبد الله بن قطبة الطائي ، على عون بن عبد الله بن جعفر فقتله .

وحمل عثمان بن خالد الجهني وبشر بن سوط على عبدالرحمن بن عقيل بن أبي طالب فقتلاه ، ورمى عبدالله بن عروة الخثعمي جعفر بن عقيل فقتله .

ثم حمل القاسم بن الحسن ، بن علي ، وبيده السيف ففاجأه عمر بن سعد بن نفيل بالسيف على رأسه فسقط القاسم على وجهه وهو يقول : يا عماه ..

فانقض الحسين كالصقر وضرب عمراً بالسيف فاتقاه بيده فقطعت من المرفق ، وجعل يستغيث ..

فأقبلت خيل الكوفة لتنقذ عمراً ، وجالت فوطئت القاسم حتى مات .

ثم انجلت الغبرة والحسين واقف على رأس القاسم وكان يقول : عزّ والله على عمك ان تدعوه فلا يجيبك أو يجيبك ثم لا ينفعك صوته .

ثم احتمله على صدره ، حتى ألقاه مع ابنه علي ، ومن قتل معه من اهل بيته .

ومكث الحسين بعض ذلك النهار وكلما انتهى اليه رجل من الناس ، رجع عنه ، وكره ان يتولى قتله ..

حتى أتاه رجل من كندة يقال له مالك بن النسير فضربه بالسيف على رأسه فسال دمه .

فقال له الحسين : لا اكلت بيدك ولا شربت ..

ثم لبس قلنسوته ودعا بابنه عبدالله وهو صغير ،فجعله على ركبتيه وهو ينظر الى الناس نظرات الذهول ..

فأقبل رجل من بني أسد فرمى الغلام ، وامتلأ حجر ابيه دماً ..

فصب الحسين دمه في الارض ثم قال : رب ، ان تكن حبست عنا النصر من السماء فاجعل ذلك لما هو خير وانتقم من هؤلاء الظالمين .

وبيناهوينظر الى العلاء، أصيب ولده ابو بكر بسهم فهوىقتيلا عندقدميه..

وكان قاتله عبدالله بن عقبة الغنوي .

فقال العباس بن علي لاخوته من امه ، عبد الله وجعفر وعثمان : الى الامام .

فتقدموا ، فقتلوا ..

ثم قتل محمد بن علي وحمل رأسه .

واشتد في تلك الساعة عطش الحسين .. فدنا من الفرات ليشرب .

فرماه الحصين بن نمير بسهم فاصابه في فمه ...

فجعل يتلقى الدم بيده ثم رمى به نحو السماء وقال: اللهم اني اشكو اليك مايصنع بابن بنت نبيك .. اللهم أحصهم عدداً ، واقتلهم بدداً ، ولا تبق منهم احداً .

وكان القوم قد حالوا بينه وبين رحله .

فقال لهم : ويلكم ، ان لم يكن لكم دين ، ولا تخافون يوم القيامة ، فكونوا أحراراً ذوي أحساب .. امنعوا رحلي وأهلي من طغاتكم وجهالكم ..

فقالوا : ذلك لك يا أبن فاطمة .

ثم اقبل شمر بن ذي الجوشن ، ومعه عشرة من رجاله .

منهم عبد الرحمن الجعفي ، والقشم بن نذير ، وصالح بن وهب ، وسنان ابن انس وخولي بن يزيد الاصبحي وجعل شمر يحرضهم على الحسين .

والحسين رضي الله عنه يحمل عليهم فينكشفون عنه .

ثم أحاطوا به ، من اليمين والشمال .

فهاجم الذين عن يمينه فتفرقوا ، ثم هاجم الذين عن يساره فثبتوا ساعة ثم فروا ، والذعر في القلوب .

أجل ، لم ترَ العرب قط ، رجلا ، قتل ولده واصحابه وأهل بيته ، أربط جأشاً واثبت جناناً منه ..

كانوا يفرون اذا رأوه كما يفر القطيع اذا شد فيه الذئب .

وبينما هو كذلك ، خرجت أخته زينب وهي تقول : ليت السماء انطبقت على الأرض .

وكان عمر بن سعد قد دنا ، فقالت له : يا عمر ، أيقتل أبو عبدالله وأنت تنظر اليه ؟!

فحول وجهه عنها وسالت دموعه على خديه .. !

وكان على الحسين جبة من خزّ ، وهو يقاتل راجلا قتال الفارس الشجاع الجبار ، يتقي السهام ويشد على الخيل ، وكان يقول : أعلى قتلي تجتمعون ؟ أما والله لا تقتلون بعدي عبداً من عباد الله اسخط عليكم لقتله مني ، وأيم الله اني لأرجو أن يكرمني الله بهوانكم ثم ينتقم لي منكم من حيث لا تشعرون .

ومكث ملياً ولو شاء الناس أن يقتلوه لقتلوه ..

غير أن ابن ذي الجوشن لم يرض بأن يبقي الحسين . فصاح بالقوم : ويحكم ماذا تنتظرون .. اقتلوا الرجل ثكلتكم امهاتكم .

فضربه زرعة بن شريك التميمي على كفه اليسرى ثم ضربه على عاتقه .. ثم انصرفوا عنه ..

وهو يقوم ويكبو .

فحمل عليه ، وهو على هذه الحال ، سنان بن أنس النخعي ، وطعنه برمحه ، فوقع ثم قال سنان لخولي بن يزيد : احتز رأسه ..

فأراد أن يفعل ، فضعف وارتجفت يداه ، فنزل سنان فذبحه ودفع رأسه

الى خولي .. واقتسم القوم ثيابه وسلاحه ، أخذ بعض ثيابه بحر بن كعب ، واحتفظ بقطيفته ، وهي من خز ، قيس بن الأشعث . وأخذ نعليه الاسود الأزدي . أما سيفه فكان نصيب رجل دارمي ..

ومال الناس ، فنهبوا الفرش والحلي والابل والمتاع وما على النساء من لباس.

ووجد بالحسين ، ثلاث وثلاثون طعنة ، واربع وثلاثون ضربة حتى خيل إلى الناس ان جسده جرح واحد ..

وكان سويد بن المطاع قد صرع، وسقط بين القتلى مثخناً بالجراح وهو لم يمت.

فسمعهم يقولون : قتل الحسين ..

فوثب كالنمر الجريح ، ومعه سكين ، وكان سيفه قد أخذ منه ، فقاتلهم بسكينه ساعة ثم قتل !..

وهو آخر من قتل من أصحاب الحسين .

ثم انتهى الظالمون الى علي بن الحسين زين العابدين وكان مريضاً .

فأراد شمر ان يفاجئه بالسيف ، فقال له حميد بن مسلم : سبحان الله ، أتقتل الصبيان ؟!

ثم جاء عمر بن سعد فقال : لا يدخلن بيت النساء أحد ولا يعرض احد لهذا الغلام المريض.. ومن أخذ من متاعهم شيئاً فليرده .

قالها ورجع إلى خيمته ..

فلم يبالِ الناس بما قال .

ثم قال بعضهم لسنان بن انس النخعي: قتلت الحسين ابن فاطمة بنت رسول الله فأنت قاتل اعظم العرب خطراً ، فاذهب الى امرائك ، واطلب ثوابك منهم فإنهم لو اعطوك بيوت اموالهم في قتله كان قليلا .

فأقبل على فرسه ، وكان شجاعاً فارساً ، حتى وقف على باب فسطاط عمر بن سعد ثم نادى :

أوقر ركابي فضة وذهبا   اني قتلت السيد المحجبا

قتلت خير الناس أماً وأبا   وخيرهم اذ ينسبون نسبا

فقال عمر : أشهد انه مجنون .. ادخلوه .

فلما دخل قال له : يا مجنون ، أتتكلم بهذا الكلام .. والله لو سمعك ابن زياد لضرب عنقك .

وحمل الى عمر ، مولى الرباب زوجة الحسين ، ويدعي عقبة بن سمعان ، فقال له : ما انت ؟

قال : انا عبد مملوك .

فخلى سبيله ، فلم ينجُ غيره من اصحاب الحسين ، وغير المرقع بن ثمامة الاسدي ، الذي أمنه بعض قومه .

ثم نادى عمر : من ينتدب الى الحسين فيوطئه فرسه ؟..

فانتدب عشرة ، منهم اسحق بن حياة الحضرمي وهو الذي أخذ قميص الحسين ، وبرص بعد ذلك .

فأتى هؤلاء العشرة فداسوا الحسين بخيولهم حتى رضّوا ظهره وصدره !!

وكان اصحاب الحسين الذين قتلوا معه ، اثنين وسبعين رجلاً ، وقد دفنوا مع سيدهم ، بعد قتلهم بيوم .

وقتل من اصحاب عمر بن سعد ، ثمانية وثمانون رجلاً ما عدا الجرحى .

٤

تقلب عبد الرحمن بن مسلم متألماً على فراش مرضه ، بضعة ايام ، كانت في نظر أمامة اكثر من عام .

فلما صحا من حمّاه ، رأى خولة وامامة ، وعبد الرحمن المرادي ، عند فراشه وهم ينظرون اليه .

فأرسل نظره الى جانبيه ثم قال : أين ابي والحسين ؟

فابتسم المرادي قائلاً : سيجيئان بعد ساعة .

قال : لقد رأيتها الآن ..

– هنا ؟

– نعم ، وكان وجه ابي ملطخاً بالدماء ، والسهام في صدره .. ثم اقبل الحسين ويده على رأسه وقد سال دمه .

واستوى جالساً وهو يمسح دموعه ويقول : ويلي فقد قتل الاثنان ..

فاصفرّ وجه امامة ثم قالت : يا عبد الرحمن .. أتعلم أين أنت ؟

– اعلم اني كنت في كربلاء ..

– ولكنك الآن في الكوفة ونحن معك ...

– في الكوفة ؟

– أجل ، وان أباك والحسين هما اللذان ارسلاك اليها .

فرفع عينيه الى السماء ثم سكت .

فقالت : أتعرفني ؟

فتردد قليلاً ثم قال : لقد عرفت الآن كل شيء ، وذكرت كل شيء . انك امامة .. وقد قدمت الكوفة لانظر مع خولة في امر زوجها عمرو بن الحجاج.

– وتعلم انك مريض ؟

– نعم أنا مريض، وهذا فراشي يشهد .. ولكن ماذا جرى للحسين ؟وهل شهر ابن زياد السيف ام ماذا ؟

– ليس في الكوفة من يعلم شيئاً عن الحسين .. ان ابن زياد أمر رسله بأن يكتموا الناس اخبار كربلاء ..

قال : والشيخ الذي حمل كتاب امك ؟

– لم يعد ، وقد يجيء الليلة .

فقال لعبد الرحمن : أترى اننا نستطيع ان نرجع غداً ؟

– اما أنا فسأفعل .

– وأنا ؟

– وأما أنت فتبقى ريثما تعود اليك العافية .

وقبل ان يجيب ، اقبلت الجارية خوصة تقول : لقد جاء عبد الله .

فقالت خولة : أبو عدي ؟

– نعم .

ودخل ابو عدي فسلم وجلس .

فقالت له : أرأيت عمراً ؟

– أجل ، وأعطيته الرسالة ولكنه لم يشأ ان يكتب كلمة .

– وماذا قال ؟

– اضطرب قليلاً ثم قال : اني لاحق بك ..

– ومن رأيت من رجال الحسين ؟

– لم أرَ أحداً لأن الحرب قد اشتعلت نارها وأنا لم أجاوز المعسكر .

فقال ابن مسلم : وخاض غمارها الحسين نفسه ؟

– قلت اني لم أرَ أحداً ولم أتبين الحسين .. بلى ، رأيت عمراً على فرسه وعلى ثيابه ووجهه آثار القتال .

– اذن كنت يا شيخ أصم أبكم لم تسمع خبراً ولم تسأل سؤالا ..

بل سألت ابن الحجاج عن الحرب فقال : سيفنى رجال الحسين في هـذا اليوم ، وان لم يقتل الحسين الآن قتل غداً !!

فصاح قائلا : سيفي وفرسي يا عبد الرحمن ...

قال: انهض اذا قدرت .

فحاول المسكين ان يترك فراشه فمنعه الضعف .

فأخفى وجهه بيديه وجعل يقول : خير لي ان استر عاري ، في كوخ من اكواخ الصيادين ، على الفرات ، من ان يراني الناس في حي من احياء الكوفة ..

– واين هو هذا العار ؟

قال : هو هنا .. يخوض ابي مجال القتال وانا بعيد عنه ..

فاستوى الرجل جالساً وقال : اني شيخ لا اترك المسجد .. ولكني خبرت

الزمان واهل الزمان فانا اعلم ما لا تعلمه انت .. قل لي ماذا تصنع اذا رجعت الى كربلاء ؟

– ادافع عن الحق ، كما يدافع ابي. واشراف الناس انصار الحسين .

قال : حول الحسين ابطال الميادين فلا حاجة لهم اليك ..

– ولكني اضرب ضربة واحدة في سبيل ابن بنت الرسول .

قال : من امرك بالمجيء الى الكوفة ؟

– ابي والحسين نفسه .

– وتعرف غاية الاثنين ؟

– لا .

– اما انا فقد عرفتها دون ان يقولها لي احد .. لقد ارادا ان يحملاك بعيداً عن ساحة الوغى ، حفظا لحياتك ..

– بل ارادا ان يتنحى عمرو بن الحجاج ، عن عمر بن سعد .

– ذلك ما ذكراه لك ، ولكن الاثنين يعلمان ان عمر ابن سعد هو الظافر ، ولو تنحى عنه ابن الحجاج ..

– هو الظافر ؟

– نعم ، فابوك والحسين ، والسبعون رجلاً الذين يحيطون بها ، لا يستطيعون ان يجولوا جولة واحدة امام جيش ابن زياد .

– اذن كتب للحسين ومن معه ان يموتوا .

– اجل سيموت الحسين ، ان لم ينزل على حكم هـــذا الطاغية الذي يستبد اليوم بأهل العراق .

– وكيف ينزل على حكمه وهو سيد المسلمين ؟!

– ذلك ما لا اعلمه فاسأل القدر الجائر الذي يحط الاعزاء الاشراف ، ويرفع الاخرين ..

فكاد الفتى يختنق ، فقال احملوني على ناقة أو فرس فأنا لا اطيق البقاء .

قال : خير لك يا بني ان تبقى فسيفك أضعف من ان يصون حياة الحسين..

قال : أراك تتكلم وانت واثق .

ـ أجل واثق بان عمر ابن سعد سيعود ظافراً الى الكوفة، بعد بضعة ايام ، وينتهي أمر ابن فاطمة .

ثم قال : بل أظن ان هذا الامر قد انتهى ..

فتجلد قائلا : يخيل الي انك حـــامل نعي الحسين واصحابه وانت تكتمنا اياه .. قل فأنا قادر على الاحتمال .

ودمعت عيناه ..

قال : اقسم لك اني لا احمل هذا النعي،ولكن سيحمله الناس غداً،كالبشرى لابن زياد .

فاحس الفتى ان النار تتقد في صدره فأغمض عينيه وهو يقول :

سبحانك اللهم ، لقد جعلت القدر عدواً لي ، واردت ان اشقى ، فليكن ما اردت .

وسقط على فراشه وقد خنقته الدموع.

فأومأت امامة الى الشيخ بان يسكت .

واقبلت سلمى في تلك اللحظة تقول همساً : انصرف يا أبا عدي ، فقد سمعت كل شيء ، وانا اخشى ان يقتل اليأس عبد الرحمن .

قال : اردت ان اذكر له ما اعلم ، ليستطيع غـــداً ان يحتمل النبأ الرائع الذي سينتهي اليه .. انه لن يرى الحسين ، ولن يرى احداً من اتباعه ..

ونهض فانصرف .

فاطرقوا جميعاً يفكرون في الامر ، والـكآبة تغمر النفوس ، واللوعة في العيون والبكاء يتردد في صدر امامة المنكودة الحظ .

ولم يسمع عبد الرحمن كلمات الشيخ عند انصرافه ...

٥

سار عقبة بن سمعان ، مولى الرباب زوجة الحسين ، الى المدينة ، بعد ان خلى سبيله عمر بن سعد .

وانصرف المرقع بن ثمامة الاسدي ، الذي امنه قومه ، يوم مقتل الحسين ، الى الكوفة ، وهو يظن انه قد نجا .

وخرجت زريحة ، جارية مسلم بن عوسجة ، التي ربت عبد الرحمن،فلحقت بأجا، جبل بني طيء ، وفيه اهلها .

وأوصت المرقع الاسدي بان يقول لعبد الرحمن بن مسلم ، اذا رآه ، انهـــا ستقضي في ذلك الجبل ، ما بقي لها من العمر .

ثم طلبت اليه ، ان ينصح له بترك الكوفة ، ما دام الطاغية ابن زياد، عاملا ليزيد .

وقبل ان تغادر كربلاء ، بكت مولاها مسلما والحسين واصحابه،وانصرفت عندما جن الليل .

فلما بلغت عذيب الهجانات ، لقيها الطرماح بن عدي الطائي ، الذي كان قد وعد الحسين بالرجوع اليه ، فقال : ماذا صنع الحسين ؟

قالت : قتل الحسين واصحابه ، والرجال من أهل بيته وانامنطلقة الى قومي في جبل طيء واجهشت بالبكاء .

فأطرق الطرماح ملياً ثم قال : ويل لامة محمد ، ولعن الله زمانا يقتل فيـه ابن علي ويملك ابن معاوية ... كنت أريد ان اضع قـدمي حيث يضع الحسين قدمه رضي الله عنه ، فخانني القدر فالويل لقاتليه من يوم الدين .

وجعل يمسح دموعه وهو يقول :

وقتل مولاك مسلم ؟

— قتل الجميع ولم ينجُ غير المرقع بن ثمامة وعقبة بن سمعان .

— وعبد الرحمن ؟

— ذهب عبد الرحمن بأمر الحسين الى الكوفة ولم يعد وأنا لا اعلم اليوم اين هو وقد اوصيت المرقع بأن يقصّ عليه ما جرى .

— ومن قتل مسلما ؟

— رجال كان يقودهم عمرو بن الحجاج .

فتراجع قائلاً : واشترك عمرو في قتله ؟

— لا ، فقد كان بعيداً عندما تخطفته السيوف .

— وهل تستطيعين ان تذكري لي اسماء الذين قتلوا من آل علي ؟

— اذا اردت ان تعرف هذه الأسماء فاكتبها .. اني اذكر لك ما اعلم على ان يخبرك سواي ما لا تعلمه الآن .

— قولي فسأكتب هذه الأسماء على صفحة الصدر .

— قالت : قتل من اخوة الحسين :

العباس ، وجعفر ، وعبد الله ، وعثمان ، ومحمد ، وأبو بكر ، الذي قالت احدى الجواري انه لم يقتل ..

— ومن ولده ؟

— علي الاكبر ، وعبد الله ، وقتل ابو بكر ابن اخيه الحسن واخوه القاسم، وعون ، بن ابي جعفر بن ابي طالب ، ومحمد بن عبد الله بن جعفر ، وجعفر بن عقيل بن ابي طالب ، واخواه عبد الرحمن وعبد الله ، وكان ابن زياد قد قتل اخاهم مسلما في الكوفة ، وقتل ابن مسلم هذا ،ومحمد بن ابي سعيد بن عقيل وقد يكون هنالك آخرون لا تحضرني اسماؤهم ..

— اذن بقي من ابناء الحسين ، علي الآخر واخواه الصغيران الحسن وعمرو ؟

— نعم .

— وهم اليوم في كربلاء ؟

— تركتهم فيها مع النساء وقد سمعت ان عمر ابن سعد سيذهب بهم جميعاً

الى الكوفة ليرى ابن زياد فيهم رأيه وقد يأمر بارسالهم الى دمشق .

– اذن لم يبق لي ما اصنعه في كربلاء .

– قل انه لم يبق لك امل بأن تفعل شيئاً .. الحسين واصحابه جثث مهشمة ، والارض التي تنام فوقها هذه الجثث ، مصبوغة بالدماء .

فجعل يقول : انا لله وانا اليه راجعون .. ان العودة الى ديار بني طيء خير ما ألجأ اليه .

قالت : كنت احب ان اسير الى الكوفة قبل ان انصرف الى بني قومي .. لأرى عبد الرحمن .

– وعدلت الآن ؟

– نعم .

– لماذا ؟

– لأني اخشى ان اضيع مولاي فلا اراه ، ثم يبلغ ابن زياد اني في الكوفة ، فيأمر بقتلي ..

– وهل تمتد يد الطاغية الى النساء ؟!

ان الرجل الذي تمتد يده الى حفيد رسول الله لا يعف عن احد ولا يبالي بأحد.

قال : اذا كان عبد الرحمن باقياً في الكوفة فسيراه المرقع بن ثمامة وينقل اليه ما اوصيته به .

وبات الاثنان ليلتهما في عذيب الهجانات ، ثم رحلا عند الصباح يريدان بلاد طيء ، وزريحة لا تكف عن البكاء ..

٦

دعا عمر بن سعد ، خولى بن يزيد ، وحميد بن مسلم الأزدي ، وهما من أركان جيشه ، فقال لهما : احملا رأس الحسين ورؤوس أصحابه الى ابن زياد ،

وانا لاحق بكما بعد يوم ، مع ابناء الحسين واخواته .

وهنالك من يقول ، ان الرجال الذين حملوا الرؤوس هم :

شمر بن ذي الجوشن ، وقيس بن الأشعث ، وعمرو بن الحجاج ، وعروة بن قيس ، وقد عرفت هؤلاء .

فلما انتهى القوم الى الكوفة ، كان الهزيع الثاني من الليل قد انقضى ، وقد أغلق ابن زياد أبواب قصره .

فأتى خولى بن يزيد منزله ، ورأس الحسين معه ، وقد وضع ذلك الرأس تحت وعاء تغسل فيـــه الثياب . ثم استلقى على فراشه وقال لزوجته : جئت بغنى الدهر .

قالت : ماذا ؟

قال : هذا رأس الحسين بن علي معك في الدار ..

قالت : ويلك ، جاء الناس بالذهب والفضة ، وجئت برأس ابن رسول الله، والله لا يجمع رأسي ورأسك بيت أبداً ..

وقامت فخرجت من المنزل .

فلما كان اليوم الثاني ، غدا القوم برؤوس القتلى إلى مجلس اميرهم عبيدالله ، ومشى خولى ورأس الحسين في يده .

وكان عبدالرحمن بن الحصين المرادي . يهم بالرجوع وحده الى كربلاء ، على ان يعود إلى الكوفة حاملاً أخبار القتال الى عبدالرحمن بن مسلم ، الذي لم يكن قادراً على الركوب في ذلك اليوم .

ولكن ابن مسلم نهاه عن السفر قائلا له : نعود غداً أو بعد غد ، وقد نبلغ كربلاء ، قبل ان يتم الأمر ، الذي ذكره المذحجي ابو عدي .

وكانت إرادة ابن مسلم أمراً لا يرد .

فقال المرادي : اخرج إذن الى السوق ، فان الناس يرددون همساً أخبار الحسين دون ان يعلم ابن زياد .

وقام فانصرف ، حتى بلغ ساحة القصر ، فسمع الناس يقولون : رأس الحسين

ورؤوس أصحابه بين يدي عبيدالله ..

فاصفر وجهه وارتجفت شفتاه .. خوفاً من ان تفضحه مظاهر ذعره ، أو تبدو منه بادرة غضب ..

ثم أبصر المرقع بن ثمامة عند المسجد ، وهو ذاهل .

فمشى اليه ، وهو يعرفه ويعلم أنه من بني أسد، ومن أنسباء مسلم بن عوسجة فلما داناه قال : مرحباً يا عم .

فالتفت اليه وقد صحا من ذهوله ، ثم قال : ابن الحصين ! أين عبد الرحمن ابن مسلم ؟

– هو هنا ..

– أعرف أنه في الكوفة ، ولكن في أي منزل ؟

– في منزل هانىء بن عروة :

– ذلك المنزل الذي يقيم به عمرو بن الحجاج ؟

– نعم .

– اذن فابن مسلم يقيم مع قاتل أبيه في بيت واحد ؟

فتراجع قائلا : وهل قتل ابن عوسجة ؟

– أجل ، وقاتله عمرو بن الحجاج أبو امامة .

فجعل يقول :

أبو امامة .. قاتل مسلم ، وامامة ، بهجة حيـــاة عبد الرحمن ، وأمله الضاحك ، وستمسي زوجة له ؟! أيخسر عبد الرحمن اباه وخطيبته في ساعـــة واحدة ، ويجفو القدر اللعين مثل هــذا الجفاء ساخراً بالفتى البريء العاشق ؟ انه خبر لا يحتمله المسكين وقد يموت عندما نخبره به ..

ثم قال : وكيف قتله ابن الحجاج ؟

– لا اعلم ، ولكني سمعت زريحة جارية مسلم تصيح :

قتل الله قاتلك يا مسلم بن عوسجة ..

– ثم ماذا ؟

– ثم سألت الناس فقيل لي : قتله عمرو .

– وهذه الرؤوس التي حملوها الساعة الى ابن زياد ؟

– هي رؤوس الحسين واصحابه واخوته وبنيه .

– وكيف نجوت أنت ؟

فقص عليه خبره ، فقال :

وأي رأي لك في عبد الرحمن ؟

– أرى ان يترك الكوفة قبل ان يعلم ابن زياد أنه فيها وارجو ان تقول له ، ان زريحة جارية ابيه تريد ان يلحق بها الى البلد الذي ستقيم به .

– وأين تقيم ؟

فهمّ بأن يجيب ، ولكنه لم يقدر ..

ذلك لأن رجال الشرط احاطوا به وقال احدهم : ألست المرقع بن ثمامة الاسدي ؟

قال : بلى .

– اذن فامش معنا فان الامير يدعوك ..

– عبيد الله ؟

– ليس في الكوفة امير سواه .

– ولكني تركت الحسين وامنني بنو قومي ..

قال : الى القصر فنحن لا نعلم شيئاً مما تقول .

فقال لابن الحصين :

نجوت من الحرب ولكن لا ينقذني غير الله عز وجل من ابن زياد .. الى القصر يا رجال الشرط .

وتقدمهم وهو غير خائف ، وابن الحصين لا يجسر على ان يسأله ، عن البلد الذي رحلت زريحة اليه .

٧

جلس ابن زياد في قصره ، واذن للناس ثم أمر ، فأحضرت رؤوس القتلى بين يديه .

فتناول قضيبه وجعل ينكت به شفتي الحسين !.

وكان في القوم ، زيد بن الارقم ، وهو شيخ ، فقال له : ارفع هذا القضيب يا ابن زياد فوالذي لا إله الا هو لقد رأيت شفتي رسول الله ﷺ على هاتين الشفتين يقبلها ..

ثم أبكى .

فقال الامير :

ابكى الله عينيك ، فوالله لولا انك شيخ قد خرفت وذهب عقلك لضربت عنقك في هذا المجلس .

فخرج وهو يقول ، والناس يسمعون :

انتم يا معشر العرب، العبيد بعد اليوم..قتلتم ابن فاطمة وأمرتم ابن مرجانة الذي يقتل خياركم ، ويستعبد اشراركم ، وقد رضيتم بالذل فبعداً لمن يرضى بهذا.

وأعاد قوله مرتين وثلاثاً .

فقيل لابن زياد : ألا تسمع ما يقوله زيد بن الارقم ؟

قال : ليقل ما يشاء فالناس لا يسمعون لرجل دب فيه الخرف .

ثم قال لقيس بن الأشعث : ماذا رأيت في حرب الحسين ؟

– رأيت ما يراه الأمير الآن .. هـــذا رأس الحسين ، ورؤوس أصحابه واخوته وبنيه بين يديك ، وذلك أبلغ ما رأيته أنا وتراه أنت ..

– ومتى يجيء عمر بن سعد ؟

– يمثل بين يديك ، بعد يوم أو يومين .

– وأخوات الحسين وبناته ؟

– يجيء بهن إليك .

– وتعرف من فر من القوم ؟

فابتسم قائلا :

لم يكن للقوم رأي في الفرار ، ولو أرادوا ذلك لاستطاعوا .

– إذن كان من رأيهم ان يموتوا .

– نعم ، كانوا يقتحمون الموت الواحد بعد الآخر فداء عن سيدهم ، وكان الرجل منهم يلقى العشرين والثلاثين من الرجال .

– حتى قتلوا جميعاً .

وقهقه كما يقهقه السكران .

فقال : أجل ، قتلوا جميعاً إلا رجلين اثنين ، هما عقبة بن سمعان ، مولى الرباب احدى نساء الحسين ، والمرقع بن ثمامة الأسدي الذي يعرفه الأمير .

– وكيف استطاعا الفرار .

– قلت ان القوم لم يفروا . لقد خلى عمر بن سعد سبيل عقبة ، لأنه عبد ، وبنو أسد الذين حاربوا الحسين تحت لوائك ، أمنوا المرقع ، وهو منهم .

– فعلوا ذلك قبل ان يشهر المرقع السيف ؟

– لا ، فقد قاتلنا الرجل كما قاتلنا سواه ، ثم دعـــاه قومه فخرج اليهم مستسلماً وقد ألقى سيفه .

قال : أما عقبة العبد فلا نبالي به ، ولكن نريد ان نرى ابن ثمامة فأين هو ؟

فقال عروة بن قيس : هو في الكوفة ايها الأمير .

– ورأيته انت ؟

– رأيته أمس ، ورأيته هذا الصباح .

فقال لصاحب شرطته : اقلب الكوفة بطناً لظهر واحمله إليّ .

فخرج الرجل فنادى رجاله وأمرهم بذلك .

فلم يسيروا غير قليل ، حتى رأوا المرقع عند المسجد مع ابن الحصين المرادي

فقبضوا عليه كما رأيت ، ثم ذهبوا به إلى القصر .

فلما رآه ابن زياد قال : يا ابن ثمامة ! تشهر السيف في وجه امير المؤمنين ولا تبالي ؟

فحنى رأسه ولم يجب ، فقال : ألك عذر ؟

–لقد جرى ما جرى وانتهى الأمر .

– أجل ، انتهى أمر الحسين أما أمرك فلم ينته ، وكنا نحب أن نضرب عنقك على سطح القصر ليعلم الناس جميعهم ان ابن زياد لا يطيق ان يستخف بـه أحد .

والتفت إلى من حضر من بني أسد فقال : ولكن قومك كانوا جنوداً لنا ولأمير المؤمنين ، فنحن نكتفي بأن ننفيك عن الكوفة ، على ان لا نراك فيها ولنا فيها ظل . قم وارحل الساعة وهؤلاء الرجال يسيرون معك إلى الأطراف.

فنهض الاسدي فخرج ولم يقل كلمة .

ولم يلبث حتى أعد عدته وترك الكوفة مع حراسه وأهل بيته دون ان يذكر لأحد ، اسم البلد الذي سيقيم به .

وكان عبد الرحمن بن الحصين قد عاد الى المنزل والكآبة تغمر نفسه ، وهو يندب حظ عبد الرحمن بن مسلم .

٨

عرفت الكوفة كلها ، ان رجال عمر بن سعد ، حملوا رؤوس القتلى الى ابن زياد ، في ذلك الصباح .

فمشوا رجالاً ونساء الى ساحة القصر .

وهم يتهامسون ، وقد مدت رواقها فوقهم رهبة الموت .

وبينا القوم في منزل هـــانيء ، يتحدثون بأمر الحرب ، دخلت خوصة ، والدموع في عينيها ، وهي تصيح قائلة :

ويل للكوفة فقد قتل الحسين وأصحابه .

فخفقت القلوب ، واصفرت الوجوه ..

وأرخى عبد الرحمن نظره الى الأرض ، كأنه لم يسمع .

والعيون كلها تنظر اليه .

ثم رفع رأسه وهو هادىء غير مضطرب فقال :

من نقل اليك الخبر يا خوصة ؟

– اهل الحي ، والكوفة كلها الآن عند قصر ابن زياد .

– وهل رجع جيش ابن سعد ؟

– يقولون انه يرجع غداً ، فالويل ثم الويل لهـذا الطاغية الظالم الذي أمر بقتل ابن رسول الله .

فتململ الفتى ، ثم نهض عن مقعده وقد أحس ان قواه رجعت اليه ، وانه قادر على الخروج .

ومشى الى الباب وهو لا يتكلم ،ولكن ابن الحصين كان قد دخل ،وكأنه قادم من سفر .

آثار التعب والهم على وجهه ، والألم ، بصورته الرائعة في عينيه .

فتراجع عبد الرحمن حتى جلس فقال : ماذا رأيت ؟

فتمتم قائلا : لم أر شيئاً .

قال : هذه خوصة قد خبرتنا كل شيء فاذكر ما تعلم .

فعجب المرادي لهذا الصبر الغريب يعتصم به عبد الرحمن في موقف محنته ، وهذا الهدوء الذي لم يرَ له أثراً من قبل .

وجعل ينظر الى القوم وهو يتردد في الجواب .

فقال له الفتى : قتل الحسين واصحابه ؟

فدمعت عيناه وقال :

الحسين وأصحابه ..

– ولم ينجُ منهم احد ؟

– نجا المرقع بن ثمامة الاسدي .

– ابن عمنا ؟

– نعم وقد أمنه قومه .

فجعل يقول كأنه يهامس نفسه :

انا لله . لقد خسرنا كل شيء .. ثم قال :

هنيئاً لاولئك الانصار الاطهار الذين مـــاتوا في سبيل ابن بنت النبي سيد الناس وليتني كنت بينهم .

ورأى القوم عندئذ شفتيه ترتجفان .

فقال ابن الحصين : اذكر يا عبدالرحمن انك ابن مسلم ، وان لك عشيرة انت رئيسها بعد أبيك ..

وما معنى ذلك ؟

– معناه انه يجب ان تكون رجلا ..

قال : لم أكن قط من قبل ، أربط جأشاً مني الآن .. ووالله الذي رفع هذه السماء ، لا يرى الناس لي دمعة حتى أعرف قاتل ابي وقاتل الحسين . واني أسألك عن الاثنين ؟

قال : كان الناس في ساحة حرب تجول فيها الخيل ، وتتلاحم فيها الأسنة والسيوف، وتسأل مثل هذا السؤال؟

– كل رجل يقتل في الحرب ، يعرف قاتله ، وأنا أحلف انك تعلم ما لا تعلمه خوصة ، فلا تكتمني ما علمت .

– أعلم ان الكوفيين قتلوا مولانا الحسين وجميع من معه ولا أذكر أمراً آخر ، فلا تسألني عن شيء ..

قال : من قص عليك ما جرى :

– المرقع نفسه وقد رأيته عند المسجد .

– إذن أسير اليه فيقص علي ما قصه عليك .
– ولكنك لا تستطيع ان تراه .
– لماذ ؟
– لأن رجال الشرط قبضوا عليه وذهبوا به إلى قصر الطاغية الذي كان يستعرض في مجلسه رؤوس القتلى .

قال : حملت هذه الرؤوس الى ابن زياد ، وهي الآن في الكوفة ؟
– أجل ، وقد رأيت زيد بن الارقم خارجاً من القصر وهو يقول :

انتم يا معشر العرب العبيد بعد اليوم ، قتلتم ابن فاطمة ، وأمرتم ابن مرجانة ثم خبرني وخبر الناس ؛ أن ابن زياد تناول قضيبه وجعل ينكت به بين شفتي الحسين . !

فقال القوم جميعهم :
قتله الله .

ثم قال عبد الرحمن : وكيف انتهى أمر المرقع ؟
– لا أدري ، وأنا أرى ان ابن زياد سيقتله أو ينفيه .
– نعم سيقتله فهو لا يطيق ان ينجو احد من انصار حفيد الرسول .. قل الآن من هو قاتل الحسين ..
– نسيت اسم القاتل ..
– أستحلفك برأس الحسين الملقى عند قدمي ابن زياد ان تفعل .. ثم استحلفك برأس أبي المصبوغ بدمه ..

وكانت أمامة تنظر الى خطيبها نظرات القلق فقالت :
أرجو ان تكف يا عبد الرحمن عن سؤالك ، فان قاتل الحسين ، وقاتل أصحابه ، هو ابن زياد نفسه .
– ابن زياد هو الآمر بالقتل ..
– وهو الجاني وحده .
– ومع ذلك فأنا أريد ان اعلم .. من هو يا ابن الحصين ؟

– سنان بن انس النخعي .

– الرجل الذي يراه الناس في الكوفة مع شمر بن ذي الجوشن ؟

– نعم ، وقد طعنه برمحه فوقع ، ثم نزل فذبحه لأن خولى بن يزيد لم يجسر على ذلك .

ورأى ذلك عمر بن سعد ؟

– رأى كل شيء ، ولكنه لم يكن قادراً على أن يفعل شيئاً فقد امره ابن زياد بأن يقتل الحسين اذا هو لم ينزل على حكمه .

فحول وجهه عنه ثم قال : بقي أن تذكر اسم الرجل الذي قتل أبي .

قالها وتلجلج صوته ، ولكنه لم يبك ..

قال : لم اسأل المرقع عن اسمه .

– اني واثق بانك فعلت فلا تتردد ..

– وانا واثق بأني لم افعل .

– وتقسم لي ؟

– لا يحلف الا الكاذب ..

قال : ارجو ان تبوح لي باسمه وكن كيف شئت ..

– بل اعترف بما في الصدر دون ان تسألني المزيد .

– بماذا تعترف ؟

– باني لا استطيع ان اذكر اسم القاتل . قال ان لم تفعل قتلت نفسي .

– لقد اقسمت أني لن اذكره ، وانتهى الأمر .

– ولكن المرقع سيقول لي ما لا تقوله انت وسأخرج الليلة لأراه فقد يكون باقياً في الكوفة .

– وقد يكون تحت التراب ، فان ابن زياد لم يأمر رجاله بأن يقبضوا عليه ، ليخلي سبيله .

– اذن اسأل أهله فأنا اظن ان لهم علماً بما جرى .

– اذا كان لا بد من ذلك فأنا اتولى امر السؤال عنه لا انت ، وسأحمل اليك خبره بعد ساعة .

وكانت امامة مطرقة، وقلبها يخفق مضطرباً، ونفسها كئيبة خائفة، وكانت خولة ، تحدق الى عبد الرحمن المرادي ، وقد اختنق صوتها فلم تقدر على الكلام .

ذلك لأنها عرفت ان القاتل لم يكن غير زوجها عمرو بن الحجاج ..

وقد عرفت الفتاة ما عرفته الأم ، وحدثها القلب العاشق ، بان القدر أمعن في جوره وقد خسرت عبد الرحمن الى الابد .

أما ابن مسلم ، فلم يخطر له ذلك ، لأنه كان واثقاً ، بأن ابن الحجاج ، لا يقتل أباه ، على رغم ايثاره يزيد بن معاوية على الحسين بن علي .

وقام المرادي فخرج وهو يقول : اني راجع .

فاستوقفه عبد الرحمن قائلا : لا تنس ان تسأل الرجل عن زريحة .

قال : لقد خبرني انها تركت كربلاء واوصته بان ينقل اليك كلاماً لم يقدر على ان يذكره لي ، لأن رجال الشرط كانوا قد أحاطوا به ..

فوضع يده على جبينه وجعل يقول : لم يبق من جور الدهر شيء.. فاضرب يا زمان .. وعذّب ما طاب لك التعذيب ايها القدر .

وقام فمشى الى الرواق يروح ويجيء فيه ، وامامة ترافقه بالنظرات ، وقلبها يسير معه ..

ولولا ايمانها بان الله يخلق ما لا تعلم ، لأخذت خنجراً من خناجر ابيهـــا ، وطعنت به نفسها عند قدميه ..

وكان ابن الحصين قد انصرف ، فلم يلبث عبد الرحمن حتى عاد الى القاعة ، وجعل ينظر الى حبيبته وهي تنظر اليه نظرات الحب ، كأن الاثنين كانا يعلمان ان الفراق لا بد منه ..

وقد دب اليأس في صدر الفتاة ، وكلما ذكرت اباهـــا ، ذكرت انه الجاني عليها ، وانه قاتل ابن عوسجة .

وفي هذا القتل خيبة الرجاء ..

٩

أقام عمر بن سعد ، بعد قتل الحسين ، يومين ، ثم ارتحل الى الكوفة .

ومعه بنات الحسين ، واخواته ، وزوجته الرباب بنت امرىء القيس الكلبية ، وصبيانه وجواريه.

وعلي بن الحسين مريض .

ومروا بجثث الحسين وأصحابه ، فصاحت النساء ولطمن خدودهن .

ووقفت اخته زينب تقول :

يا محمداه .. صلت عليك ملائكة السماء .. هذا الحسين بالعراء .. مزمل بالدماء .. مقطع الاعضاء .. وبناتك سبايا .. وذريتك مقتلة تسفى عليها الريح.

فلم يبق أحد من القوم إلا بكى ..

ثم ساروا حتى انتهوا الى الكوفة ، وكان ذلك عند العصر .

فأمر ابن زياد بأن يمثل القوم بين يديه .

فلما عرفت زينب انهـا ستدخل على الطاغية ، تنكرت ، ولبست أرذل الثياب ، وحفت بها الجواري من كل ناحية .

ثم دخلت مع أهلها وليس في المجلس أحد ..

حتى أقبل ابن زياد ووراءه خاصته ورجال مشورته .

وجعل ينظر الى آل الحسين ، بعينين كعيني الذئب ..

ثم أشار الى زينب قائلا : من هذه الجالسة ؟

فلم تكلمه ..

فقال ذلك ثلاثاً وهي ساكتة كأنها لم تسمع ..

فقالت عندئذ احدى الجواري : هذه زينب بنت فاطمة .

فقال لها : الحمد لله الذي فضحكم وقتلكم .

قالت: الحمد لله الذي أكرمنا بمحمد وطهرنا تطهيراً .. انما يفتضح الفاسق ، ويكذب الفاجر !

قال : ألم تري ما صنع الله بأهل بيتك ؟

قالت: كتب عليهم القتل فخرجوا الى مضاجعهم وسيجمع الله بينك وبينهم يا ابن زياد ، فتختصمون عنده .

فغضب قائلا : لقد شفى الله غيظي من أخيك وأصحابه العصاة .

فبكت وجعلت تقول : لعمري ، لقد قتلت من قتلت فان يشفك هـــذا فقد اشتفيت .

قال : انك شجاعة ، ولقد كان ابوك شجاعاً ..

ثم التفت الى علي فقال : ما اسمك ؟

– علي بن الحسين .

– أو لم يقتل الله علي بن الحسين .

فسكت .

قال : ما لك لا تتكلم ؟

قال : كان لي أخ يقال له علي فقتله الناس ..

– بل قتله الله .

فرأى الغلام ان السكوت أولى .

فقال الطاغية : أتكلم فتسكت ؟

قال ؟ الله يتوفى الأنفس حين موتها ، وما كان لنفس ان تموت إلا بإذن الله عز وجل .

– وستموت انت بإذنه .

ثم قال لابن معاذ الأحمري : اقتل هذا الغلام يا ابن معاذ .

فقال علي : ومن توكل بالنساء ؟

وقامت زينب فقالت :

يا ابن زياد ، حسبك منا .. أما رويت من دمائنا .. وهل أبقيت من آل الحسين أحدا ؟..

ثم اعتنقت ابن اخيها وقالت :

اسألك بالله إن كنت مؤمناً ، يا ابن زياد ، ان تقتلني اذا قتلته فأنا لا ارغب في الحياة بعد .

ثم قال علي :

إن كانت بينك وبينهن قرابة فارسل معهن رجلاً تقياً يصحبهن بصحبة الاسلام الى الشام ،

فجعل ينظر الى زينب ثم قال :

عجباً للرحم ، فوالله لقد آثرت ان تموت معه .. دعوا الغلام ينطلق مع نسائه ولا تقتلوه ..

ثم أمر مناديه فنادى : الصلاة جامعة .

فاجتمع الناس ،

فخرج حتى صعد المنبر فقال : الحمد لله الذي اظهر الحق وأهله ، ونصر أمير المؤمنين ورجاله ، وقتل الكذاب ابن الكذاب الحسين بن علي وشيعته .

وكان عبد الرحمن بن الحصين في المسجد يسمع الخطبة وقد قضى يومه في الاحياء وعند القصر ، ولم يرجع الى المنزل .

وكذلك قضى اليوم الثاني ، ليرى بعينيه نساء الحسين وصغاره ، الذين بلغ أهل الكوفة ، انهم سينتهون اليها مع عمر بن سعد .

وقد هم بان يجيب ابن زياد ويلعنه على مسمع من الناس ، ولو أمر بعد ذلك بضرب عنقه .

ولكن عبد الله بن عفيف الازدي ؛ كان أسبق منه فقد سمعه القوم يقول :

يا ابن مرجانة ان الكذاب ابن الكذاب انت وابوك ، والذي ولاك وابوه، اتقتلون ابناء الانبياء وتتكلمون بكلام الصديقين ؟!

وكان عبدالله ضريراً ، ذهبت احدى عينيه يوم الجمل مع علي ، وذهبت

الاخرى مع علي أيضاً بصفين .

وهو لا يفارق المسجد ، يصلي فيه الى الليل ثم ينصرف .

فلما سمعه ابن زياد قال : عليّ به .

فحملوه اليه ، فنادى الرجل بشعار قومه الازد يقول :

يا مبرور ...

فوثب اليه فتية منهم فانتزعوه وذهبوا به .

فصبر ابن زياد ساعة ثم ارسل رجال الشرط فقبضوا عليه .

فلما لقيه قال : يا ابن عفيف . انا وابي ،وأمير المؤمنين وأبوه، مع الكذبة؟

ـ نعم ، انتم ومن يخضع لكم من الناس ..!

ـ تقول هذا وانت أعمى فماذا كنت تصنع لو كنت مبصراً ؟

ـ كنت أحمل السيف في وجهك ووجه يزيد !

ـ ثم تموت كما مات الحسين ..!

ـ أجل ، فالموت مع حفيد رسول الله ، خير من العيش في ظلك يا ابن مرجانة اللعين الظالم .

ـ اذن فاعلم انك لاحق بمولاك .

قال : هنيئاً لي فسأدخل الجنة ..اضرب يا ابن مرجانة فالعيش لا يطيب لك الا اذا غاصت يداك في الدماء .

فقال الامير لجلاده : سيفك ..

فبرى الجلاد عنقه بضربة واحدة ، وأهل الكوفة ينظرون ..

ثم قال : اصلبوه في المسجد ! فصلب ، والرهبة تملأ نفوس الناس .

ثم قال : عليّ برأس الحسين . فلما أتوه به قال : اجعلوه على خشبة وطوفوا به في الكوفة .

وكان رأس الحسين ، ثاني رأس حمل على خشبة في الاسلام بعد رأس عمرو ابن الأحمق .

وقد خرجت نساء الكوفة ورجالها وغلمانها الى سطوح المنازل والشرفات

ينظرون الى رأس القتيل الصالح الذي كان اسمه يملأ بلاد العرب .
بينهم الصديق الباكي ، والعدو الشامت ..
ثم سمعوا منادي الامير ينادي: كفى ، فستحمل الرؤوس والنساء الى الشام.
فلم يبق لابن الحصين ما يفعله في السوق .
فرجع والبكاء يتردد في صدره ، وهو يلعن القدر الساخر الذي يرفع رجلا مثل ابن زياد .

١٠

عندما عاد الفتى المرادي الى المنزل ، كانت السكينة قد سادت الكوفة ، وقد بدأ الليل يرخي ستاره ..
وكانت امامة بانتظاره على باب الفناء ، فلما اقبل هامسته قائلة :
قف فاني بحاجة اليك .
فعرف الرجل ان الألم يقطر فؤادها ، والعواطف المضطربة تجيش في صدرها ، ونفسها المكتئبة ، تتلمس الحقيقة الرائعة .
فقال : اخفضي الصوت فقد يسمعنا عبد الرحمن .
قالت : لقد غبتَ يومين فأنا لا اسألك عن ذلك بل اريد ان تذكر لي اسم قاتل مسلم .
— وعدت المرقع اني سأكتم الناس هذا الاسم .
— ولكنك تبوح لي به ، ولو عاهدت رسول الله على الكتمان .
قال : خير لي ولك ان احفظه في هذا الصدر الى الابد .
— بل خير لي ان اعلم كل شيء ، لأن قلبي يكاد يذوب ، وهذه روحي عند شفتي .
— ومع ذلك فأنا لا اقدر ..

قالت : رحمة يا ابن الحصين ..

– تملي عليّ هذه الرحمة ان اسكت ..

قالت : عرفت القاتل فلم يبق سبيل الى السكوت ..

– اذا كان هذا فقد انتهى الأمر .

قالت : ان القاتل أبي .. أليس كذلك ؟

فحنى رأسه ولم يجب .

فاستندت الى الجدار ثم قالت :

ولكن ، هل قتله وقد أغارت الخيل ؟

– اجل ، قتل مسلم في ساحة الوغى .

– واين كان المرقع ؟

– كان قد اعتزل القتال .

– ورأى ابي يقتل مسلماً ؟

– لا ، ولكن قيل له ان قاتله عمرو بن الحجاج ..

فتنهدت قائلة :

الا يجوز ان يكون قاتله رجلا سواه ؟

– قد يكون ذلك ولكن يجب ان يعلم عبد الرحمن من هو الرجل .

– اصبر ريثما يجيء ابي فاعرف ما جرى .

– ان أباك في الكوفة ، وقد سمع خطبة الامير في المسجد .

– اذن يجيء الليلة .

– اما انا فاخشى ان يجيء وعبد الرحمن في المنزل ..

– واذا جاء ؟

قال : ان عبد الرحمن يتغلل الشك الان في صدره ، وقد يخطر له ان يسأل اباك عن قاتل ابيه ...

– وما الرأي ؟

– الرأي ان ينصرف الفتى في هذه الساعة .

– الى اين ؟

– الى بيت رجل من قومه .

– وبعد ذلك .

– ينصرف بعد ذلك ليرى المرقع بن ثمامة الذي نفـاه ابن زياد ثم يعود الى الكوفة اذا شاء ..

فكفكفت دمعها وجعلت تقول :

اذا عاد فليقف ساعة عند قبر امامة ، التي أحبته الحب كلـه ، وآثرت الموت على الفراق ..

قال : ليس للمؤمن ان يقتل نفسه ..

– وليس له ان يحتمل كل يوم ، آلاماً ، اهون منها الموت ..

قال : لقد رأيت رأياً .

– ما هو ؟

– هو ان تصبري حتى اعود ، حاملاً اليك خبر القاتل .

قالت : سأسأل ابي وتسأل انت رجال عمر بن سعد .

– ولكن عبد الرحمن لا يثق بهؤلاء لانهم اعداؤه .

– ومتى تعود انت ؟

– لا اعلم ، فقد يكون ذلك بعد شهر او بعد عام .

– وهل تظن ان هذا القلب يستطيع الصبر على البعاد ؟

– اذا لم يكن قادراً على ذلك فاقهريه .. ان حياة عبد الرحمن لامـامة ، وحياة امامة لعبد الرحمن .

– ونسيت ان القدر سيفصل بيني وبينه الان ؟

– من يعلم ، فقد نرجع الى الكوفة لنقول لك ان اباك بريء من دم مسلم ابن عوسجة .

قالت : سيرى عبدالرحمن ابن ثمامة ، وسيقول له هذا ماقاله لك ، فيضيع الامل .

– لا يكتفي الفتى بما يقوله المرقع ، بل يريد ان يرى زريحة جـارية أبيه ، التي كانت اماً له .

— وزريحة تعرف كل شيء ؟

— اجل ، فقد شهدت الواقعة وهي التي رثت مسلما بعد ان لفظ الروح ، ونعته للحسين ...

قالت : عشت شقية وسيرافقني هذا الشقاء الى القبر .

— لا تذكري القبر الان ، ولكن اذا ثبت لنا بعدئذ ان اباك هو القاتل ، فافعلي ما تشائين ، لان عبد الرحمن لن يتزوج ابنة قاتل ابيه ..

فجعلت تشهق بالبكاء ..

فقال : كفي عن البكاء وافعلي ما اوصيك به ..

قالت : أليس من الرأي ان تسأل نساء الحسين عما تشاء ؟

— وهل يخطر لك ان نساء الحسين يذكرن شيئاً ... ان افكارهن كانت منصرفة الى ذلك القتيل العظيم والى بنيه واهل بيته ، فلما قتلوا خلون الى لوعتهن ، وهن الان يتنقلن من شقاء الى شقاء ...

ومشى امامها وهو يقول : الصبر الصبر .. والحقي بي .. ثم انتهى الى الرواق ومنه الى قاعة الجلوس وكان عبد الرحمن عند النافذة ، فقال له : ذهبت لتعود بعد ساعة فعدت بعد يومين ...

قال : كنت اسمع خطب ابن زياد ، وانظر الى رأس مولانا الحسين ، يطوفون به في الاحياء على خشبة .. ألم تره ؟

— بلى رأيته من هذه النافذة وحولت وجهي ...

— وعرفت ان نساء الحسين وصغاره في قصر ابن زياد ، وان عبد الله بن عفيف الازدي قتل ثم صلب في المسجد ؟

— عرفت ذلك ، وانها لسهام تسقط على هذا القلب يا عبد الرحمن ، فلا ترد.. ماذا جرى للمرقع ؟

— نفاه الطاغية الى الزارة .

— وأهل بيته ؟

— ونفى أهل بيته وغلمانه وجواريه .

قال : لقد هان الامر فهو حي ، وسأعرف قاتل ابي .

وكانت أمامة قد دخلت .

فقال ابن الحصين : ألا يكفي أن تعلم أن أباك قتل في الحرب ؟

– لا ، بل يجب أن أعلم من هو قاتله .

– والغاية من ذلك ؟

فبرقت عيناه قائلاً : الغاية من ذلك ان أضع رمحي في صدره ثم أقول له : مت أيها اللعين كما مات مسلم ؟!

فهلعت قلوب النساء ..

ثم قال : وبعد ذلك أسير ماشياً إلى كربلاء لأجثو عند قبر ابي قائلاً له : نم مطمئناً في قبرك يا أشرف الناس ، فقد قتلت قاتلك !!

قالها ولم تنزل له دمعة .

ثم خطر له خاطر رهيب فقال : واني أرجو ان يكون هذا القاتل من قوم لا أعرف من هم ..

فعرف المرادي ما يعنيه فقال : هب ان قاتـــل أبيك عمر بن سعد ، فماذا تصنع ؟

قال : والله لو قيل لي أن قاتله يزيد بن معاوية الجالس على عرش أبيه لسرت إلى الشام ووضعت رمحي في صدره وهو في الخضراء ..

فقالت امامة في نفسها : ويل لي ، فسأخسر أبي كما خسرت حبيبي ، وهذا حظي من الحياة ..

وكان ابن الحصين قد ذكر عمراً فقال : أيطيب لك البقاء في الكوفة ، وقد عاد اليها اليوم عمر بن سعد ، وجيش كربلاء ؟

– لا أمكث بالكوفة غير هذا الليل .

– اذن تنصرف الآن .

فقالت خولة : أرأيت عمراً يا عبدالرحمن ؟

– نعم رأيته خارجاً من قصر الأمارة ، مع شبث بن ربعي وطائفة من

الرجال ، ثم رأيته في المسجد عند المنبر . ثم رأيته عند جثة عبدالله بن عفيف الذي صلبه بن زياد .

— وكيف تذهبان قبل ان يجيء ؟

فنظر اليها نظرة فهمت معناها ، ثم قال : أخشى أن ينتهي أمر عبدالرحمن الى الطاغية فيأمر بالقبض عليه .. ثم فلا بد من الرحيل .

فقالت سلمى : الليلة ؟

— أجل الليلة فان في البقاء خطراً عليه .

— ومتى ترجعان ؟

فقال الفتى الاسدي : لا يعلم ذلك غير الله .

وقام فصافح المرأتين ، ثم صافح امامة قائلاً :

كُتب لي ولك الشقاء ولكني صابر .

فتمتمت قائلة : وأنا صابرة .. فالى اللقاء ..

قال : هنا ام عند الله ؟

فتفجرت دموعها وجعلت تقول: إما هنا وإما في السماء. ثم قالت لابن الحصين: لي كلمة اقولها لك قبل ان تنصرف .

فدنا منها ، وهو يبكي كما تبكي هي .

فقالت له هامسة :

قل لعبد الرحمن إني ان بقيت فقد بقيت له ، وان مت فأنا شهيدة هواه .. ولا تنسَ ..

وارتجفت ركبتاها ، فجلست وقد ارتفع صوتها بالبكاء .

اما الشقيقتان ، فقد شيعتا الفتيين الى الرواق وسلمى تقول : رحم الله قتيلنا وقتيلكم يا بني أسد .

وعبد الرحمن مستند الى ذراع صاحبه ، وهو لا يتكلم ولا يلتفت الى الوراء ولكنه لم يكن يعلم في اي موضع يضع قدمه .

١١

قال ابن زياد لزحر بن قيس :
تسير الى الشام ، ومعك رأس الحسين ورؤوس اصحابه، ونساؤه وصبيانه.
– ومتى اترك الكوفة ايها الامير ؟
– غداً عندما تطلع الشمس ، ليرى اهل الكوفة جميعهم ما صنع الله بالحسين الكذاب الطامع بالخلافة ..
– وترسل معي علياً ؟
– أجل ، على ان تجعل الغلّ في عنقه ويديه وتجمل الجميع على الاقتاب .
فخرج زحر يتهيأ للسفر.
« وقيل ان ابن زياد ارسلهم مع شمر بن ذي الجوشن » .
فلما كان اليوم الثاني ، جعل زحر القيد في يدي علي وعنقه ، وسار بهم وعلي لا يكلمه حتى بلغوا الشام .
واستأذن ابن قيس على يزيد في صباح يوم .
فلما دخل وسلم قال يزيد : ما وراءك يا زحر ؟
قال : ابشر يا امير المؤمنين بفتح الله ونصره .
قال . ماذا ؟
قال : ورد علينا الحسين بن علي ، في ثمانية عشر من أهل بيته ، وستين من أصحابه ، فسرنا اليهم فسألناهم ان ينزلوا على حكم الأمير عبيدالله أو القتال ، فاختاروا القتال ، فأحطنا بهم من كل ناحية ، حتى إذا أخذت السيوف مأخذها من هام القوم جعلوا يهربون إلى الآكام والحفر . ووالله ما كانت إلا ساعة حتى أتينا على آخرهم . وانك لترى أجسادهم مجردة في كربلاء ، وخدودهم معفرة تصهرهم الشمس .

فدمعت عينا يزيد وقال : كنت أرضى من طاعتكم بدون قتل الحسين .. لعن الله ابن سمية .. اما والله لو أني صاحبه لعفوت عنه ، فرحم الله الحسين ..

ولم يشأ ان يعطي زحر شيئاً ..

ثم قال له : أين رأس القتيل ؟

– هو هنا .

وقام فحمله اليه .

وكان القوم في الخضراء يتحدثون بالأمر حتى انتهى الخبر إلى هند بنت عبدالله بن عامر زوجة يزيد ، فتقنعت بثوبها وخرجت الى المجلس ثم قالت : يا امير المؤمنين ، أرأس الحسين بن علي بن فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟

قال : نعم ، فاعولي عليه ، وحدّي على ابن بنت رسول الله وصريحة قريش .. عجّل عليه ابن زياد فقتله ، قتله الله .

ثم أذن للناس ، فدخلوا والرأس بين يديه ، ومعه قضيب ينكت به ثغره كما فعل ابن زياد ، ثم جعل يقول : والله يا حسين لو كنت انا صاحبك ما قتلتك ..

ثم قال للناس : أتدرون ما كان يقوله لجلسائه كلما ذكروني عنده ، كان يقول : أبي خير من أبيه ، وفاطمة امي خير من امه ، وجدي رسول الله خير من جده ، وانا خير منه وأحق بالخلافة .. فاما قوله أبوه خير من أبي فقد احتكم أبي وأبوه الى الله وعلم الناس أيهما حكم له ، واما قوله أمه خير من امي فلعمري ان فاطمة بنت رسول الله خير من امي ، واما قوله جده خير من جدي فما أحد يؤمن بالله واليوم الآخر يرى لرسول الله عدلاً ونداً .

ثم قال : أدخلوا نساء الحسين .

فأدخلوهن ، والرأس في مكانه .

فجعلت فاطمة وسكينة ابنتا الحسين تتطاولان لتنظرا إلى الرأس ، وجعل يزيد يتطاول ليستره عنهما .

فلما رأت النساء الرأس ، صحنَ ..

فصاحت نساء يزيد ، وولولت بنات معاوية .

فقالت فاطمة ، وكانت أكبر من سكينة : أبنات رسول الله سبايا يا يزيد ؟

قال : يا ابنة اخي ، انا لهذا كنت أكره ..

قالت : والله ما ترك لنا خرص ..

– ولكن ما أصبتم به ، اعظم مما أخذ .

فقام رجل من أهل الشام فقال : هب لي هذه يا امير المؤمنين .

وأشار الى فاطمة .

فأخذت بثياب عمتها زينب ، فقالت : كذبت ولؤمت ، ليس ذلك لك ولا ليزيد ..

فغضب الخليفة وقال : كذبت والله،ان ذلك لي ولو شئت ان أفعله لفعلته.

قالت : كلا ، والله ما جعل الله لك ذلك إلا ان تخرج من ديننا وتدين بدين غيره .

فتميز غيظاً وجعل يقول : اياي تستقبلين بهذا ؟.. انما خرج من الدين ابوك وأخوك .

قالت : بدين الله ودين ابي وأخي وجـدي اعتديت انت وابوك وجدك يا ابن معاوية !!

– اسكتي يا عدوة الله .

فابتسمت ابتسامة الألم قائلة :

انك امير ، تشتم ظالماً ، وتقهر بسلطانك ..

فخجل منهـا ، ثم أمر فحملت النساء الى جناح في الخضراء ، ولم تبق امرأة من آل معاوية ، الا اتتهن .

ثم اقمن المآتم ،

وجاء يزيد يسألهن عما اخذ منهن .

فذكرن له كل شيء ، فاعطاهن ضعف ما اخذ ، وكانت سكينة تقول بعد

ذلك لنساء الحجاز :

ما رأيت كافراً بالله خيراً من يزيد بن معاوية .

ثم أمر بعلي بن الحسين فادخل مغلولاً ،

فقال له علي :

« لو رآنا رسول الله مغلولين لفك عنا » .

قال : صدقت .

وأمر بفك غله عنه .

ثم قال علي :

ولو رآنا رسول الله بُعداء لأحب ان يقربنا .

فأمر به فقرب منه .

ثم قال يزيد :

يا علي ، أبوك الذي قطع رحمي وجهل حقي ونازعني سلطاني فصنع الله به ما رأيت .. قم فانزل على الرحب فانت في ضيافة أمير المؤمنين .

وأمر بانزاله مع النساء .

وكان لا يتغدى ولا يتعشى الا اذا دعاه اليه .

ودعاه ذات يوم ، ومعه أخوه عمرو بن الحسين وهو غلام صغير ، فقال يزيد للغلام :

أتقاتل هذا؟

واشار الى ابنه خالد بن يزيد ، فقال عمرو ..

اعطني خنجراً وأعطه مثله حتى اقاتله .

فضمه يزيد اليه وقال :

شنشنة اعرفها من اخزم .

وكان امير المؤمنين يفكر في ارسال القوم الى المدينة .

وقد بدأ يغضب على ابن زياد .

١٢

كان الناظر الى عبد الرحمن بن مسلم ، يرى فتى غائر العينين واهي القوى ، يصارع عاطفته ليثبت في وجه العاصفة ..

عاصفة الحزن على ابيه وعلى الحسين ، وعاصفة غرامه ..

اجل ، لقد غير الشقاء عبد الرحمن ، من حال الى اخرى ، في ليلة واحدة ، بل في ساعة ..

وان الحمى ، التي تمحو نضارة الوجوه ، وتحطم الاجسام لم تنل من الفتى ، مثلما نالت منه حادثة كربلاء .

كان مريضاً فشفاه الله ، وكان له عون يرجع اليه في محنته فخيب الزمان رجاءه به .. وكانت له عقيدة يبذل حياته من أجلها فأخذ ثارها القدر الساخر. وهو العاشق الذي لا يعلم الى اي هوة تقذف الحادثات بفؤاده ..

وليس غريباً ان يهزل جسم عبد الرحمن ، وتخور قواه ..

أضف الى ما قرأت ، عاطفة الانتقام التي تتردد في صدره ، فهو لا يريد ان يعيش الا اذا وضع رمحه في صدر قاتل ابيه .

ولو كان هذا القاتل عمرو بن الحجاج .

وليمت بعد ذلك ، وليمت غرامه ..

على انه لم يكن يشك في عمرو ، وكان يقول لابن الحصين :

– لو رأيت سيف ابن الحجاج يقطر دماً عند جثة ابي لما خطر لي أن أتهمه بقتله !

وابن الحصين ساكت لا يتهم ولا ينفي .

وقد قضى الاثنان ليلتهما في منزل من منازل بني أسد الأوفياء ، على ان يخرجا من الكوفة عند الصباح ، لاحقين بالمرقع .

ولكن ذلك الصباح كان صباح رهبة وخوف ، فقد خرج رجال الشرط فيه

يطوفون في الأحياء باحثين عن نصير جديد من أنصار الحسين رضي الله عنه .

وخرج زحر بن قيس ورجاله ، يحملون الى الشام رؤوس القتلى ، واهل الحسين ، وأهازيج الأمويين تملأ الفضاء .

فآثر الفتيان البقاء في الكوفة يوماً آخر ، ربما تخف حدة رجال الشرط ، وتهدأ ثورة ابن زياد ..

وبقيا يومها لا يجسران على الخروج ..

وكانت عيون ابن زياد قد كثرت في الأسواق ، وجواسيسه تمـــلأ المنازل والأحياء ، وقد ساد الذعر الناس . فلم يستطيعا ، إلا ان يصبرا اياماً اخرى .

ولم يخرجا إلا بعد ان عاد الهدوء إلى البلد المضطرب .

وكان المرقع قد رحل الى الزارة بأمر ابن زياد ، ورجال الكوفة يتحدثون بأمر هذا الرحيل .

فلحقا بـه ، ولولا غرض ابن مسلم ، لما خطر له ان يضع يده بيده ، بعد خروجه من ساحة القتال ، على الصورة التي عرفت .

أجل ، كان عبدالرحمن ينظر الى ابن ثمامـــة الأسدي ، نظره إلى الجبناء الأنذال من الرجال .

رأى الناس ابن ثمامة شاهراً سيفه في سبيل الحسين ، ثم رأوه يطرح هـذا السيف عند قدمي عمر بن سعد، ويسأل قومه بني أسد،ان يؤمنوه ويشفعوا به.

وهذا معناه انه لم يقاتل عن عقيدة وايمان ، مع الحسين بن علي ..

وعبدالرحمن لا يحترم الرجال الذين هم من هذا الصف ..

وقد باح لابن الحصين بما في صدره ، وكان يقول : لو لم يكن هنالك سؤال أسأله اياه لرجعت ..

وابن الحصين لا يفكر في ذلك ، ولا يبالي إلا بأمر واحد هو إبعاد التهمة عن عمرو بن الحجاج إذا هي لصقت به .

وكان مؤمناً، بأنه ليس من العدل ان يهجر عبد الرحمن أمامة الى الأبد ، ولو كان أبوها قاتل ابيه !

فلما انتهيا الى الزارة سألا عن الرجل ، ثم اقبلا الى منزله ، وليس في ذلك المنزل غير النساء والغلمان .

فقال ابن الحصين لاحدى الجواري : أين ابو عبدالله ؟

– لا أعلم أين هو .

– وزوجته ؟

– هنا ، وهي آتية .

ودخلت عندئـــذ أم عبدالله ، فرحبت بالفتيين ، وعلى جبينها آثار الكآبة والهم .

وأم عبدالله من بني أسد ، وهي ابنة عم المرقع، وقد كان ابوها وأهل بيتها على دعوة علي ، ومن انصار مسلم بن عوسجة .

وبنو أسد هـــؤلاء ، يحبون عبدالرحمن بن مسلم ، كما كانوا يحبون أباه ، ويؤثرونه على يزيد بن معاوية .

على ان المرقع كان ضعيفاً في عقيدته ، كما رأيت ، وضعيفاً في حبه ، وهذا الضعف هو الذي منعه من ان يثبت مع مسلم بن عوسجة ، إلى النهاية ، في موقف الدفاع .

وجعلت أم عبدالله ، في تلك الساعة ،ترثي مسلماً وتبكيه ، وهي عـــادة النساء في مواقف الحزن ..

فحنى عبدالرحمن رأسه يصغي بألم إلى ذلك الرثاء .

ثم قال : يظهر ان ابا عبد الله ليس في المنزل .

– وليس هو في الزارة ..

فتنهد قائلاً : ومتى خرج منها ؟

– لم يقم بها غير يوم واحد ، ثم تركها الى حيث لا اعلم ..

قال : اريد ان اعلم الآن اين هو .

– لا يستطيع احد يا عبد الرحمن ان يدلك على مكانه .

— وكيف ذلك ؟

— انه يريد ان يعود الى الكوفة بأمر من يزيد ، وهو لا يستطيع الحصول على هذا الأمر الا اذا شفع فيه احد المقربين .

— اذن فالكوفة في نظره خير من الزارة ؟

— بل هي خير من كل بلد ، وكان يقول لي : ان لم اقــدر على الرجوع الى الكوفة ، قتلت نفسي .

— واي رجل من المقربين يشفع فيه ؟

— لا ادري ،فقد يسير الى البصرة ليسأل عن ذلك الرجل ، او يسير الى الشام .

فوضع رأسه بين يديه وجعل يقول : هذا ما قسم لي انا الشقي .. ان القدر الجائر اغمض عينيه عن جميع الناس فهو لا يرى غير عبد الرحمن بن مسلم ..

ثم رفع رأسه فجأة كأنه ينفض يأسه وتمتم قائلا : اذا لم نرَ أبا عبد الله اليوم رأيناه غداً .. ماذا تعلمين عن الحادث العظيم الذي جرى في كربلاء ؟

— اعرف ما عرفه زوجي وقد قصه علي .

— وباح لك باسم قاتل أبي ؟

فقالت دون ان تتردد : سألته عن هذا القاتل فقـــال : يقول الناس انه عمرو بن الحجاج !.

فاحس ان الأرض تنحدر به .. وجعل ينظر الى الفتى المرادي نظرات الذهول.

فقال ابن الحصين :

يقول الناس انه عمرو بن الحجاج ؟

— نعم .

— اذا فهو لم يشهد مقتل مسلم ولم يرَ قاتله ..

— لم يرَ شيئاً ، ولكنه سمع بعض اصحاب الحسين يقولون : ان عمراً هو القاتل ، وكان رجال عمرو يقولون :

قتلنا مسلما .

قال : لو كان ابو عبد الله حاضراً لسألناه رأيه في ذلك .

— ليس له رأيٌ في الأمر .

– وانت ؟
– اما انا فلا اتهم ابن الحجاج الا اذا خطر لي انه من المجانين .
وكان عبد الرحمن مطرقاً فقال : ان الشك الذي يتردد في هـــذا الصدر ، اعظم خطراً وابعد اثراً من حادث القتل ..
ثم تنهد قائلا : ولكني لا استطيع ان اتهم احداً ، ولا اقول كلمتي الا بعد ان ألمس الحقيقة الرائعة باليدين ..
ثم تمتم يقول :
والويل لي ولك يا عمرو بن الحجاج اذا شهد عليك أحدهم انك قـــاتل مسلم .. انك تموت عندئذ واموت بعدك .
ثم قال : يا ام عبد الله . أتعرفين زريحة ؟
فابتسمت قائلة : ما نسيت جارتي .
– لقد رافقت زريحة مولاها الى كربلاء .
– اعلم ذلك .
– وقتل وهي وراءه ..
– اذن هي تعلم كل شيء .
– اجل ، ولكني لا اعلم اين هي ، وقد رآها أبو عبدالله قبـل رجوعه الى الكوفة ، وسألته ان يرشدني الى البلد الذي انصرفت اليه .
– لم يقل لي ابو عبدالله شيئاً من هذا ...
فالتفت الى الفتى المرادي قائلاً : لم يبق لنا ما نصنعه هنا فلنذهب ...
– الى اين ؟
– أسير انا الى البصرة ، وتسير انت الى مكان اخر .
قال : ارى ان نبقى ريثما يعود المرقع .
– قد يعود بعد شهر او شهرين وانا لا استطيع ان اصبر .
فقالت المرأة : أتريد ان تعرف قاتل أبيك ؟
– نعم .

– اذن فاسأل عمر بن سعد ..!

– عمر بن سعد ، قاتل ابي ، وقاتل الحسين ، اسأله عن ذلك ؟ اني اذن القي بنفسي بين يدي الجلاد ، الذي لم يقتل الاثنان الا بأمره .. لا .. لا افعل هذا ولا اصدق ما يقوله لي ولو شهد له اهل الكوفة ..

– اذن فاسأل شبث بن ربعي .

– هذا الكاذب النذل الذي حارب مع علي ، وحارب مع معاوية .. وكان عدواً للرجلين في وقت واحد ؟ ... اني اؤمن بصعلوك من صعاليك خرسان ولا اؤمن به .

– وكيف يتم لك الامر ؟

– يتم لي بكلمة واحدة تقولها زريحة،التي وقفت عند جثة ابي تندبه وترثيه، على مرأى ومسمع من رجال الجيشين .

قالت : اين نساء الحسين اليوم ؟

– حملوهن الى الشام .

– وقد تكون زريحة بينهن ..

– بل هي تركت كربلاء قبلهن .

قالت : انك ذاهب الى البصرة ثم الى الشام فاذا رأيتها فيهما فقد بلغت الغاية والا فانت مكره على الطواف في فارس والحجاز واليمن سائلاً عنها جميع الناس.

– سأطوف في بلاد الله كلها لأعرف القاتل .

قالت لقد عرفت غايتك يا عبد الرحمن . ان اباك قتل في ساحة الوغى ، وقتل معه سبعون رجلاً بينهم الحسين بن علي ، فانت تعلم اذن انه قتل والسيف في يده وهذا عزاء لك .. ولكنك أحببت امامة ، وانت لا تستطيع ان تجعلها زوجة لك ، الا اذا كان ابوها بريئاً من دم ابيك ...

فحنى رأسه ولم يجب .

فقالت لابن الحصين : أليست هذه غايته ؟

– بلى،وانا واثق بان أبا امامة بريء من دم مسلم كما انا بريء من دم الحسين.

قالت : اسأل الله ان يظهر هذه البراءة،ليسلم ابن الحجاج ويسلم عبدالرحمن، ويتحد العاشقان ..

فنهض العاشق الثائر قائلاً : وانا اسأله عز وجل ان يمد أجلي، لاتبين ذنب ابن الحجاج او براءته ، وقد سلمت أمري اليه . ثم قال لرفيقه : قم يا اخي فقد اسودت الزارة في عيني .

فقالت المرأة :

امكثا هنا الليلة وانصرفا عند الصباح .

– بل نرحل الان فلا خير لنا في البقاء .

وعندما امسيا خارج المنزل قال للمرادي : ترجع انت الى الكوفة .

– وانت ؟

اذهب الى البصرة كما قلت ثم لا أعلم في أي بلد تطرحني النوى .

قال : تقوم انت بهذا الطواف الشاق ، واعود انا الى الكوفة يا عبد الرحمن لاروح في اسواقها وأجيء ..

– بل تعود لتنقل الى أمامة كلمة أعهد اليك في قولها الان .

– ماذا أقول ؟

– تقول لها ان بعض الناس يتهمون أباك بقتل مسلم ، فانت اذن في حل من الهوى ، وليس بينك وبين عبد الرحمن عهد حتى تظهر البراءة ..

ثم قال وقد ارتجف صوته : وتقول لها انها لتستطيع ان تختار من الفتيان من تشاء فعبدالرحمن لا يذكر الان غير مقتل ابيه ..

قال : انها كلمة لا اقولها ولو قتلت ..

– لماذا ؟

– لانها تعلم من أمر هذه التهمة ما تعلمه انت ، وقد تضع يدهــــا على قاتل أبيك قبل ان تعرف انت اسمه ...

– امامة تعلم ذلك ؟

– نعم ،وقد طلبت اليّ ان اقول لك : انها ان بقيت فقد بقيت لعبدالرحمن

وان ماتت فهي شهيدة هواه .

– وطاب لك يا عبدالرحمن ان تكتمني هذا ؟

– لم اكتمك اياه ولكني نسيته ..

– اذن قل لها ان عبدالرحمن مقيم على عهده ... لا ... لا بل تقول مـــا ذكرت فانا اخشى ان ارى دم ابي على سيف ابن الحجاج ..

وبكى عندئذ بكاء يفطر القلب ..

فقال الاخر :

دعني اقول ما اعلم وثق بي .. ولكن اين اراك ؟

– سألحق بأهل الحسين الى الشام ، اذا لم اجد المرقع في البصرة ثم أرحـل الى حيث يرحلون .

– وبعد ذلك ؟

– امكث اياماً او اشهراً حتى يجيء انصار الحسين من كل قطر ، يحملون العزاء الى نسائه ، فأسألهم عن زريحة ، وقد ينقلون اليّ ، عن حادث القتل، ما لم يخطر لي .

قال : اظن ان ابن معاوية سيأمر بارسال النساء الى الحجاز .

– اذاً تجدني في الحجاز اذا طاب لك ان تلحق بي .

– ولكني اخشى ، ان تمتد اليك ، وانت في الشام ، يد عدوك ابن زياد ، او يد سيده يزيد .

قال : لم احارب مع الحسين ولم اشهر سيفاً في وجه عمر بن سعد .

– ومع ذلك فانت ابن مسلم بن عوسجة ، وابن معـــاوية وابن زياد ، لا يطيقان ان يذكر امامهما اسم أبيك .

– اظن ان الاثنين لا يحاربان الاموات .

– ولكن احذر فانت في خطر ..

فتمتم قائلا : ليس هناك شيء اعظم من الموت وأنا اؤثره على الحياة .

وتعانق الاثنان والاسدي يقول كأنه يخاطب نفسه : لا تفصل ايها القـدر القاسي بيني وبين من احب ...

١٣

جلس عمرو بن الحجاج في منزل هانيء بن عروة ، وجلست حوله النساء الثلاث ، وابنته امامة تنظر اليه نظرات الذعر كأنها تنظر إلى مجرم .

وخولة تبتسم له ، ابتسامات تحمل معاني العتاب واللوم ، وكأن ابتسامات زوجته ونظرات ابنته ، سهام ترسلها الاثنتان إلى صدره .

أجـل ، ان عمراً فتى الميادين ، الذي حارب الحسين ، ووقف عنـد جثته وجثث اصحابه ، لا يطرف له جفن ، كان في تلك الساعة أمام النساء الثلاث مضطرب النفس خائر القوى ، كأنه على النطع تحت سيف الجلاد ..

لقد أحس وهو بين أهله انه كان خائناً في خروجه على الحسين ، وكان قاسياً في دفاعه عن خلافة يزيد ..

وهو الرجل الذي كان من قبل سيفاً من سيوف علي .

وقد يكون ذلك الاحساس مظهراً من مظاهر الضعف في عقيدته وايمانه .

وخولة تعرف ضعفه ، وهي تستطيع في جميع مواقفه ان تقرأ ما في نفسه من ثورة وغضب وندم وألم ولم تكن تريد ان تغضبه بل أرادت ان تسأله عن ذلك اليوم الرهيب الذي قتل فيه الحسين وتمشي في سؤالها بدهاء وهدوء حتى تنتهي الى مسلم بن عوسجة وتعرف قاتله .

فقالت له : يا عمرو ، أين رأس الحسين ورؤوس أصحابه ؟

قال : حملت إلى الشام مع النساء ..

– ومن حملها إلى ابن زياد ؟

– خولي بن يزيد وحميد بن مسلم الأزدي .

ولكن الناس يقولون ان اربعة من رجال ابن زياد ومن كبار المسلمين في

الكوفة هم الذين حملوا هذه الرؤوس إلى القصر .

– من هم ؟

– شمر بن ذي الجوشن ، وقيس بن الأشعث ، وعروة بن قيس وانت !.

– اما انا فلم أفعل وقد قدمت مع الجيش .

قالت : ألم يبكِ ابن زياد حسيناً ؟

فهز رأسه قائلا : لم ارَ قط رجلا يضرب عدوه بسيفه ثم يبكيه ..

قالت : من كان يظن ان امر الحسين ينتهي إلى مثل هذا ؟..

– لم يخطر لأحد ان ابن زياد سيأمر بقتله .. كنا نظن انه سيعيده بالقوة ، إلى البلد الذي خرج منه .

– قيل ان امير المؤمنين أمره بأن يفعل .

– بل هو الذي أمر ابن سعد ، بأن يعمد إلى السيف ، اذا لم ينزل الحسين على حكمه .

– واشتركت يا عمرو في قتله وانت من شيعته ؟

– لم أشهر في وجه الحسين سيفاً ، بل لم أوجه اليه كلمة سوء ، وعندما ضربه سنان بن أنس ، باغراء شمر بن ذي الجوشن كنت في الجناح الآخر من الجيش .

وكان عمرو كاذباً فهو الذي هاجم الحسين من ناحية الفرات ، وتصدى له مسلم بن عوسجة فقتل .

قالت : ولم تقاتل رجال الشيعة الذين كانوا بالأمس اخواناً لك ؟

– بلى ، قاتلت الرجال ، ولم يكن لي في ذلك الموقف سبيل إلى ترك الجيش والرجوع إلى الكوفة .

– مع اني كتبت اليك ان امامة في خطر ، وسألك باسمي ابو عدي الزبيدي ان ترجع فلم تسمع لي .

قال : عرفت ان امامة لم تكن مريضة وان ذلك الخطر كان حيلة من حيل النساء .

– ومن قال لك ذلك ؟

— ابو عدي نفسه ، ولو رجعت في تلك الساعة لقال أهل الكوفة جميعهم ان ابن الحجاج من الجبناء !

فقالت سلمى وشفتاها ترتجفان :

خير لك ان تلقى الله وانت جبان من ان تلقاه وانت قاتل الأبرياء .. أتهب سيفك يا ابن الحجاج لعبيد الله بن زياد وهو قاتل هانىء ؟! وتقاتل الحسين بن علي وقد كنت من اتبـــاعه ، ثم تطعن مسلم بن عوسجة وهو فتى الشرف والمروءة وعبد الرحمن بن مسلم يكاد يكون صهراً لك ؟

قال : اما سيفي فقد وهبته للأمير الذي فرضت علي طاعته ..

— ولكنك كنت من قبل خصماً له ، ولم تبال قط ، بهذه الطاعة التي تحتجب وراءها الآن !

قال : دافعنا عن علي فقتل ، ثم دافعنا عن ابنه الحسن فتخلى عن الخلافة . وعندما اردنا ان ندافع عن الحسين ، رأينا الأمة كلها تخرج الى قتاله !

قالت : لم يتخل الحسن عن حقه ، الا عندما لمس خيانة قومه ورغبتهم في التخلي عنه والانضمام الى معاوية ، واما الذين خرجوا الى قتال الحسين ، فقـد باعوا آخرتهم بالدنيا ، وآثروا رضى ابن زياد ويزيد بن معـــاوية على رضى الله وانت من هؤلاء .. قل يا ابن الحجاج أأنت الآن على باطل ام على حق ؟

قال : أليس يزيد بن معاوية إمام المسلمين اليوم ؟

— بلى ، إمام بحد السيف ..

— ولكنهم بايعوه ..

— وانا اعلم كما تعلم انت اسباب البيعة .. نعم انه إمام المسلمين وبعد ذلك ؟

— ولا تعلمين ان من يخالف الإمام يمرق من الدين !

فابتسمت بألم قائلة : كان معاوية إماماً فخالفتموه .. ثم خلفه يزيد فكنتم اعداءه .. وعندمـا رأيتم ان الحسين اضعف من ان يتربـع في العرش ، تراجعتم عنه .. فانتم اذن طلاب مال واصحاب اغراض وحاجات لا تنظرون الا الى الدنيا.

ثم رفعت صوتها وجعلت تقول :

يا ابن الحجاج .. ماذا صنعت من اجل هانيء بن عروة الذي قتل ظلماً ؟ لقدخضعت لقاتله بدلاً من ان تطلب بدمه .. ثم طاب لك ان تلطخ يدك بذلك الدم الطاهر دم ابن فاطمة ، وتقتل ابن عوسجة وهو اصدق الناس دون ان تفكر فيهذه الفتاة التي تدعى امامة ، وفي ذلك الفتى الذي يقال له عبدالرحمن. الا فاعلم يا قاتل مسلم انك قتلت بعده هذين الفتيين .. وهذا يكفي !

قال : لم اقتل مسلما ولم اشترك في قتل الحسين .

قالت : لقد عرفنا كل شيء ونحن في الكوفة .. نعم قاتل الحسين سنان ابن انس وقاتل ابن عوسجة عمرو ابن الحجاج !

فذعر قائلاً : أهذا ما يقوله أهل الكوفة ؟

– بل يقوله رجال كربلاء ..

– ولكن يدي لم تمتد الى مسلم وقد قتل وانا بعيد عنه وكنت قد رأيته يصارع الرجال امام فسطاط مولاه .

فأشرق جبين امامة وقالت له :

أتقسم لي يا ابي انك بريء من دمه ؟

– اقسم بالله وبالدنيا والآخرة اني بريء .

– ومن هو قاتله ؟

لقد غاص في صفوف الجناح الأيمن فتخطفته السيوف ..

– وكيف يقول الناس انك انت القاتل ؟

– لا رأي لي فيا يقولون .. هذا عمر بن سعد ، وقيس بن الأشعث ،وعروة ابن قيس ، وشبث بن ربعي ، فاسألي منهم من تشائين ..

وجالت الدموع في عينيه وجعل يقول: نعم ، كنت خصماً لمسلم في كربلاء، ولكن لم يخطر لي ان أبرز اليه ، أو اتصدى له في ساحة القتال .

فقالت خولة : مسكين عبد الرحمن ..

– أين هو ؟

– كان هنا ، ثم ترك الكوفة على ان لا يعود إليها إلا إذا عرف قاتل أبيه .

– وقالوا له اني قاتله ؟

– خيل إليّ ان الشك في صدره ، ولكنه لم يبح به ..

قال : أرضى بأن يتهموني بقتل الحسين ولا يتهموني بقتل مسلم .. اني لا أقتل ابنتي بيدي ..

ثم قال لامامة : ارفعي رأسك يا بنية ، فقـــد قلت اني بريء ، وسيلمس عبد الرحمن براءتي بيديه ، بعد حين ان شاء الله .

قالت : ان عبدالرحمن لا يصدق أحداً من أهل الكوفة .

– ولكنه يصدق زريحة جارية ابيه ، فقد كانت عند رأس مسلم ساعـة القتل وهي التي نعته للناس .

– وأين ذهبت هذه الجارية ؟

– لا أعلم .

– وعبد الرحمن لا يعلم، وقد انصرف إلى الزارة ليرى فيها المرقع بن ثمامة الذي رأى زريحة بعد مقتل الحسين ..

– ان زريحة لا تضيع وسنسأل عنها أهل العراق الذين يفدون إلى الكوفة كل يوم ..

فتمتمت قائلة : استحلفك بالله يا ابي ان تفعل .

– أعـــدك بذلك ، وسترين ان الذين اتهموا أباك بقتل أبي عبدالرحمن كانوا كذبة .

وكانت لهجته لهجة صدق .

فآمنت بقوله ، وجعلت تذرف الدموع .

وكانت سلمى تبكي فقال لها : قتل هانيء ، وقد حاولت قبل مقتله ان أهاجم بقومي قصر الإمارة كما تعلمين ، فخيب أشراف الكوفة الرجاء .

– وبعد القتل ؟

– لم استطع أن أثأر به لأني ضعيف ، وابن زياد قوي ، وقـــد انضم إليه اليوم جميع الكوفيين .

– وما معنى خضوعك له ؟
– معناه اني لا استطيع العيش في العراق إلا إذا كنت جندياً من جنوده .
فسكتت ، وهي واثقة بأن ضعفه أصل البلاء ..
وباتوا ليلتهم ، وابن الحجاج يفكر في عبد الرحمن ، وقد أحس في ذلك الليل ، انه يحبه كما يحب امامة .

١٤

رأيت عبدالرحمن بن مسلم في كربلاء ، قبل مقتل الحسين ، ثم لم أره بعد ذلك .
– يظهر ان أباه أمره بالرجوع إلى الكوفة قبل ان تنشب الحرب .
– لو كان في الكوفة لرأيناه ..
– قد يكون في الحجاز .
– وقد يكون تحت الثرى ، بين أصحاب الحسين الذين حصدهم السيف .
فأجابه شبث قائلا : يا ربيع ! ألم ترَ رؤوس القتلى ؟
– بلى .
– ورأيت بينها رأس عبدالرحمن ؟
– لا .
– إذن فاعلم أنه باقٍ وسيسود عشيرته كما سادها أبوه .
– بل اعلم ان الجو قد خلا لي وسأتزوج أمامة .
– اما انا فاقول ان امامة ليست لك ..
لماذا :
– لأنها تؤثر عبد الرحمن على جميع الناس .

– كان ذلك من قبل ، اما اليوم فقد جار الزمان ، وقتل مسلم ، ولم يبق حول عبد الرحمن ، من بني اسد غير من تعلم .

– ولكنها تحبه ولا تبالي بقومه ، وستبقى له ولو تفرقوا جميعهم عنه .

قال : يستطيع ابوها ان يخنق هـــذا الحب عندماء يشاء ، ويكرهها على الرضى بمن يشاء .

فابتسم قائلا : ان اباها نفسه هو الذي ذكر لي ما اقوله الآن .

– وهل حدثته بالأمر ؟

– اجل ، فعلت ذلك مرتـين ونحن في كربلاء ، في فسطاط عمر بن سعد وحدثته امس ونحن في قصر ابن زياد .

– وهل ترى ان تحدثه غداً مرة اخرى ؟

– انصح لك يا بني بأن تختار فتاة غير هذه .

قال : سأفعل عندما يضيع الأمل .

قال : اي رأي لك في فاطمة بنت عروة ؟

– عروة بن قيس ؟

– نعم .

– ستكون فاطمة لي اذا خسرت امامة .

– ستخسرها غداً يا بني .

قال : ارجو ان تذهب عند الصباح .

– اجل عند الصباح ، وسيردني عمرو هذه المرة ، كما ردني من قبل.. ولكني لا اذهب الا على شرط ..

– ما هو ؟

– هو اني سأعود مـــن منزل عمرو الى منزل عروة ، لأخطب لك فاطمة ابنته ُ وتنسى امامة الى الأبد أتعدني بهذا ؟

– نعم يا مولاي .

قال : احذر ، ولا تهزأ بأبيك .

– اقسم برأسك .
– ويطيب لك ان تذهب معي غداً لترى بعينيك ، وتسمع باذنيك .
– ليس لي في ذلك رأي .
– خير لك ان تبقى ، فابن الحجاج سيفوض الى امامة ، ان تختار من تشاء، كما فعل في المرة الأولى ، وستختار عبد الرحمن .
قال : سأبقى .
فتركه شبث الى منزل عروة ، ليحدثه بأمر فاطمة ، وقضى الربيع ليلته كأنه في الأسر .
وعندما طلع الصبح ، خرج ابن ربعي الى منزل ابن الحجاج ، وهو واثق بأنه سيتعثر بخيبته ..
وكان عمرو في الرواق فلما رأى ابن ربعي قال لخولة :
لقد جاء شبث يطلب امامة .
– وماذا تقول له ؟
– لتقل امامة ما تشاء فليس لي رأي في ذلك .
فاقبلت على الفتاة قائلة : هذا شبث بن ربعي قد اقبل بعد احتجابه وهو يظن انك امسيت بعد مقتل مسلم ملكاً لولده .
قالت : سيسمع الشيخ الذي لا وفاء له ، ما لا يحب .
ودخل شبث فسلم ثم قال لعمرو : لي كلام اقوله لك فهل تأذن لي ؟
– اني مصغ اليك .
– أرأيت عبدالرحمن بن مسلم ، بعد رجوعك ؟
– ان عبد الرحمن ليس في الكوفة .
– لقد كان في كربلاء .
– أجل ، ولكنه تركها إلى حيث لا نعلم .
– وانا أظن انه ترك الكوفة إلى الأبد ، ونسي أمامة .
– ليفعل ما يطيب له فهو سيد نفسه .

ـ والزواج ؟

ـ اما الزواج فلا تحدثني بأمره ، وهذه امامة بين يديك ترى رأيها فيه .

قال : ما رأيت عربياً يصنع ما تصنع .

قال : لا أحب ان أكره امامة على الرضى بما لا ترضاه ..

فالتفت إلى الفتاة قائلا : كان لك من قبل رغبة في عبد الرحمن بن مسلم .

ـ نعم .

ـ والآن ؟

ـ اما الآن فقد ازدادت رغبتي فيه .

وكانت مضطربة وهي تتكلف الهدوء ..

قال : وإذا خطر له ان لا يرجع إلى الكوفة ؟

ـ تبقى هذه الرغبة حتى أموت..

قال : ان مسلماً قتل في كربلاء وعبد الرحمن لا يجد بعد أبيه ، من يستعين به على أمره ..

فغمرت الكآبة وجهها وقالت له : ألم يكن عوسجة الأسدي سيد قومه ؟

ـ بلى .

ـ ومن استأثر بالسيادة بعد موته ؟

ـ ابنه مسلم .

ـ إذن فاعلم ان عبدالرحمن أمسى اليوم ، سيد العشيرة ، بعد مسلم وهو لا يحتاج إلى أحد ..

قال : وسيكون الربيع سيد الكنديين بعد موتي .

ـ ولكنني لا أرغب فيه ولو صار سيد المسلمين ..

قال : خير لك ان تنسي هذا الهوى الذي لا ثمرة له .

ـ وخير لك انت ان تختار للربيع فتاة غير امامة ، فامامة لعبدالرحمن لا لسواه ، ولا أقول غير هذا ..

ـ وان لم يعد ؟

– سأحفظ عهده ولو كان ميتاً !!

وقامت فخرجت ، والدمع يتلألأ في عينيها الذابلتين .

فابتسم قائلا : انه حبٌ لم أر مثله ، ولم يبق إلا ان يتزوج الربيع كوفية أخرى من بنات الأشراف .

فقال عمرو : تلك هي كلمة امامة لا تتغير ، فمن الرأي ان يتزوج الربيع في هذا الشهر .

– بل يتزوج في هذين اليومين .

ثم ودع وانصرف فسمع القوم صوت امامة من الداخل وكانت تقول : يقتلون مسلماً ثم يحاولون ان يقتلوا عبدالرحمن بفصل امامة عنه .. وهـذا لن يكون .

فقال أبوها في نفسه : لا يفصل بينك وبين عبدالرحمن أحد وانا حي ، وأرجو ان يغفر الله لي ...

ثم رفع صوته قائلا : نعم .. هذا لن يكون .. هذا لن يكون ..

وكانت كلمته عزاء لذلك القلب العاشق الذي جار عليه الزمان .

١٥

قص شبث على ولده جميع ما جرى له، ولم يشأ بعد ذلك ان يسمع مايقول.

كانت غايته ان ينتهي امر الربيع ، قبل ان يعود عبد الرحمن الى الكوفة ولا ينتهي هذا الأمر الا اذا زفت فاطمة اليه .

فقال له : اني ذاهب لأخطب لك كما وعدت فهل نسيت أمامة ؟

– لو كان عبد الرحمن في الكوفة لما خطر لي ان اترك امامة .. اما الآن فقد

نسيت كل شيء ..

– واذا رجع عبد الرحمن غداً ؟

قال : امسيت أنت الآن من اتباع أمير المؤمنين ، وقتل مسلم والحسين ، وامامة لم تتغير ، فلم يبق لي الا ان اتجاهل وجودها كأنها لم تكن وكأن عبد الرحمن لا وجود له .

قال : احسنت وسأحمل اليك بعد ساعة اخبار عروة بن قيس وقد نضرب نحن الاثنين موعداً للزواج .

وسار من ساعته فدخل على عروة ثم تمّ الرضى بينهما على الاحتفال بالزواج بعد خمسة أيام .

وقد مرت الايام الخمسة كما يمر الظل ، فأمسى الربيع بن شبث زوجاً لفاطمة وشهد الحفلة وجوه الكوفة ، بينهم عمرو بن الحجاج.

وبينا القوم في منزل شبث يشاركونه في افراحه ، أقبل على منزل هانيء ابن عروة عبد الرحمن بن الحصين ، راجعاً من الزارة كما قرأت .

فاحاطت به النساء الثلاث يسألنه عن عبد الرحمن ، فقال :

انه اليوم في البصرة يسأل عن المرقع .

فقالت امامة :

قلت ان المرقع نفي الى الزارة .

– أجل ، ولكنه تركها باحثاً عن عظيم من عظماء العرب يستعين به على الرجوع الى بيته .

– وهو في البصرة ؟

– لا اعلم ، حتى ان ام عبد الله نفسها لا تعرف اسم البلد الذي سار اليه .

قالت : هب ان عبد الرحمن لم يجده فيها فماذا يصنع ؟

– يلحق بأهل بيت الحسين الى الشام .

– وبعد الشام ؟

– يرحل معهم الى الحجاز لاني واثق بان ابن معاوية سيعيدهم اليه .
– ويسير وحده ؟
– أردت ان ارافقه في سفره فلم يرض ، وقد رأى ان أعود الى الكوفة .
– وما وراءك ؟
– أأقول كل شيء ؟
– نعم .
– اذن فاعلمي ان المرقع خبر زوجته بكل ما يعلم .
– وماذا يعلم ؟
– سمع رجال الحسين يقولون : ان قاتل مسلم ، عمرو بن الحجاج ...
– ولكنه لم يشهد حادث القتل .
– لا ، وسمع رجال الكوفة يقولون : قتلنا مسلما .
– وهل صدق عبدالرحمن ما سمع ؟
– تغلل الشك في صدره ، واقسم انه لا يعود الى الكوفة ، الا اذا عرف قاتل أبيه ...

قالت : تستطيع ان تقول له اذا رأيته ، ان ابي بريء .

ودخل عمرو في تلك اللحظة فقال : وان لم تظهر هذه البراءة اليوم ، ظهرت غداً ..

ثم صافحه قائلا : نعم كنت احارب في جيش عمر بن سعد ، وكان مسلم في جيش الحسين ولكني لم أفكر في قتله لانه والد عبد الرحمن .

– ومن هو قاتله ؟
– حملت على الحسين من ناحية الفرات ، ثم تراجعت ، وما راعني بعد ذلك الا قولهم : قتل ابن عوسجة .

ثم قال : يجب ان تصدق قبل كل شيء انها تهمة باطلة ..

– لقد صدقت .
– ويجب ان تقص عليّ اخبار عبد الرحمن .

فقص عليه ما يعلم فقال : اذا طاب لك ان تسأل رجال الكوفة فافعل .

– لا اسأل احداً لان عبد الرحمن لا يثق باحد .

– اذن نطوف نحن الاثنين في العراق باحثين عن زريحة فهي تعلم ما لا يعلمه الناس ...

– انت ؟

– نعم أنا لا سواي ، وسترى اني لا أعود الى الكوفة الا اذا حملت براءتي بيدي هذه ... اسمع يا بني ، انا لا أخاف ان يقال اني قاتل الحسين ، فقدتركت الشيعة وانضممت الى آل معاوية ولكني اخشى ان يظن الناس اني قاتل مسلم ، واني الجاني على أمامة ، التي لا أحب أحداً مثلها ، بعد الله عز وجل .

قال : اقسم انك بريء ..

– لا تتعجل في الامر فسترى وتسمع ، وقد توكلت على الله ...

وخفض صوته قائلا :

قلت ان عبد الرحمن سيسير من الشام الى الحجاز .

– يسير الى البلد الذي يسير اليه آل الحسين .

– سنعرف هذا البلد بعد حين فتهيأ للرحيل .

– الى اين ؟

– الى المدن والقرى ، في هذا القطر ، ثم الى قطر آخر ...

– ونرحل غداً ؟

– بعد بضعة ايام ربما اسأل اهل الكوفة عن جارية مسلم .

قال لو عرف عبد الرحمن انك ستترك الكوفة مثلي للبحث عن جارية ابيه لآمن بانك لست القاتل .

قال : ولو علمت ان عبد الرحمن يصدق اقوال الرجال الذين شهدوا مقتل ابيه لجعلت هؤلاء الرجال جميعهم شهوداً لي .

وجعل الاثنان يتحدثان حتى انتصف الليل .

وقد طلقت الكآبة امامة وابتسم الامل من جديد على ثغرها الفتان .

وفي اليوم الثاني ، خرج ابن الحجاج يطوف في الساحات والاحياء ، ويسأل الوفود عن زريحة فلم يعلم عنها شيئاً .

ومرت ثلاثة ايام، وهو يفعل ذلك،حتى خاب رجاؤه ، فقال لابن الحصين: لم يبق الا ان نرحل والاتكال على الله ...

١٦

عندما ارسل عبيدالله بن زياد رأس الحسين ورؤوس اصحابه الى الشام ، ارسل في الوقت نفسه ، رجلا من خاصته ، يحمل البشرى بقتل الحسين ، الى امير المدينة عمرو بن سعيد .

فلما انتهى الرجل الى ساحة المسجد ، لقيه رجل من قريش فقال له : أقادم انت من الكوفة ؟

قال : نعم .

– وانت رسول عبيد الله بن زياد ؟

– نعم .

– وما هي اخبارك ؟

– ستسمع في مجلس الامير الان ، ما تريد ان تسمع ...

فقال القريشي :

انا لله وانا اليه راجعون ... قتل الحسين ...

ودخل الرسول على عمرو بن سعيد ، فقال عمرو :

ما وراءك ؟

قال : بشرى تسر الامير .

قال : قتل الحسين بن علي ؟

– اجل وقتل اصحابه .

فاطرق قليلا ثم قال : اخرج وناد بقتله .

فخرج فنادى :

يا أهل المدينة .. انعي لكم الحسين .

فخرج الناس الى السطوح والشرفات ، وارتفعت الاصوات .

وصاحت نساء بني هاشم يذرفن الدموع ويلطمن الخدود ..

ثم خرجت ابنة عقيل بن ابي طالب سافرة ومعها نساؤها وهي تلوي ثوبها وتقول :

ماذا تقولون اذ قال النبي لكم ... ماذا فعلتم وانتم اخر الامم

بعترتي وبأهلي بعد مفتقدي ... منهم اسارى وقتلى ضرجوا بدم

ما كان هذا جزائي اذ نصحت لكم ... ان تخلفوني بسوء في ذوي رحمي

فلما سمع عمرو بن سعيد اصواتهن ، ضحك وقال :

عجت نساء بني زياد عجة ... كعجيج نسوتنا غداة الارنب

« والارنب وقعة كانت لبني زبيد على بني زياد من بني الحرث بن كعب ، والبيت قاله عمرو بن معدي كرب » .

ثم قال :

نعي الحسين كما نعي عثمان ... وصعد المنبر فاعلم الناس قتله .

فلما عرف عبدالله بن جعفر ، ان ولديه قتلا مع الحسين ، دخل عليه احد مواليه والناس عنده فقال : هذا ما لقيناه من الحسين ..

وهو يظن انه يعزيه ..

فحذفه ابن جعفر بنعله وقال : يا ابن اللعينة ، ألِلحسين تقول هذا ؟.. والله لو شهدته لأحببت أن لا أفارقه حتى أقتل معه .. والله ، انه لمما يهون عليّ المصاب بولدي . انهما أصيبا مع اخي وابن عمي مؤاسيين له صابرين معه ..

ولبست نساء بني هاشم أثواب الحداد ، وسادت الكآبة منازلهن ، وأقمن ينتظرن نساء الحسين ، وهن يعلمن انهن في دمشق .

وكان عمر الحسين يوم قتل خمساً وخمسين سنة ، وكان قتله يوم عشوراء ، في

السنة الحادية والستين .

وقال التيمي ،تيم مرة ، يرثي الحسين وأهله وكان منقطعاً إلى بني هاشم:

مررت على أبيات آل محمد فلم أرَها أمثالها يوم حلّتِ
فلا يبعد الله الديار وأهلها وان أصبحت من أهلها قد تخلت
وان قتيل الطيف من آل هاشم أذلّ رقاب المسلمين فذلّت
وكانوا رجاءً ثم أضحوا رزية لقد عظمت تلك الرزايا وجلت
وعند غني قطرة من دمائنا سنجزيهم يوماً بها حيث حلت
إذا افتقرت قيس جبرنا فقيرها تقتلنا قيس إذا النعل زلت

١٧

همّ أمير المؤمنين ، بأن يسير أهل الحسين إلى الحجاز ، كما قرأت .

وكان قد بلغه ، وآل الحسين في دمشق ، ان الناس ، في كل قطر ، يلعنونه ويلعنون ابن زياد ، الآمر بقتل الحسين .

فندم على ما جرى ، وجعل يجلس للناس ، والكآبة على جبينه والمرارة والألم في عينيه ..

ومرجون يعرف ما في نفسه ، ولا يجسر على ان يذكر حادث كربلاء .

ومرت أربعه أيام ، ويزيد على ما وصفنا .

فلما كان اليوم الخامس دعا سرجون إليه فقال له : ماذا يقول وفود الأقطار ؟

فأجابه الداهية قائلا : يقولون ان الأمن يسود أقاليم الدولة ، وقد طاب العيش للناس ، وأحاط بهم الرخاء من كل ناحية في ظل أمير المؤمنين ..

قال : لا نسألك عن هذا ..

— وماذا اذن ؟

– نسألك عن هذا البغض الذي يقرأه عمالنا على الوجوه في كل بلد ، وعن هذه اللعنة التي ينتهي صداها الرهيب الى الخضراء ...

قال : اعترف لك يا مولانا بأني لم أفهم شيئاً ..

قال انهم يلعنون أمير المؤمنين ..

– ومن يجسر على ذلك ؟

قال : امير المؤمنين لا يهزأ بنفسه .. انهم يفعلونها ويسبوننا كل يوم ، على مسمع من وفود العرب .

– وفي أي شيء يستحق مولانا الخليفة هذه اللعنة ؟

– في قتل الحسين بن فاطمة .

قال : الذنب في ذلك ذنب ابن زياد .

– ولكن الناس يلومون امير المؤمنين ، وحقهم ان يلوموا ... وما علينا لو احتملنا الأذى ، وأنزلنا الحسين في دارنا ، وحكمناه فيما يشاء وان كان هنالك وهن في سلطاننا .. أجل يا سرجون ، كان علينا ان نفعل ذلك حفظـاً لحق رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ورعاية لقرابته ..

ثم قال : لعن الله ابن مرجانة .. لقد سأله الحسين ان يضع يده في يدنا أو يلحق بثغر من ثغور المسلمين فلم يجبه إلى ذلك بل قتله فبغضنا بقتله إلى الناس وزرع في قلوبهم العداوة .. فالويل له ولعنة الله عليه .

قال : انسَ يا مولانا ما مضى وسينساه الناس .

– وكيف ننسى وآل الحسين عندنا ، وعلي بن الحسين يتغدى ويتعشى معنا وهو يبكي أباه كل يوم ؟

قال : ليرحل القوم الى المدينة ..

– سنرسلهم بعد شهر .

– بل ترسلهم بعد يومين لأن بقاءهم في دمشق يدفع الناس إلى التحدث بأمر القتيل وأمر اصحابه ..

فاستحسن يزيد رأيه .

وكان النعمان بن بشير بالباب ، فناداه قائلاً : نأمرك بأن تجهز أهل الحسين بما يصلحهم ، فهم راحلون بعد غد الى الحجاز الذي تركوه ..

قال : ويريد امير المؤمنين ان يخرجوا من دمشق ولا حراس لهم يرافقونهم الى حيث يشاء .

– بل تأمر رجلاً اميناً من أهل الشام بأن يسير معهم ومعه طائفة من الخيل.

– وبماذا أوصيه ؟

– بان يكون لهم عبداً يطيعهم بكل شيء والويل له اذا انتهوا الى المدينة وهم غير راضين عنه .

وأمره بالانصراف .

ثم قال لحاجبه : عليّ بعلي بن الحسين ، فدعاه فاقبل ، فقال له : أليس لك رغبة في الرجوع الى المدينة ؟

– ليس لي رغبة في شيء فأنا افعل ما يطيب لك .

قال : خبرنا الغلمان والجواري ان النساء يؤثرن الحجاز على الشام ، وليس هنالك أمر أحب اليهن من ترك الخضراء .

قال : لا أعلم شيئاً من هذا .

– ولكنك تعلم اي البلدين احب اليك ..

قال : نشأت في الحجاز وعشت بين اهله ..

وفي الحجاز آل هاشم يعطفون عليك ، والمرء لا يؤثر احداً على قومه .. تهيأ للسفر ..

– وحدي ؟

– انت ومن معك ، فقد امرنا النعمان بن بشير بأن يعد عدة الرحيل بعد غد ، وأمرنا حاجبنا بأن يدعوك لتذكر لنا حاجتك .

– لا حاجة لي .

– والنساء ؟

– ليس للنساء اللواتي تكتنفهن اللوعة حاجات ..

قال : يا علي .. هذه لهجة سمعناها من قبل ؟ وكنا نظن انامرها قدانتهى ..

قال : انها لهجة الشقي المنكود الحظ ، الذي قتل ابوه واخوته واعمامه واهله ؛ فلا تسألني عن ذلك .

فقال : لعن الله ابن مرجانة ، اما والله لو اني صاحب ابيك ما سألني خصلة ابداً الا اعطيته اياها ولدفعت الحتف عنه ولو بهلاك بعض ولدي .. ولكن قضى الله ما رأيت يا بني ولا حيلة لي في رد ما جرى ..

ثم قال : اذا رأيت ، وانت في الحجاز ، انك بحاجة الى شيء ، فاكتب اليّ عنه فحاجاتك مقضية ولو كان بعدها حرب ..

قال : اشكر لك احسانك ..

– وستكون في المدينة عزيز الجانب عالي المقام ، فاذا لم يعرف عاملنا فيها منزلتك ومنزلة قومك ، اكرهناه على ذلك .

فحنى رأسه ولم يجب .

قال : وقل لبني هاشم ان الفاجعة الكبرى ، التي وقعت في كربلاء ، واهتز لها المسلمون في اقطارهم ، لم تقع بأمر امير المؤمنين ..

– سأقول لهم هذا .

– وليحذروا الفتنة ، فان معاوية لم يرحم اصحابها ونحن مثله ..

– وسأقول هذا ايضاً ..

– وكن بعيداً عن رجال السوء ، فهؤلاء الرجال هم الذين قذفوا بالحسين الى الهوة ، مستسلين الى الاحلام ..

فقال في نفسه : لا تخف يا يزيد ، فاولئك الذين كان العرش لهم ، قد ماتوا الآن ، ونحن اضعف من أن نطلب عرشاً .. ثم رفع رأسه قائلاً : من هو الرجل الذي امرته بأن يسير معنا الى المدينة ؟

– رجل من اهل الشام ، ومن خاصة امير المؤمنين .

قال : أهو رجل سلم أم رجل حرب ؟

– سيكون أطوع لك من غلمانك .

قال : لا أسألك إلا ان توصيه بأن يرفق بأهلي .

وظهر الدمع في عينيه .

فقال : لو أردنا بكم سوءاً لما بقيتم أحياء .. انتم اليوم في دمشق ، أضياف الخضراء ، وستكونون وانتم في المدينة ، في ظل أمير المؤمنين .. وهذا الرجل الذي يسير معكم ، يحفظ قولنا ولا ينساه ..

وهل بقي شيء ؟

– بقي ان تحدث الناس في الحجاز ، بما سمعت ورأيت .

والتفت إلى سرجون قائلا : قم انت وانظر ما يصنعه النعمان بن بشير ، وانصرف انت يا علي ، فسنراك مرة أخرى قبل ان ترحل .

ودخل المسجد ، ثم لم يلبث حتى رجع إلى القصر .

١٨

ترك أهل الحسين دمشق ، بعد يومين .

وخرج معهم ذلك الرجل ، ووراءه فريق من الرجال على الخيل يمشون كالحرس حول القوم ..

ولم يذكر التاريخ ، اسم هذا الرسول الذي اختاره النعمان بن بشير ، ليرافق أهل البيت الهاشمي .

ولكنه يذكر ، انه كان رسولاً أميناً خفيف الظل عف اللسان ، إذا نزل القوم ، تنحى عنهم هو وأصحابه لا يدنو منهم ولا يهتم إلا لما يعنيه .

وعينه ترعاهم من بعيد ، يمشي إذا مشوا ، ويسألهم عن حاجاتهم إذا وقفوا ، ويضرب لهم الخيام كلما خطر لهم ان يكفوا عن المسير .

فكأنه عبد ، لا همّ له إلا الخضوع لمولاه .

فلما كانوا في بعض الطريق ، أقبل فتى على فرسه كأنه يريد الشام ..

ولكنه وقف عندما وقعت العين على العين ، ووثب إلى الأرض ثم تقدم ماشياً وهو يقول : أهل مولانا الحسين ؟!

وتردد البكاء في صدره ، ثم سكت ..

فقالت الرباب زوجة الحسين : هذا عبدالرحمن بن مسلم ..

وجرت الدموع على الخدود ..

ثم أقبل علي والنساء يسلمون عليه ، وقد عقدت الألسنة وساد السكوت ، كأن القوم عند جثة ميت .

وعبدالرحمن يرسل النظرات، ليتبين الأحياء من آل الحسين رضي اللهعنه ..

وقد رأى علياً ، وخلفه عمر وأخوه الصغير ..

فجثا على ركبتيه وقال : اني لك يا ابن الحسين كما كان أبي لأبيك .

فبكى الغلام وأنهضه قائلا : لقد رأيت أباك يقاتل عند فسطاط أبي ، ولم ألبث حتى سمعت زريحة تنعاه للناس وتقول: قتل اللهقاتلك يا مسلم بنعوسجة.

وكان الليل قد أقبل ، فقالت زينب : ألا تنزل ياعلي ؟

قال : بلى وسنقضي الليل في هذا المكان .

وجلسوا جميعاً في خيمة الرباب والسراج الضعيف يرسل أنواره المرتجفة الى الوجوه الصفراء التي تتلألأ عليها الدموع .

لقد كانت تلك الساعة ، ذكرى لوعة ، ورهبة ، وألم .

ثم قالت زينب : لقد انقضت الصاعقة وأنت بعيد يا عبد الرحمن ..

قال : أجل ، وليتها انقضت على هذا الرأس ..

ـ واين كنت ؟

ـ في الكوفة ..

ـ اذن رأيت رأس ابيك ورؤوس أخي واصحابه .

ـ لم أر شيئاً ولكني سمعت .

ـ ولم تر عمر بن سعد يسوقنا الى قصر الطاغية ابن الطاغيـــة ، عبيد الله

ابن زياد كما يسوق النعاج ؟

ـ قيـــل لي انكم دخلتم القصر ، واعترف باني رأيت الظالمين يحملون رأس مولانا الحسين على خشبة ويطوفون به ..

ـ وماذا كنت تصنع في الكوفة ؟

ـ اتيتها بأمر مولاي القتيل العظيم ، وأمر ابي ، لانهى ابن الحجاج ، بحيلة تعمد اليها زوجته خولة ، عن القتال في صفوف الكوفيين .

ـ ولكنك لم تفعل شيئاً ..

ـ صرعتني الحمى ، وعندما صحوت منها ، كان النبأ الرهيب قد ملأ العراق.

ـ وبعد ذلك ؟

ـ عافاني الله ، فخرجت من الكوفة الى الزارة ، اسأل عن المرقع بن ثمامة الذي فر من معسكر الحسين كما يفر الجبان .

ـ قالت : أمن المرقع قومه فخرج .

ـ وهذا هو الذل .. وانه ليرى اليوم في منفاه عاقبة فراره وذله ..

ـ وهل رأيته ؟

ـ لا ، وقد خبرتني زوجته ، انه يحاول بجميع الرسائل ، استرضاء يزيد بن معاوية ، ليعيده الى منزله .

وحاجتك اليه ؟

ـ كنت اريد ان اسأله عمن بقي من اصحاب الحسين واهل بيته .. وهنالك خاطر آخر خطر لي ..

فقالت الرباب : ما هو ؟

ـ هو ان يدلني على قاتل ابي .

فنظرت الى من حولها قائلة :

من يعرف هذا القاتل ؟

فلم يجبها أحد .

فأعادت سؤالها والقوم لا يجيبون .

فقالت زينب : كانت زريحة تقول : قتلوه لعنهم الله ، ولم تذكر اسماً ...
وانا اظن ان رجال عمرو بن الحجاج ، هم الذين قتلوه !

قال : ما ابالي بقاتله الا من ناحية واحدة ..

قالت : لقد عرفت غايتك .. وقد قص علي ابوك رحمه الله ، حكايتك مع امامة بنت عمرو .. أتريد ان اذكر هذه الغاية ؟

ـ نعم .

ـ انك تحب امامة .. ولكنك لا ترضى بأن تزف اليك ، الا بعد ان يثبت لك ان اباها بريء من دم ابيك ..

فخفض صوته وجعل يقول : اجل ، هذه غايتي التي اعيش من اجلها وانا ارجو ان يتم لي ما اريد .

قالت : ماذا تفعل غداً اذا قيل لك ان عمراً هو القاتل .

ـ لا اعلم يا مولاتي ماذا افعل .

ـ أتترك الفتاة ؟

ـ أتركها ، ثم اقتل عمراً !

ـ ثم تشقى إلى الأبد ؟

ـ ثم أرحل إلى الدار الأخرى التي رحل اليها أبي والحسين ..

قالت : سترى ان ابن الحجاج لم يكن قاتله ..

ـ أتدافعين عن ابن الحجاج يا ابنة علي .

ـ لا أدافع عن الرجل ، الذي هاجم أخي على الفرات ، هو ورجاله ، ولكني أذكر ما رأيت ..

قال : ماذا ؟

ـ رأيت رجال عمرو يقابلون أصحابنا ، ثم رأيت عمراً يتراجع من الساحة ، وفرس أبيك تغوص في الصفوف وهو على ظهرها يقاتل الناس ويقول : انا مسلم ابن عوسجة .

ثم عرفت بعد ساعة انه قتل .

– وكان ابن الحجاج بعيداً عنه ؟
– هذا ما أراه ..
فتنهد قائلاً : ومع ذلك فلا يدلني على قاتله غير زريحة .
– وأين هي ؟
– لو كان المرقع في الزارة لعرفت البلد الذي رحلت إليه .
ثم قال : كنت أظن انك تعلمين من أمرها ما لا يعلمه المرقع .
قالت : تركت كربلاء وهي تقول : اني راحلة إلى حيث لا أعلم.
قال : ويل لي، كلما ظننت اني دنوت من زريحة ذراعاً أبعدها الله عني فرسخا.
قالت : سيجمع الله الشمل ..
فقالت الرباب : يا عبد الرحمن ، أينا أعظم مصيبة ، نحن أم أنت ؟
فخجل قائلا : المصيبة واحدة .
– ولكن بقي لك أمـــل بلقاء من تحب .. أما نحن فقد ضيعنا الأمل وخاب الرجاء .

ورفعت صوتها بالبكاء، ثم ارتفعت اصوات النساء كأن جثة الحسين وجثث اهله في تلك الخيمة يذرفن فوقها الدموع .

وكان علي بالقرب من عبدالرحمن فقال له : ان العمر كله سينقضي كما ترى، عويل وبكاء ، ولوعة وشقاء .. وحزن على من كانوا سادة العرب ، وامل الفئة الصالحة من الاسلام .. ثم قال : أذاهب انت الى دمشق ؟
– لم يبق لي ما اصنعه فيها فقد رأيت آل الحسين .
– وهل ترجع الى البصرة ؟
– اسير الى البلد الذي تسيرون اليه .
قال : نحن راجعون الى المدينة بأمر يزيد .
فخفض صوته قائلا : ابن معاوية الظالم .. وماذا رأيتم عنده ؟
– رأينا غير ما رأيناه عند ابن زياد .
قال : لعن الله ابن معاوية .. يضرب بيد ، ويمسح الدماء باليد الأخرى وهو

يظهر للناس انه بريء .

قال : يقوم في الذهن انه لم يكن له رأي في قتل أبي وأصحابه ، وقد فعلها ابن زياد دون ان يستشيره ..

قال : الحسين سيد الأمة ، وآله اصحاب الحق وأهــل الصلاح ، يقتلهم عبيدالله الطاغية ويبعث برؤوسهم الى الشام دون ان يستشير مولاه ؟؟ انــه حديث لا يخطر لي ان أصدق كلمة منه !.

قال : ذلك ما كان يقوله يزيد لرجال الخضراء ..

– قول كاذب بطاش يستحل دماء الابرياء .. ألم يأمر يزيد عبيد الله ، يوم خرج أبوك رضي الله عنــه من الحجاز ، بأن يحبس على التهمة ويأخذ الناس على الظنة ؟

– ولكنه أمره في الوقت نفسه بأن لا يقاتل إلا من قاتله .

– ومن كان البادىء بالقتال ؟

– عمر بن سعد ، وقد كتب اليه ابن زياد ان يفعل .

قال : لو لم يكن يزيد هو الآمر بقتــل شهداء كربلاء ، لدعا عبيد الله الى دمشق وصلبه في ساحة الخضراء .

ثم هامسه قائلاً: لقد كان ابتسامه لك رياء ، وكان رفقه بنساء الحسين مظهراً من مظاهر الدهاء ، فهو مثل معاوية لعنهما الله .

قال : لقد غضب اليوم على ابن زياد وسيعزله عن الكوفة .

– يعزله عنها ليعيده الى البصرة ، وهذا مظهر آخر من مظاهر دهــائه يرضي به الناس الذين يسبونه .

قال : يكفي انه لم يستخف بنا ونحن بين يديه ..

– ويكفي ان الجو قد خلا له اليوم ، فليس في العرب حسين آخر يمشي ، بقوة الحق ، الى الخلافة .

وجعل يسأله عن هؤلاء الرجال الذين ضربوا خيامهم وراء خيام النساء ، فقال: انهم من رجال يزيد .

– وقد خرجوا حراساً لـكم ؟

– نعم : وهم عبيد لنـا كما ترى ، ينزلون اذا نزلنا ، ويركبون عندما نأمر بالرحيل دون ان يقولوا كلمة .

– ومن هو قائدهم ؟

– رجل من الشام ، اختاره النعمان بن بشير ، بأمر ابن معـــاوية ليكون رفيقاً لنا الى الحجاز ...

قال : وتطيب لكم الاقامة بالمدينة ، في ظل عاملها الاموي عمرو بن سعيد؟

قال : جميع عمال الدولة اليوم ، من الامويين ، وقد اوصاني يزيد ، بان اكتب اليه كلما خرج البريد من المدينة واذكر له حاجاتي واخبره بكل ما أراه.

وسكت الاثنان عندئذ وقد ارخيا نظرهما الى الارض .

ذلك لأن الرباب وزينب كانتا تندبان القتلى ، والنساء حولهما يذكرن أولئك الشهداء باسمائهم ويلطمن الخدود والصدور .

حتى جفت الدموع وخارت القوى ..

فاستسلمن الى الكرى ، وخرج عبدالرحمن مع علي إلى خيمة أخرى يقضيان فيها ما بقي من الليل .

١٩

عندما انتهى الى الحجاز خبر الحادث العظيم الذي جرى في كربلاء ، قام عبدالله بن الزبير في الناس فعظم قتل الحسين ، وعاب أهل الكوفة خاصة ، وأهل العراق عامة ، قال :

ان أهل العراق أصحاب فجور وغدر ، وأهل الكوفة أهل خداع ومكر . لقد دعوا الحسين لينصروه ويولوه فلما قدم عليهم طلبوا اليه ان يضع يده في

أيديهم فيبعثوا به إلى ابن سمية ، فآثر الموت على حياة الذل رحمه الله ..

ثم قال : أفبعد الحسين نطمئن الى هؤلاء القوم ونصدق قولهم ونقبل لهم عهداً ؟.. لا والله لا نراهم لذلك أهلا .. لقد قتلوه ، طويلا بالليل قيامه ، كثيراً في النهار صيامه ، أحق بما هم فيه منهم ، وأولى به في الدين والفضل ، أما والله ما كان يبدل بالقرآن غيباً ، ولا بالبكاء من خشية الله حداً ، ولا بالصيام شرب الخمر .

فقال بعض أصحابه : اظهر بيعتك ، فلم يبق أحد بعد موت الحسين ، ينازعك الأمر .

قال : بايعوا سراً ولا تعجلوا . وأنا اظهر للناس ، أني عائذ بالبيت الحرام ، لا أخرج منه إلا لأمر .

وما هي غير بضعة أيام حتى كثر الناس حوله من أنصاره وسألوه ان يظهر البيعة وهو يقول : لا تعجلوا .

ولكن الخبر بلغ امير المؤمنين ، فقال لمن حوله : ماذا ترون ؟

قالوا : نرى أن توجه الى الحجاز من يأتيك به .

فقال : اعاهد الله وأعاهد من حضر ، اني سأحمله الى الشام ، مقيداً بالسلاسل كما تقيد الخوارج اعداء الخلافة ، والتفت الى ابن عطاء الاشعري قائلا : تسير الى مكة بالرجال ، ومعك سلسلة من فضة توثق بها ابن الزبير ، وثوب من خز يلبسه فوقها لئلا تظهر للناس .

قال سأفعل يا أمير المؤمنين وسيرى أهل الشام ابن الزبير في هذه القاعة بعد شهرين ان شاء الله .

قال : اخرج الساعة وخذ من الرجال من تشاء ، فانصرف الأشعري ، وهو يظن انه سيبلغ غايته ، فلما قدم المدينة خبر مروان بن الحكم بالأمر فأرسل معه ولدين له ، احدهما عبد العزيز وخرجت الرسل من المدينة تحمل الى ابن الزبير اخبار القوم ، فاقام بالكعبة وامتنع بها . ومرت الايام وابن عطاء لا يفعل شيئاً

ويزيد في الخضراء يعلم كل شيء ، فقال لسرجون : ألا تدلنا على أمر نستطيع معه القضاء على ابن الزبير ؟ فأومأ الى الوليد بن عتبة ومن معه من بني أمية قائلاً : يدلك هؤلاء . وكأنه يريد ان يقول له : ولِّ الوليد ..

فقال : هات يا ابن عتبة .

قال : أليس عاملك على المدينة ، عمرو بن سعيد .

— بلى .

— وهل تظن أنه يدور حول ابن الزبير ليقبض عليه وعلى رؤساء اصحابه ويرسلهم جميعهم اليك ؟

— نعم .

قال : والله انه لا يفعل ذلك ، وهو لو شاء ، لاخذ اعداءك الذين خرجوا عن الطاعة وساقهم بالسوط الى الشام ، فنظر الى سرجون دون ان يتكلم ، فابتسم الرومي ابتسامة رضى .. فقال عندئذ للوليد : لقد جعلناك عاملا على الحجاز ، فافعل ما انت فاعل دون أن تسألنا . ان النهي والامر لك . فقام فقبل ثوبه ثم قال : وعمرو بن سعيد ؟

— ان شئت اخذته ، وان شئت فابعث به الينا لنرى رأينا فيه ، فودعه وانصرف ، ولكنه عرف قبل أن يترك دمشق أن نجدة بن عامر النخعي ، ثار باليمامة عندما بلغه نعي الحسين .

فقال في نفسه : ثورة في اليمامة ، وثورة في الحجاز ... فاذا عجز عمرو بن سعيد عن اخماد النار في البلدين ، فله عذر ، ومشى الى المدينة وهو غير واثق بقوته ! ولم يكن ابن سعيد جباناً ضعيف الرأي والقلب ولكنه كان يداري ويرفق خوفاً من أن تستعر النار . على ان الوليد لم يشأ إلا ان يظهر بمظهر القوي .

فلما قدم المدينة سلم إلى عمرو كتاب العزل ، وأخذ غلمانه ومواليه فوضعهم في السجن لم يستثن أحداً ، فخاطبه عمرو بالأمر فأبى أن يخليهم ، فغادر المدينة حتى أمسى على بعد مرحلتين ، وأرسل الى غلمانه عدتهم من الإبل ، فكسروا أبواب السجن في الليل ولحقوا به إلى الشام .

وكان أهل الحسين قد دخلوا المدينة ومعهم عبد الرحمن بن مسلم فقالت فاطمة لأختها زينب : لقد أحسن الينا هـــذا الرجل الذي رافقنا من الشام ، أفليس من الرأي ان نصله ونحسن اليه بشيء ؟

قالت : والله ما معنا ما نصله به غير هذين السوارين .

وبعثتا بهما اليه ، فردهما قائلا ، لو كان الذي صنعت للدنيا لكان في هـذا ما يرضيني ، ولكن والله ما فعلته إلا لله ، ولقرابتكم من رسول الله .

وأقبل الناس من جميع النواحي يعزون أهل البيت .. وعبدالرحمن يسأل عن زريحة ولا يعلم عنها شيئاً ، ولو رأى أحداً من بني طيء ، في ذلك الحين ، لعرف أين هي . وقد فاته ان يسير إلى جبلهم وقد كان يعلم انه وطنها القديم .

وبعد زمن قصير أتى الأشراف من قريش يخطبون الرباب ، زوجة الحسين، وهي ابنة امرؤ القيس ، فردتهم جميعهم وهي تبكي زوجها العظيم ، وبقيت بعد الحسين سنة لم يظللها سقف بيت حتى ماتت .

٢٠

أقبلت السنة الثانية والستون ، والوليد بن عتبة بالحجاز ، يريد غرة بن الزبير ، ليقبض عليه وعلى قومه ، وينقذ الحجاز من ثورته ..

ولكن عبدالله كان داهية ، فلم يستطع الوليد ان يمد يده إليه ، وهو ممتنع بالكعبة .. كما انه لم يستطع ان يمد يده إلى نجدة بن عامر النخعي الثائر في اليمامة وهو القوي بجنوده ، وكلا الثائرين ، واثق في أصحابه ، لا يستسلم ولا يتخلى عن سيفه ، وقد رأى الناس ان نجدة يزور ابن الزبير في وضح النهار وفي الليل ، فقام في الاذهان انه سيبايعه .

على ان الرجلين ، كانا أضعف من ان يظهرا البيعة ويبرزا الى الساحة داعين

الناس الى ما يحلمان به .. ذلك لأن امير المؤمنين يسند عامل الحجاز وجيش الشام قاس يحطم القوى ويسحق الرؤوس التي ترتفع الى العلاء ..

وماذا يصنع ابن الزبير وهو الطامع بالخلافة ؟

أيتراجع ، وطوائف كثيرة من أهل الحجاز تسير تحت لوائه ، أم يستسلم وفي الاستسلام الذل أو الموت ؟؟

انه يعمد الى الحيلة والخداع ، وهذا خير ما يلجأ اليه ..

وقد يخلق الله بعد ذلك ما لا يعلم .. فكتب الى يزيد بن معاوية :

« بعثت الينا رجلا أخرق لا يصغي الى نصح ، ولا يرعوي لعظة الحكيم ولو وليت رجلا آخر سهل الخلق رجوت ان يسهل من الامور ما استوعر منها وان يجمع ما تفرق » .

وعهد إلى رجل من خاصته ، في حمل كتابه ،فلما قرأ يزيد الكتاب ، قال لسرجون :

لقد كان عمرو بن سعيد ، خيراً من الوليد بن عتبة الذي أشرت علينا أن نوليه .. خذ واقرأ ، فقرأ سرجون ما كتبه ابن الزبير وجعل يبتسم .

فقال له : ماذا رأيتَ ؟

— رأيت دهاء وحيلة من عدوك العائذ بالكعبة .

— واين هو هذا الدهاء ؟

— بين هذه السطور التي قرأت .

— هو يرجو ان ينتهي الامر بيننا وبينه على يد رجل غير الوليد ، حسن الاسلوب سهل الخلق .

— بل يرجو ان يمر الزمان ويكثر حوله الأعوان،وقد يكون له غرض آخر هو ان يحملك على اختيار عامل جبان ضعيف الرأي يضيع هيبة امير المؤمنين .

قال : انت ترى ان الوليد لم يفعل ما وعدنا به .

— وهل تريد يا مولانا ان يهدم الوليد بيت الله ليحمل اليك عدوك ؟

قال : كان عليه وهو العاجز عن اقتحام الكعبة ، ان يفرق شمل الرجال

الذين يحيطون بنجدة بن عامر ، في اليامة .

فرأى سرجون انه مصيب فيما يقوله ، فقال : صبراً فسيفعل ما يطلب منه.

– نؤثر ان يفعل ذلك سواه ..

قال : أتعزله يا امير المؤمنين ؟

– اجل ، ففي هذا المجلس فتيان خير منـــه .. ادن يا عثمان .. انك فتى صغير السن ، ونحن نريد ان تصنع ما تصنعه الرجال ، وعثمان هذا ، ابن محمد ، ابن ابي سفيان ، وهو غلام غر لم يختبر الزمان واهله ، ولم يجرب الحكم ، فقام فقال : ها أنذا يا مولانا .

قال : أتسير الى الحجاز اذا وليناك ؟

– اسير الى حيث تشاء..

– وهل سمعت ما قلناه لسرجون الآن ؟

– سمعت كل شيء .

– ورأيك فيه ؟

– ليس لي رأي .. اني اضع سيفي حيثما تشاء ، وألين للقوم عندما تشاء .

قال : نريد امراً واحداً هو ان يرجع ابن الزبير ، وابن عامر عما يهان به ولا نبالي بما تفعل .

قال : سأكون في الحجاز سيفك القاطع .

قال : احسنت ، وقد وليناك وعزلنا الوليـد ، اكتب يا سرجون الى ابن الزبير اننا عزلنا الرجل الأخرق وولينا عثمان ، فليرجع الى صوابه .. وامـا أنت يا عثمان فانصرف غداً ولا تنس انك ابن عم أمير المؤمنين ، فكتب الرومي ما أمره به مولاه ، وخرج عثمان في اليوم الثاني يريد المدينة ووراءه طائفة من الغلمان ، فلما انتهى اليها ، ارسل الى ابن الزبـير جواب امير المؤمنين ، وبث عيونه حول الكعبة يحملون اليه الاخبار ، وكان ابن الزبير يعرف عثمان ، ويعلم اي فتى هو ، ولكنه لم يشأ ان يتصدى له بل خطر له خاطر غريب خيل اليه انه يبلغ به الغاية .

اراد ان يظهر لأهل الحجاز ، ان امير المؤمنين لا يصلح للخلافة وان خلعه خير من الخضوع له، فدعا عبد الله بن حنظلة ،وعبد الله بن ابي عمرو بن حفص ، والمنـــذر بن الزبير ، ورجالاً كثاراً من اشراف المدينة ، وجميع هؤلاء من

انصاره فأتوه فقال : اني مرسلكم الى الشام .

فقال ابن حنظلة : الى يزيد بن معاوية ؟ ـ نعم .

قال : كأني بك تريد ان تظهر له خضوعك ..

– أجل فهو أمير المؤمنين ونحن عبيده ... ولكن ارجو ان تصفوا للناس بعد رجوعكم من الشام ، ما رأيتموه في مجلسه..

قال : لقد فهمت فمتى تأمر بالرحيل .

– ذلك لكم ، على ان يصاحبك الى ذلك القطر ، بنوك الثمانية ،وأبناء اخيك ومن حولهم من رجال .

– سيسير معي من ذكرت .

– وما رأيك في يزيد ؟

– في أي شيء ؟

– أتظفرون منه بابتسامة ؟

قال نحن أشراف الناس ، وقد كان ابوه يصلنا ويحسن الينا ، وهو يعلم اننا لسنا من انصاره . قال : كان معاوية داهية الناس ..

– وسيكون يزيد ، مثل أبيه ، داهية في استقبال وفوده.

قال : احذر ذلك الرومي اللعين الذي يدعى سرجون .

– وماذا يفعل سرجون؟ يسألنا عن أنصار أمير المؤمنين فنجيبه ان الحجاز كله من أنصاره وينتهي الامر .

– وإذا سألك عني فبماذا تجيب ؟

– لا تسأل ابن حنظلة عن هذا فقد تعود ان يجالس الملوك، فسكت عبدالله وانصرف القوم ، على ان يغادروا الحجاز بعد بضعة أيام .

٢١

أوصت أمامة ، عبد الرحمن المرادي ، بأن ينقل اليها أقوال زريحة ، اذ

لقيها في طوافه مع ابيها عمرو بن الحجاج .

أجل، آمنت امامة بأن أباها لم يلطخ يده بدم مسلم، ولكنها لم تشأ أن تستسلم الاستسلام كله الى هذا الايمان ، قبل ان يصدر حكم البراءة من جارية القتيل .

وكان ابن الحجاج ، كما قرأت، أشد الناس رغبة في الحصول على ذلك الحكم، وغايته من ذلك ، ان يبقى عبد الرحمن لامامة ، وتبقى امامة له ، وماذا يقول الناس غداً ، اذا فصل القضاء بين العاشقين ؟.. يقولون أن عمراً قاتل مسلم ، ولو لم يكن هو القاتل ، لما ترك عبد الرحمن حسناء بني زبيد ، التي هي امنية قلبه ، وبهجة نفسه ، بل يقولون : لقد قتل ابن الحجاج ابنته بيده .. وحسب عمرو من هذا الطواف ، الذي يهم به انه يعيد الامل الى قلب فتاته المنكودة الحظ ؛ وأول خاطر خطر له أن يسير الى جبلي بني طيء ، لقد كان يعلم ان زريحة طائية ، وقام في ذهنه انها آثرت الالتجاء ، بعد حادث كربلاء الى أحد الجبلين على الرجوع الى الكوفة ، والمرء في المحن لا يذكر غير قومه .. ولم يقل ذلك لعبدالرحمن . فلما خرج من الكوفة قال له : أتعلم أن زريحة احدى نساء طيء ؟

– نعم أعلم .

– وتظن انها لجأت الى قومها بعد مقتل مسلم ؟

قال : انها فكرة لم تخطر لي من قبل .

قال : فكرت في الامر أمس وقلبي يحدثني بانها عند أهلها .

– وأنا من هذا الرأي .

– اذن نسير الى جبل أجا ثم الى الجبل الآخر ..

قال : ارى ان نذهب الى الزارة فقد نجد المرقع اليوم .

– قلت انه يبحث عن رجل يشفع فيه .

– نعم ولعله وجد ذلك الرجل .

قال : الى الزارة فاذا لم نجده فيها ذهبنا الى طيء ، وسار الرجلان حتى انتهيا اليها فقيل لهما ان المرقع في خراسان ، وقد يكون ضيف المهلب بن ابي

صفرة ، فمكثا ساعتين ثم رجعا يريدان الجبل الذي ذكرناه .

وكانت زريحة قد صاحبت الطرماح بن عدي وهو راجع الى قومه ، ولم يكن لها اب وأم واخوة بل كان هنالك انسباء من الرجال والنساء احدهم الطرماح نفسه ، ولها خالة تقيم ببيت في الجانب الشرقي من أجا ، مع عبد شيخ يقوم بالخدمة ويتولى قضاء الحاجات ، فرأت زريحة ان تقيم معها وآثرت الاحتجاب داخل المنزل تبكي فيه سيدها المحسن اليها على الظهور بين الناس ، واللوعة تملأ نفسها والحزن على ابي عبد الرحمن ، يفصلها عن العالم كله بما فيه من مظاهر وصور ، حتى دب في جسمها السقم وانشب الضعف مخالبه فيه .. وهي تمعن في البكاء مستسلمة الى لوعتها القاتلة ! ولم تكن نفسها تبتسم لأمل من آمال الحياة ، بلى كان هنالك أمل عذب هو ان ينقل المرقع خبرها الى عبد الرحمن فيأتي الجبل لتراه قبل ان يغمض عينيها الموت ..

ولكن الأيام كانت تمر ، وعبد الرحمن لا يجيء والداء ينهشها بقوة وعنف ويصفع نضارتها بكفيه القاسيتين .

نعم كانت الجارية المخلصة بين يدي الموت .. ولولا ذلك الألم الذي غمر نفسها وضيع عقلها ، لاستطاعت ان تنجو منه .

كان عليها ان تلحق بعبد الرحمن ليعزيها وتعزيه . ثم تلجأ الى الحكة فتضع يده بيد امامة لينسى الفاجعة ، غير ان عقلها الصغير لم يقدر على احتمال الضربة . والقدر القاسي بطاش عباث لا يلين لأحد ، وهذه الجثث التي تراها كل يوم انما هي صرعى قساوته وعبثه .

لقد عرفت المسكينة ان الداء يدفعها الى القبر ، فما راعها الا ان تموت ، وعينها لا ترى عبد الرحمن .. مسكينة .. كانت ساكتة هادئة مستسلمة لا تشكو ولا تقول لخالتها كلمة وانا لنظن ان ذلك السكوت وهذا الاستسلام نوع من انواع الجنون ..

ألم يكن من واجب المجنونة ، أن توصي خالتها ، بما تريد ان تقوله لابن مسلم؟ أليس من واجبها ان تظن ، انه إن لم يأت الجبل اليوم اتى غداً ، ولكنها

نسيت كل هذا ، ولم تشأ ، وهي داخل الجدر ، الا ان تخلو الى حزنها الجاني، الذي لا رجاء بعده ، حتى ان الطرماح بن عدي لم يعلم انها تصارع الموت ، زارها مرتين في خلال الاشهر التي مرت وهي في الجبـــل ، وكان ينصح لها بان تكف عن البكاء ، على انه لم يحس بذلك الموت الذي كان يمشي اليهـــا بخطى واسعة ويفتح لها ذراعيه مكشراً عن انيابه ..

أجل ، كان يفكر في مقتل الحسين ومقتل مسلم ، وتشتعل نار الحقـــد في صدره كلما استعرض جريمة كربلاء ، ولكنه كان ينسى هذه الجارية التي خسرت مولاها ، واذا ذكرها فكما يذكر المرء امراً لا شأن له ، حملت نساء الحسين الى الكوفة ، ثم سيرهن ابن زياد الى الشام ، وارسلهن يزيد بن معاوية بعد ذلك الى المدينة ، فطاب للطرماح ان يلحق بهن اليها ليثبت وجوده عند القوم كما يفعل سواه ، وعول على السفر بعد شهرين ، فلما انقضى الشهران وهمّ بالذهاب بلغه ان زريحة أسلمت الروح ، ثم أقبل عبد المرأة العجوز ، يحمل اليه النعي ، فخرج مع فريق من قومه يشيعون الجثة ثم مكث بالجبل بعد ذلك يوماً واحد وسار إلى الحجاز ، ولكنه لم يصل اليه فقد فاجأه مرض وهو بذات عرق فآوى إلى فراشه يحيط به ثلاثة من أصهاره .

وطال زمان مرضه، وأهل بيته يظنون انه في المدينة عند آل الحسين بن علي.

٢٢

دخل وفد المدينة على أمير المؤمنين، وعنده وجوه بني أمية ورجال البلاط ، وعبدالله بن حنظلة، رئيس الوفد ، وهو سيد قومه ، ومن فضلاء الناس واشراف الحجاز أصحاب الرأي . ورجال الوفد بضعة وعشرون رجلاً، بينهم ثمانية من بنيه .

ويزيد لا يعرف عبدالله ، فلما قيل له ان رجال المدينة بالباب ، أذن لهم ، وقال لعمرو بن سعيد ، عامل المدينة السابق ، وكان حاضراً : اذكر اسماءهم عندما يدخلون .

فلما توسطوا القاعة قال عمرو : هذا سيد عشيرته عبدالله بن حنظلة .

فقال يزيد : مرحباً بالشريف العابد .. أدنُ .

وأجلسه بالقرب منه .

ثم قال عمرو : وهذا عبدالله بن ابي عمرو بن حفص .

فقال : أهلاً ببني مخزوم .. اجلس .

حتى ذكر له اسم المنذر بن الزبير ..

فابتسم له ابتسامة الرضى ، ومد اليه يده قائلا : ان أمير المؤمنين يطيب له ان يصافح المنذر ، شقيق عبدالله بن الزبير سيد أهل الحجاز اليوم ..

وتلك نغمة من نغمات معاوية حفظها يزيد ..

ولكن ابتسامته لم تحجب الألم الذي لمع في عينيه ..

ثم ذكرت له الاسماء جميعها ، فقال لعبدالله : ما وراءك ؟

قال : خير يا أمير المؤمنين .

— وأهل الحجاز ؟

— عبيد دولتك المخلصون للخلافة .

فأشار الى عمرو بن سعيد قائلاً : أكان هذا من أصحابك ؟

— كان عاملا صالحاً يحفظ هيبتك ، ويضرب بسيفك ، ويضع احسانك في موضعه .

قال : لو عرف ان يحفظ هيبتنا لما ارتفع في الحجاز صوت .

قال : ما ارتفعت اصواتنا الا بالدعاء لك ...

— اصحيح هذا يا ابن الزبير ؟

— ان امير المؤمنين يعلم من امور الناس اكثر مما نعلم .

قال : نعلم ان اهل الحجاز يريدون ان يبايعوا اخاك ...

– ان اخي لا يهتم الا بالصلاة وهو عائذ بالكعبة .

– اجل ، ونجدة بن عامر يصلي مثله في مساجد اليمامة ، ويدعو قومه الى عبادة الله .. !

قال : ليثق امير المؤمنين بان ابناء الزبير خاضعون له .. ولكن بعض العمال يخرجون الرعية ، عن طاعته بالقساوة والظلم .

قال : نراك تعني الوليد بن عتبة .

– نعم يا مولانا .

– وماذا صنع الوليد ؟.

– اقام بالحجاز يجور على اتباع اخي عبدالله ، ويكيد له ويجفوه ، دون ان يكون لعبدالله ذنب ....

– رأى اخاك يدعو الناس الى العصيان فجفاه .

– كذب الوليد ، ولو اراد اخي ان يفعل ذلك لدعا اخوته الى الامر الذي ذكرت ، قبل ان يدعو الناس .

فقال ابن حنظلة : كلمة يا امير المؤمنين .

قال قل الحق .

– الحق ان الوليد تمادى في جوره .

– وامير المؤمنين تمادى في رحمته ، ألم يسألنا ابن الزبير ان نعزل ابن عتبة فعزلناه ؟

– بلى .

– الم يقل لكم عثمان ابن عمنا ، الذي وليناه امر الحجاز ، اننا اوصيناه بالرفق ، وحفظ حرمة الاشراف من الانصار ومن قريش ، والاعتراف بفضل ابناء الصحابة واهل الصلاح ؟ .

– لم يقل لنا الرجل شيئاً من هذا .

– انه اذن فتى لا عهد له .. لقد أمرناه بكل هذا ونهيناه عن الظلم والجفاء والقساوة ، وبذلنا له المال بدون حساب ، ليعطيه من يشاء ..

قال : كان على عثمان ان يقوم خطيباً في مسجد المدينة ويذكر لاهلهـا فضل امير المؤمنين واحسانه ..

ـ وقد اوصيناه خيراً بابن الزبير ، وكتبنا الى صاحب الشرطة بأن يغض الطرف عن الرجال القائمين حول الكعبة من اتباعه .

قال : لقد غمرتنا بنعمك يا امير المؤمنين أنعم الله عليك .

قال : لم نفعل شيئاً بعد .. اننا اذا اردنا ان نحسن الى النـاس ، مـلأنا ايديهم وثيابهم مالا ...

واراد عندئذ أن يصنع كما كان يصنع ابوه .. يشتري اخلاص الرجال بالمال ، ويضمهم اليه بالدهاء ..

فقال لسرجون : اعط عبدالله بن حنظلة مائة الف درهم .. فكتب الرومي الاسم والمبلغ .

ثم قال : وهؤلاء الفتيان بنوك يا عبدالله ؟ .

ـ نعم وهم ثمانية .

قال : اعط كل واحد منهم عشرة آلاف .

فقال سرجون : كتبت يا مولانا .

ـ واجعل نصيب المنذر بن الزبير مائة الف ، وعبدالله بن ابي عمرو مئـة الف ، وثلاثين الفا لكل رجل من هؤلاء .. واشار الى رجال الوفد .

فقال ابن حنظلة : لقد اعظمت الجوائز يا امير المؤمنين .

ـ انها قليلة على امثالك من المخلصين. .خبرنا الان بما تعلم عن نجدة بن عامر.

فخطر لعبدالله ان يلقي الرعب في قلبه ، فقال : ان ابن عـامر فتى قوي الشكيمة شديد البأس يقتحم الجيش ، ويستهين بالموت في ساحات القتال ..

فابتسم قائلاً : لقد وصفت هذا الثائر ، كما يصف لنـا شيوخ دمشق ، خالد ابن الوليد ، او القعقاع بن عمرو..

قال : اعرف الرجلين يا مولانا فهو مثلهما .

ـ ومن يتبعه من قومه ؟ .

ـ اهل اليمامة جميعهم من الشيخ الى الغلام ...
ـ قالوا لنا انهم لا يجاوزون الالف.
ـ اما انا فأقول انهم خمسة الاف ...
ـ ويستطيع نجدة ان يطعم هؤلاء ويعطيهم ؟.
ـ ان القوم يحفظون مالهم وغلة ارضهم لليوم العصيب .
ـ ونحن نحفظ لذلك اليوم مـا لا يخطر لاحد ... عندنا القواد الابطال ، والرجال الاشداء ، وعندنا السيوف التي لا ترتوي من دماء الاعداء ، فويل لك يا ابن عامر وويل لقومك .. والف ويل لمن يضع يده بيدك ..

ثم قال : انظر الى الشام يا ابن حنظلة .. انها تزحف كلها الى الحجاز ، يوم يشهر فيها سيف عدو ، ويرتفع رأس فوق رأس الخليفة الذي يخاطبك الان .. وان الحجاز يعرف الشام ... وهذا يكفي ..

قال : ليس في العرب من يجهل هذا . وليس فيها من تحدثه النفس بالخروج عن الطاعة .

قال : أمرناك بان تقول الحق فقله ... ان عبدالله بن الزبير ، اللاجيء الى الكعبة .. تحدثه نفسه بان يخلعنا عن العرش ، ونجدة بن عامر ، هذا الصعلوك المجهول النسب ، يعاهد عبدالله على الموت في سبيل خلافته ... أمـا والله لو أمست رمال الحجاز رجالا لجعلنا هؤلاء الرجال في شهر واحـد جثثاً مضرجة بالدماء ...

ورأى عندئذ ان يلين فقال : ما اسأنا الى عبدالله بن الزبير .. كان أمـير المؤمنين معاوية يعطيه ، ونحن نعطيه ، وكان له عنده حرمة وهي باقية ، وكان يستشيره في شؤون قومه ونحن نفعل مثله ، ونظر الى المنـذر كأنه يأمره بان يجاوب .

فقال : ما كنا لنغمط نعمتك وننسى احسانك ..

ـ وما كان أمير المؤمنين لينسى الاوفياء .. احسنوا القول والعمل نحسن القول والعمل ، وكونوا صادقين في الطاعة ، نكن صادقين في كل شيء .

قال : ستری یا مولانا اننا من اصدق اعوانك ...

قال : بارك الله فيكم يا آل الزبير .. لقد كنتم من قبل عونا للاسـلام والمسلمون يعرفون ذلك لكم ولا ينسونه.. وانت يا ابن ابي عمرو ..ما لك لا تتكلم؟

قال : إذا رأى امير المؤمنين ان يسألني عن شيء أجبت بما أعلم .

قال : أليس لك رأي في ما سمعت ؟

ـ رأيي ان لا أخرج من الطاعة ولا أخالف الجماعة .

قال : نعم الرأي رأيك .. ماذا تقول يا عمرو بن سعيد ! أليس هؤلاء الرجال أشراف الحجاز ؟

ـ بلى يا امير المؤمنين .

ـ وهم من أنصار ابن الزبير ؟..

ـ نعم .

ـ وكانوا يسبون أمير المؤمنين ويتآمرون على خلعه ؟

ـ لم أسمع ولم أرَ ..

ـ والوليد بن عتبة ، أكان يسومهم الذل ؟

ـ نعم ، وكنت انا ألين لهم وأحصي عليهم الأنفاس .

قال : كنت ضعيفاً فعزلناك ، ولو علمنا ان القوم ، كما رأينا الآن ، لما خطر لنا أن نولّي سواك .

واستأذن عليه عندئذ وفد مصر ، فأذن له ثم قال : ألا يطيب لك يا ابن حنظلة ان تطوفوا في أسواق دمشق ؟

قال : إذا أمرنا امير المؤمنين بالرحيل رحلنا الليلة ..

ـ ان امير المؤمنين يأمركم بأن تبقوا ، وستشهدون الليلة مجلس أنسه ، في الجانب الآخر من الخضراء ، وأمر غلاماً له بأن يتقدمهم إلى السوق ، ويسير معهم الى حيث يشاؤون على ان يعودوا عند غروب الشمس ، وجعل يحدث اهـل مصر ، وينظر في حاجاتهم حتى جـن الليل فأمرهم بالانصراف وجعل يقول لسرجون : لقـد ارتجفت يدك وانت تكتب العطايا لابن حنظلة ومن معه ،

فكأنك ترى انهم لا يستحقون العطاء .

– نعم يا مولانا انهم لا يستحقون .. .

– ونحن نعلم مثلك ان عطاءنا سيضيع كما اننا نعلم ان ابن الزبير بعث بهم الينا لغاية له .. ولكننا لم نستطع الا ان نحسن اليهم ليحملوا الى بلادهم اخبار هذا الاحسان فيتحدث به الناس .

– ولكن الناس سيتحدثون بغير هذا .

– بماذا ؟

– ألا يشهد القوم الليلة مجلس شرابك ؟

– بلى .

– اذن فرجال الحجاز سينقلون الى اخوانهم اخبار هذا المجلس وينسون المال الكثير الذي اعطيتهم اياه ..

قال : اردنا ان نظهر لهم اننا لا نبالي بما يفعله ابن الزبير ونجدة بن عامر ، وان الاثنين لا يعكران على امير المؤمنين صفو عيشه .

قال : ولا تعدل عن ذلك ؟

– لا ، فقد وعدنا وانتهى الامر .

– ومتى تريد ان تبدأ .

– في هذه الساعة فادع من تعلم من الجواري والمغنين .

وبعد ساعة كان مجلس يزيد يغص باخوانه عشاق الخمر واللهو ، وهو يشرب ولا يرتوي ، وامامه ثلاثة كلاب من كلاب الصيد يداعبها بين الكأس والكأس ، وعبـــد الله بن حنظلة ورفاقه يرون ذلك ولا يشربون ، الا اذا طلب اليهم ان يفعلوا ولج في طلبه ، حتى انقضى الليل ،وسمع القوم عربدة امير المؤمنين وعبثه. وانتظر أهل الحجاز حتى يصحو خليفتهم من سكره فيستأذنوه في الرحيل .. وقد دخل قصره ، ولم يخرج الا عند العصر ، فقالوا له : أننصرف اليوم يا أمير المؤمنين ؟

– تنصرفون غداً فلم يبق لليل غير بضع ساعـات ، فلم يروا الا ان يبيتوا

ليلتهم ، وعند الصباح ودعوه وخرجوا ويزيد يقول لسرجون : أيقابل القوم احساننا بالاساءة ؟

ـ أنا واثق بانهم سيملأون الحجاز اخباراً واقاويل وسيسبون أمير المؤمنين على مسمع من الناس .

قال : يخطر لي ان ابث وراءهم العيون ، فما رأيك ؟

ـ انه رأي لا بأس به ، فافعل الآن .

فدعا غلامين من غلمانه وقال لهما : اخرجا في اثر هؤلاء الحجازيــين الذين رحلوا الساعة والحقا بهم الى أي موضع ساروا اليه ، وانقلا الينــا ما يتحدثون به ، فغادر الغلامان دمشق ، كأنهما حجازيان راجعان الى بلدهما ، وكانا ينزلان حيث ينزل القوم ، ويظهران لهم انهما رفيقا سفر .. وكان المنذر بن الزبير ، من اصدقاء زياد ابن أبيه ، وعبيد الله بن زياد يعرف ذلك ، وكثيراً ما كان يتحدث الناس بصداقة الاثنين .

فقال المنذر لابن حنظلة : اني سائر الى الكوفة .

ـ لتزور ابن زياد ؟

ـ نعم ، فأنا لم أنس أباه ، ويطيب لي ان يمر الشهر والشهران وانا في قصره ، وبين أضيافه .

ـ اذن ستمكث بالكوفة شهرين .

ـ وأربعة أشهر إذا قدرت .

فقال أحد الغلامين : وانا ذاهب إلى الكوفة فان لي فيها أهلا .

وقال الآخر : أما انا فذاهب الى المدينة .

وهكذا استطاع الاثنان ان يكونا رقيبين دون ان يشعر بهما رجال الوفد ، ودون ان تدل عليهما المظاهر .

وعرج المنذر على الكوفة ، وسار الآخرون إلى الحجاز ، فلما انتهوا إلى المدينة ، أقبل رسل عبدالله بن الزبير ، وجاءت وفود الناس تصغي الى مــــا يقولون . وبين هؤلاء الناس بعض رجال عثمان ، عامل يزيد .

وجعل عبدالله بن أبي عمرو يقول : أما الشام فجنة بلاد العرب ، فيهـــا الدور والقصور ، والانهار والأثمار ، والبيضاء والسوداء ، والحرائر والاماء .. وفيها الخضراء قصر معاوية ، يغسل قدميه بالماء ، ويرفع رأسه الى السحاب ..

فقال احدهم : ويزيد بن معاوية ؟

قال : وأما يزيد فرجل لا يبالي إلا بلذته ولا ينظر إلا الى دنياه .

قال : يجيء تجار الحجاز من الشام فيقولون : ان صاحب الخضراء يجالس المغنين ..

ـ بل هو يقضي لياليه كلها بين القيان يعزفن له ويضربن بالطنابير . وهو يداعب كلابه ويشرب الخمر مع اللصوص ورجال السوء ..

قال : انه كلام ينقله خصوم يزيد من أهل الشام .

ـ بل هي حقيقة لمسناها بالأيدي .

ـ وكيف ذلك ؟

ـ دعانا إلى مجلس شرابه فقضينا الليل فيه .

فارتفعت أصوات الناس :

امير المؤمنين يشرب الخمر ويجالس اللصوص ..

فقال ابن ابي عمرو : نعم ويشهد الله .

ـ وماذا تصنعون ؟

ـ نشهد أهل المدينة جميعهم انا قد خلعناه .

وقام عبدالله بن حنظلة فقال : جئتكم من عند رجل لو لم أجد إلا بني هؤلاء لجاهدته بهم . أجل ، لقد أعطاني وأكرمني ، ولكني لم أقبل عطاءه إلا لأتقوى به ، وانا أشهدكم الآن اني قد خلعته ..

فقالوا جميعهم : لقد خلعناه ، ونحن نبايعك على خلعه ، ونوليك علينا .

فبلغ عثمان ما فعلوه ، وأقبل اليه غلام معاوية فقال : اكتب الى أمير المؤمنين ما تشاء وانا أحمل كتابك .

فكتب عثمان الى سيده يذكر له كل شيء ، وقد جاء في كتابه :

إذا رأيت يا أمير المؤمنين ان يكون لك في الحجاز شأن فاضرب القوم ضربة قاضية ، وليكن دمهم ودم أبنائهم ثمناً لخروجهم عليك ، ولا ترحم .. انهم جميعهم يسبونك ويعيبون أباك ..

وسار الغلام بالكتاب حتى مثل بين يدي يزيد ، فقال له :

يقول عثمان في كتابه ، ان القوم يسبون أمير المؤمنين وقد خلعوه ، فما تقول انت ؟.. قل ولا تخف .

قال : ما من شك فيما كتبه إليك .

ـ وسمعت انت كل هذا ؟

ـ نعم ، فقد كان ابن ابي عمرو يقول :

يزيد بن معاوية رجل يشرب الخمر وليس له دين ، وابن حنظلة يقول : لو لم اجد غير بني هؤلاء لجاهدته بهم وقد خلعك الاثنان ، وبايع اهل المدينة ابن حنظلة على خلعك ..

فغضب قائلاً: لعنهم الله ،لقد بذلنا لهم مالنا ليحاربونا به..وماذا قال المنذر؟

ـ ان المنذر يا امير المؤمنين مقيم بالكوفة .

ـ عند عبيد الله .

ـ نعم فالمنذر صديق ابيه .

فقال لسرجون : اكتب الى ابن زياد :

اذا اتاك كتابنا فاجعل المنذر بن الزبير في السجن حتى يأتيك امر آخر .

ففعل الرومي ما أمره به وهو يبتسم .

فقال يزيد : أتضحك ايها اللعين وقد خلعنا الناس ..

قال : لا ابتسم لهذا الخلع فهم أعجز عن ان يبلغوا غايتهم منه .. ولكني ابتسم عاتباً .

ـ لماذا ؟

ـ لأني ذكرت لك ان القوم سيسبونك فهزأت بي ..

قال : لا بأس ، فقد خيل الينا ان عطاءنا سيدفعهم الى الثنــاء والشكر .. اعطِ الغلام الكتاب وليذهب الآن .

ثم قال : ادعُ رجال البلاط وأهل الرأي .

فلما اقبلوا قال : هذا كتاب عثمان بن محمد يقول فيه ان اهل المدينة خلعوا امير المؤمنين وبايعوا عبد الله بن حنظلة على هذا الخلع ، فما رأيكم ؟

قالوا : وماذا يرى عثمان ؟

ـ يرى ان تغير خيل امير المؤمنين ، على الحجاز وتضرب القوم .

ـ ونحن نوافقه في رأيه فافعل ذلك ولا تتردد فيه .

فقال سرجون : لا تنسَ يا مولانا ان الجيش الذي تبعث به إلى قتال عدوك سيغزو الكعبة ، وهذا حرام .

قال : ذلك شأن امير المؤمنين لا شأنك انت .. قولوا أيها الرجال .. أي قائد تختاره لهذه الغاية ؟

فسكتوا ، فقال : أيذهب أحدكم ؟

فظلوا ساكتين . فقال : نرى ضعفاً وجبناً ، فانتم لا تجسرون على قتال ابن الزبير .

وأطرق ملياً يفكر في الأمر ، ثم رفع رأسه قائلا : ليس لهذا الامر غير واحد من رجلين ، اما عبيد الله بن زياد أمير الكوفة ، واما مسلم بن عقبة ، وقــد ذكرنا الآن ان امير المؤمنين معاوية كان يقول لنا كلما خلونا بـــه : ان لك من أهل المدينة يوماً فان فعلوا فارمهم بمسلم بن عقبة فهو رجل رأي ، ورجل حرب .

فقال سرجون : ان مسلماً شيخ ، وهو مريض كما تعلم .

قال : خير لنا ان يكون غازي الحجاز شيخاً خاض الميادين وخبر الزمان .. واما مرضه فلا يمنعه من الجهاد في سبيل الخلافة .

قال : لا ترسل مسلماً إلا بعد ان يأتيك جواب ابن زياد .

ـ سنفعل ذلك فاكتب اليه .

قال : وتبعث بالكتاب مع غـــلامك الذي أمرته بالذهاب الى الكوفة منذ ساعة ؟

— قد يكون الغلام الآن خارج دمشق .

— وقد يكون باقياً فيها .

قال أطلبه ، وكان ذلك الغلام يهم بالرحيل ، فلما دعاه أمير المؤمنين رجع فأخذ الكتاب الآخر ومشى يريد الكوفة وهو يقول في نفسه : الحمـد لله : إن أمير المؤمنين لم يجد غلاماً غيري يرسله في المهات ، وكان المنذر بن الزبير في قصر الكوفة وقد طابت له الاقامة به وابن زياد لا يأذن له في الانصراف ، فبينا ابن زياد يمشي يوماً على سطح القصر ، أقبل حاجبه يقول له : بالباب رسول أمـــير المؤمنين .

قال : خير ان شاء الله ، ونزل فقرأ الكتابين فأمر من عنـــده بالخروج من المجلس ثم قال للمنذر : اتاني كتاب يزيد ، يأمرني فيه بأن أقبض عليك وأجعلك في السجن ريثما يجيء منه أمر آخر ، فاصفر وجهه قائلاً : وأي ذنب جنيت ؟

— لا أعلم ، وهذا كتابه فخذه واقرأ .

قال : لقد صدقت فافعل ما تشاء .

قال : انك صديق أبي وضيفي فأنا لا أخونك .

— وما تصنع ؟

— اذا اجتمع الناس عندي فقم واستأذن في الانصراف .

— وبعد ذلك .

— أقول لك عندئذ : بل تبقى ولك الكرامة ، فتقول : اني لا أجد بدأ من الرحيل في هذا اليوم .

— ثم تأذن لي ؟

— أجل فتلحق باهلك دون أن تقف ، وأكتب الى الخليفـة انك تركت الكوفة قبل أن يأتيني كتابه ، فلما اجتمع الناس فعل المنذر ما أشار عليه بـه فأذن له في الرحيل فغادر الكوفة على الأثر ، واقبل على المدينة يحرض الناس على

يزيد ، وكان يقول : لقد أجازني بمئة الف، وهذا لا يمنعني من أن أخبركم خبره.. والله انه ليشرب الخمر ، والله انه ليسكر حتى يدع الصلاة . وجعل يعيبه بمثل ما عابه به اصحابه .

اما ابن زياد ، فقد نظر بعد خروج المنذر من الكوفة ، في كتاب أمير المؤمنين الآخر الذي ينتدبه فيه الى قتال أهل الحجاز الخارجين عن طاعته فشاور في ذلك رجال قصره والمقربين اليه ، فأشار عليه بعضهم ان يفعل ، ونهاه البعض الآخر عن ذلك الغزو الذي لا يرضى الله به ،وهو لم يكن راغباً فيالقتال وكان يقول لمن يثق به : والله لا جمعتهما ليزيد الفاسق .. قتل الحسين ابن رسول الله ، وغزو الكعبة لا لا اني لا أفعل هذا ولو قتلت ، ثم بعث الى يزيد يعتذر ويقول :

اذا رأى أمير المؤمنين ان يندب غيري لهذه الغزوة وأنا لست قادراً عليها ولا قوة لي .

٢٣

لم يكن لعلي بن الحسين وأهل بيته ، رأي فيما يصنعه عبدالله بن الزبير ، وعبدالله بن حنظلة في مكة والمدينة .

أجل كانوا يريدون ان يسقط ذلك البناء الشامخ الذي بناه معاوية لبنيه ، ولكنهم لا يجسرون ، وهم الضعفاء ، على الظهور بمظهر العصاة المتمردين .

اراد الحسين ، وهو سيد الناس ، ان يستولي على حقه ، فتخلى عنه أهل العراق ، فقتل ، فمن أين لعلي ، وهو الفتى العاجز ان يستعيد هذا الحق ..

وهل يطيق ابن الحسين ، حفيد النبي العظيم ، ان يسير في ثورة الحجاز ، تحت لواء عبدالله بن حنظلة او عبدالله بن الزبير ؟ وهو ابن فاطمة ، وسليل

بيت النبوة ؟ !

وأي رجل من رجال الثورة ، الذين خلعوا ابن معـاوية يستطيع ان يقول للناس : إن النصر لي ؟ ان احلامهم ستضمحل غداً ، كما اضمحلت أحلام الحسين ، وسيحصدهم السيف ، كما حصد الفئة الصالحة التي دافعت عـن حفيد رسول الله ، ذلك ما كان يراه علي ، ويفكر فيه ، وقد وافقه في رأيه ، عبد الرحمن بن مسلم ، الذي كان يهم بترك الحجاز ، قبل ان تشتعل النار ، اقام بالحجاز زمناً ليس بالقصير ، وامامة بعيدة عنه .. وهو لا يعرف شيئاً عن جارية ابيـه .. وحياته .. ان حياته ، بين شرفه وغرامه ، خير منها الموت .. !

وماذا يصنع هذا العاشق المنكود الحظ ؟ انه يترك الحجـاز ، ويسير الى ربوع بني طيء يسألهم عن زريحة .. لقد ذكر اخيراً ان زريحة طائية ، وليس هنالك ما يمنعها من الرجوع الى الجبل الذي خرجت منه .

وقد يعلم اشراف بني طيء ، من أمر مسلم بن عوسجة ، ما لا يعلمه أهـل الكوفة واهل الحجاز ، وكانت هذه الفكرة قد ملأت نفسه واحساسه ، فقال لعلي : لقد عولت على ترك الحجاز يا مولاي .

فابتسم الفتى قائلاً له : لا يطيب لك العيش الا في العراق ..

قال : لا يخطر لي يا مولاي ان اسير الى الكوفة ، ولكني اريـد بني طيء فزريحة منهم وقد تكون بينهم .

فاراد ان يمازحه فقال : هذا جو المدينة قد اكفهر ، وقد تكون خائفاً ..

قال : فتنة ليس لي فيها يد كما تعلم فأنا لا أخافها ..

– ولكن النار ستندلع ألسنتها فتحرق كل شيء .

– ما ابالي اذا احترقت المدينة وسلم مولاي .

– اما انا فكما ترى ، لا ابارك ولا العن .

– وأي رأي لك في هذا ؟

– اعتقد ان جيوش يزيد ستفاجيء الحجاز ، وتضع السيف في رقاب أهله ، والويل لأهل المدينة من ذلك اليوم .

قال : هذا عبدالله بن الزبير لا يفارق الكعبة .

– وابن حنظلة لا يفارق المدينة .

– بل يتركها يوم يجيء جيش يزيد ويحتمي بالبيت ..

– ومن يعلم ، فقد ينتهك هذا الجيش حرمة الكعبة ، في سبيل ابن معاوية

قال : ذلك امر لا يرضاه العرب .

– يكفي ان يرضى به يزيد ، وان يكون السيف رسوله الى اهل الفتنة ..

قال : لو سألك ابن حنظلة غداً ان تخلع الخليفة ، فماذا تصنع ؟

– ان عبد الله لا يسألني ذلك.

– واذا فعل ؟

– اقول له : دعني فلا رأي لي .

– ولكنه يخرج من دارك ليقول للنـــاس : لقد بايعني علي بن الحسين على خلع يزيد ..

واخرج أنا عندئذ فأقول: كذب الرجل ، فأنا لم أبايع احداً ولم اخلع احداً.

قال : أخشى ان يسعى بك عثمان بن محمد عامل يزيد .

– وكيف ذلك ؟

– يرسل الى الشام من يقول ليزيد : ان علياً قد خلعك .

– أيفعلها اللعين ؟

– أجل يفعلها باغراء بعض الخونة الذين حوله ..

قال : لئن فعلها لاخلعن ذرية معاوية ..

– أما أنا فأرى غير ذلك يا مولاي .

– ماذا ؟

– ألم يوص يزيد عامله بأن يرعاك ويعرف حقك ؟

– بلى .

– اذن فالحكمة تقضي عليك بان تكتب اليه اليوم .

قال : ليس لي حاجة اذكرها له .

قال : خبره بأمر الفتنة .

قال : ذلك ما يصنعه النام الواشي .. وان عثمان كتب اليه وخبره كل شيء.

ـ اذن فاذكر له انك لا تبـــالي بما يفعله ابن الزبير وابن حنظلة ، وانك لست من اصحابها .

ـ أما هذا فنعم ، وسنكتب الليلة .

واطرق ملياً ثم قال : في أي يوم تترك المدينة ؟

ـ يوم تأذن لي .

ـ وتعود اليها ؟

ـ إذا خانني الحظ ، عدت اليك وتركت العراق إلى الأبد .

ـ وإذا استقام لك الأمر ؟

ـ أسير إلى الكوفة لأسأل ابن الحجاج ان يغفر لي . ثم أضع يدي بيـــد أمامة قائلا لها : اني على العهد ..

ـ وتعرف أحداً من رجال طيء !

ـ أعرف الطرماح بن عدي الذي كان من أتباع أبيك .

قال : لقد كان الرجل من أحب الناس الى الحسين ، وكنت أظن انه سيأتي المدينة بعد رجوعنا من الشام .

قال : ألا تذكر يا مولاي انه وعد أباك ، يوم لقيه في عذيب الهجانات بأن يعود اليه ليكون عوناً له على أهل الكوفة ؟

ـ أذكر ذلك ، ولكنه وعد ولم يفعل .. فإذا لقيته فقل له أن علياً يريد ان يراك ..

قال : أتأمرني بالسفر بعد يومين ؟

ـ تسافر بعد خمسة أيام ..

ـ وما هي الغاية من ذلك ؟

ـ أحب ان أتبين أمر هذه الفتنة ، قبل سفرك .،

ـ إذن فأنا باق ريثما تأذن لي .

ـ ولكن لا تنسَ ان تكتب الي وانت في طيء .
ـ سأفعل يا مولاي .
فنهض علي قائلاً: سأكتب الآن كتاباً إلى يزيد ، يعلم منه اني اعتزلت الناس .
ـ وأنا سأطوف في أحياء المدينة فقد أرى أحداً من أهل الكوفة .

وخرج عبد الرحمن ، والهم يملأ نفسه ، وهو لا يعلم ماذا يصنع .. وكان ذلك عند العصر ، وأهل المدينة ، في المساجد والمنازل ، يتحدثون بأمر الخلع ، ويدعون لعبدالله بن حنظلة ، الذي بايعوه ، وابن مسلم ، يرى ويسمع ، ولكنه لا يقول كلمة حتى مل الطواف ، فرجع الى المنزل ، وهو يفكر في الطرماح ابن عدي.

٢٤

عندما أقبل ابن الحجاج، وابن الحصين المرادي، الى الجانب الشرقي من جبل أجا ، أبصرا رجلاً كهلا ، يأمر غلمانه بأن يدفعوا قطعة من النوق، الى فناء دار له ، قائمة على القمة .. وكان ذلك بعد غروب الشمس .

فقال له ابن الحصين : يا أخا طيء .. انا غريبان كما ترى ، فهل تأذن لنا في النزول الى الصباح ؟

قال : الدار دار الغرباء .. ووالله لو مكثتما الدهر كله لما خطر لاحد أن يسألكما عن يوم الرحيل ... انزلا .. وأومأ الى غلمانه بأن يعدوا لهما احدى القاعات .

وبعد ساعة أمر بالطعام فأحضر ، وجعل يأكل معهما وهو لا يسألهما عن شيء حتى فرغوا ، فقال : قدمتما من العراق !

فقال المرادي : نعم .

– من أي بلد ؟

– من الكوفة .

– ومن تطلبان من طيء ؟

– نسأل عن جارية كانت لرجل من بني أسد.

– وتعرفان اسمها ؟

– أجل فهي تدعى زريحة .

فسكت قليلا ثم قال : أعرف جارية تدعى زريحة كانت لمسلم بن عوسجة ..

فاشرق جبينه قائلا : انها الجارية التي نريد ، فأين هي ؟

– في مكان لا تصل اليه الأيدي . انها في القبر ...

فارتجفت شفتاه وجعل يقول : ماتت زريحة .. ان مثلها لا يموت اليوم .

– ومع ذلك فقد رأيت جثتها بعيني وشيعتها الى حفرتها مع المشيعين .

– ومتى كان هذا ؟

– منذ زمن .

فسكت الرجلان وقد استولت الدهشة عليهما ..

ثم قال عبد الرحمن : أتعرف قصة الجارية ؟

– أجل كانت لمسلم ، فلما قتل مولاها الحسين ، آثرت الرجوع الى طيء ، على الاقامة بالكوفة ، وبقيت في هذا الجبل حتى ماتت كما قلت .

– ولها في الجبل انسباء ؟

– لها خالة لا يبعد منزلها أكثر من مئة ذراع ، وقد كانت عندها ، ولفظت بين يديها الروح .

– وهل نستطيع أن نراها غداً ؟

– نستطيع ذلك عندما تشاء .

قال : لو أردت انت لرأيناها الليلة .

– خير لك ان تصبر الصباح ، فهي امرأة عاجزة ، وفي خدمتها عبد شيخ لا يقدر على القيام بواجب الأضياف .

ـ ومن هم انسباؤها من الرجال ؟

ـ فريق من أهل الجبل بينهم الطرماح بن عدي .

قال : نرى العجوز غداً ثم نرى الطرماح .

ـ ان الرجل في الحجاز .

فالتفت الى عمرو قائلا : زريحة في القبر ، والطرماح في الحجاز .. انها رحلة غير مباركة فلا حول ولا قوة إلا بالله ..

قال : سنصغي الى ما تقوله المرأة العجوز عند الصباح .

فقال الطائي : يظهر ان لزريحة شأناً تهتم به الرجال ...

فقال عبد الرحمن : ليس لها شأن عندنا الا من ناحية واحدة هي ان نسألها سؤالا ليس غير .

قال : في الأمر سر ..

ـ ليس في سؤالنا اسرار ، وستعلم كل شي عندما يطلع الصبح .

وبات الاثنان يفكران في الأمر حتى بزغ الفجر فسألا الطائي ان يرافقهما الى منزل المرأة .

وبعد ساعة كان الثلاثة عندها ، وعبد الرحمن هو الذي يتولى امر الكلام ، فقال لها : كنا في الكوفة من جيران زريحة يا خالة ، وقد أتينا الجبل لنسألها سؤالا فخاننا الحظ كما ترين .

قالت : أنتما من أسد ؟

ـ أنا مرادي وهذا زبيدي .

ـ اذن كنتما من اصدقاء مسلم ؟

ـ نعم .

ـ مسكين مسلم .. لقد قتل وهو يدافع عن الحسين ولم يشأ ان يترك السيف .. والحسين .. آه رضي الله عن الحسين لقد ذهب وذهب رجاله ... وضاع الأمل ... انه هو نفسه طلب الى مسلم ان يتخلى عنه فلم يفعل .

ـ وأنت تعلمين يا خالة كيف قتل مسلم ؟

ـ قتل كما قتل سواه .

ـ ومن هو قاتله ؟

ـ لا أعلم .

ـ ألم تذكر لك زريحة اسم القاتل ؟

ـ لا ، وانما كانت تندب مولاها وترثيه ، وتعلل النفس .. أجل لقد ذكرت الآن انها كانت تعلل النفس بلقاء ابن سيدها .. عبد الرحمن ..

ـ سمعنا انها كانت تقول لمن حولهـــا ان قاتل مسلم رجل يدعى عمرو ابن الحجاج كان عدواً للحسين .

ـ اما أنا فلم اسمع ان هنالك قاتلاً يدعى بهذا الاسم .

ـ والطرماح بن عدي ..

ـ ماذا تريد منه ؟

ـ أيعلم ذلك ؟

ـ أظن انه يعلم من أمر المرأة ما لا اعلم .

ـ ولكن قيل لنا انه في الحجاز .

ـ نعم في الحجاز وانك لتجده عند اهل الحسين .

قال : أليس عندك يا خالة شيء من اسرار زريحة ؟

ـ لم يكن لها سر غير ذلك الحزن الذي باحت به ، وأنا لا اعلم شيئاً آخر..

ـ وماتت دون ان يراها ابن عدي ؟

فقال الطائي : كان هنا وقد سار بعد موتها الى المدينة .

فقال الفتى لابن الحجاج : لم يبق لنا ما نفعله في أجا فلنذهب .

فقال الرجل :

جئتما لتسألا المرأة عن قاتل مسلم ؟

ـ أجل .

ـ وما هي الغاية من ذلك ؟

ـ لمسلم ولد كان يهم بالزواج قبل مقتل أبيه ..

ـ ثم ماذا ؟
ـ ولكن قيل له ان والد الفتاة التي أراد ان يتخذها زوجة له ، هو القاتل .
ـ وهذا الوالد بريء ؟

فقال عمرو : نعم بريء والله يشهد .. ونهض قائلاً : اعذرينا يا خالة وادعي لنا .

فقام عبد الرحمن والطائي ، وخرج الثلاثة والمرادي يقول : الى المدينة ، وسنرى فيها عبد الرحمن ..

فقال ابو امامة وهو مطرق : الى المدينة وليفعل الله ما يشاء .

٢٥

شفى الله الطرماح بن عدي من مرضه ، فمشى يريد المدينة ، وهو لا يسير في اليوم غير ساعتين ، حتى انتهى اليها ، ومثل بين يدي علي بن الحسين ، يعزيه ويعتذر له ، ومرت ساعة والحديث حديث كآبة وألم .. علي يبكي اباه ومن قتل معه ، وهو يشاركه في البكاء .

وبينا الاثنان يستعرضان الماضي ، ويذكران الاموات ، صحا علي من كآبته ، فقال : لقد ذكرت الآن فتى كوفياً كان يسأل عنك .

ـ من هو يا مولاي ؟
ـ هو عبد الرحمن بن مسلم بن عوسجة .
ـ ابن مسلم في المدينة ؟
ـ كان فيها منذ يومين ، وهو الآن في طريقه الى جبلي طيء .
ـ واي غرض له ؟
ـ يريد ان يسأل عن جارية ابيه .

قال : لقد ماتت هذه الجارية قبل ان اترك أجا .

ـ اذن خاب امل عبد الرحمن .

ـ بماذا يا مولاي ؟

ـ بهذه المرأة فهي وحدها تعرف الرجل الذي قتل مسلما .

قال : اسأل الفتى عن القاتل ؟

ـ نعم وقد قيل له انه عمرو بن الحجاج الزبيدي ..

ـ لا يا مولاي ، ان مسلما قتل بين صفوف الناس ، الذين كان يقودهم عمرو الذي ذكرت ..

ـ ومن قال لك ذلك ؟

ـ زريحة ، التي نتحدث بامرها الآن .

ـ وكان ابن الحجاج بريئاً من دمه ؟

ـ نعم .

قال : لو كان عبد الرحمن هنا لعادت البهجة الى نفسه .. انه يبكي حظه ، نهاره وليله ، ويكاد يموت من قهره .

قال : لا افهم شيئاً مما تقول .

قال : اتعرف ابن الحجاج ؟

ـ أعرفـــه ، كما أعرف جميع رجال العراق ، الذين كانوا انصاراً لأبيك رضي الله عنه ، ثم خانوه .

قال : لهذا الرجل فتاة تدعى أمامة .

فوضع يده على جبينه ثم قال : يخيل الي ان هذا الإسم غير غريب ..أليست أمامة هذه خطيبة عبدالرحمن ؟

ـ بلى ، فهل فهمت الآن ؟

ـ فهمت كل شيء ، ويستطيع الفتى أن يتزوجها عندما يخطر له ، فأبوها لم يلطخ يديه بدم مسلم .

قال : خير ما أصنعه غداً ، ان أرسل رجلا الى بني طيء ، يحمل البشرى الى الفتى .

ـ وأنت واثق بأنه هناك ؟

ـ أجل !

ـ قال : افعل ذلك الليلة .

قال : متى تركت قومك ؟

ـ منذ أيام طويلة يا مولاي .

ـ ولم تصل الى المدينة إلا اليوم ؟

ـ كنت مريضاً بذات عرق .

قال : كان يجب ان ترى في الطريق ، عبدالرحمن .

قال : آثرت السفر في الليل ، والراحة في النهار ..

قال : ذلك هو حظ الفتى .. ان الوفاء يقضي علي بأن أخبره ما جرى . وسأكتب الآن .

وقام فكتب اليه ، ثم دعا غلاماً له ، فقال :أنسيت ضيفنا الأسدي الذي رحل منذ يومين ؟

ـ لا يا مولاي .

ـ انه في بني طيء ، في أحد الجبلين ، فاذا لقيته فاعطه كتابي هذا وارجع معه ، ولا تنسَ ان تتعجل في المسير .. اذهب الساعة ..

فتناول الغلام الكتاب وانصرف .

فقال الطرماح : ماذا حدث في المدينة يا مولاي ؟

ـ حدث ما تراه .. هذا معتصم بالكعبة .. وهذا يبايع الناس على خلع يزيد .. وهذا يلعن عثمان بن محمد عامل المدينة .. والحجاز يتمخض اليوم .

قال : أما العائذ بالكعبة فعبدالله بن الزبير .

ـ نعم .

ـ لقد قضى عبدالله حياته كلها طامعاً بالخلافة .. ومن هو الذي يبايعه الناس على خلع ابن معاوية ؟

ـ عبدالله بن حنظلة .

– وأنت ؟

– أما انا فغريب الدار لا أبالي بما يفعلون ..

قال : لا تنسَ انك ابن الحسين الذي تخلى الناس عنه عند الشدة ، ثم ما لبثوا حتى حاربوه ..

قال : ما نسيت شيئاً .

– وكيف عثمان ؟

– فتى كثير الغرور ليس له رأي . وأنا أظن ان الناس سيطردونه كما طرد أهل الكوفة ابن اخت معاوية من قبل .

– وماذا لقيت من يزيد ؟

– لقيت منه ما أحب والناس يقولون ان ذلك دهاء منه .

– وذلك العائذ بالكعبة ، الذي يشعل النار من وراء الستار ؟

– ما رأيت له وجهاً منذ رجوعي إلى الحجاز .. ولكنه أرسل اخوته يعزونني ويسألونني عن أمري .

قال : كان أبوك في الحجاز ، قذى في عيني ابن الزبير ، وقد قيل لي ، في ذلك الزمن ، ان أحب الأشياء اليه ، أن يرحل أبوك عنه ليخلو له الجو .

– اعرف ذلك ..

– وما هو رأي ابن عباس ؟

– رأيه رأيي ، فهو يكره آل معاوية ولكنه لا يثق بابن الزبير وانصاره من اهل الحجاز .

قال : بلغني ان عبد الله دعاه الى بيعته .

اجل ، دعاه ، فامتنع ، وقد خبرني مروان بن الحكم ان عثمان كتب الى يزيد يذكر له امتناعه ..

– اذن سيشكر يزيد لابن عباس موقفه هذا .

وفيما هما يتحدثان ، اقبل ابن عباس ، فقال علي : ما وراءك يا عم ؟!

فصافح الطرماح ثم قال : اتذكر اني امتنعت عن بيعة ابن الزبير ؟

– ومن لا يذكر ذلك ؟..

قال : لقد ظن يزيد بن معاوية ان امتناعي تمسك مني ببيعته .

قالها وهو يبتسم ، فقال الفتى : ومن نقل إليك الخبر ؟

– كتابه هذا الذي انتهى إليّ امس .

وأخرج من كمه كتاب الخليفة وهو يقول : خذ واقرأ ..

فدفعه علي إلى الطرماح قائلاً : إقرأ يا أبا سعيد .

فقرأ : « أما بعد فقد بلغني ان الملحد ابن الزبير دعاك إلى بيعته ، وانك اعتصمت ببيعتنا وفاء منك ، فجزاك الله من ذي رحم ، خير ما يجزي المواصلين لأرحامهم ، الموفين بعهودهم ، وإن أنسَ فلست بناس برّك وتعجيل صلتك بالذي انت له أهل ، فانظر من طلع عليك من الآفاق ، ممن سحرهم ابن الزبير بلسانه ، فاعلمهم بحاله ، فانهم منك أسمع الناس ولك أطوع . »

فلما فرغ الطرماح من قراءته ، قهقه ابن عباس ثم قال : بقي ان تنظر يا ابن أخي في أمر الجواب .

قال : خير لك أن لا تجاوب .

– ولكني كتبت ما كتبت ولست براجع .. اقرأ يا أبا سعيد .

ودفع إليه الجواب الذي أعده ليزيد .

وهذا ما جاء فيه :

« أما بعد فقد أتاني كتابك ، فاما تركي بيعة ابن الزبير فوالله ما أرجو بذلك برك وحمدك ، ولكن الله بالذي أنوي عليم ، وزعمت أنك لست بناس بري ، فاحبس أيها الرجل برك عني فاني حابس بري عنك.. وسألت أن أحبب الناس اليك وأعلمهم بحال ابن الزبير فلا والله اني لا أفعل ، ولست بناس انك قد قتلت حسيناً وفتيان عبدالمطلب مصابيح الهدى ونجوم الأعلام ، غادرتهم خيلك بامرك في صعيد واحد ، مزملين بالدماء ، مسلوبين بالعراء ، مقتولين بالظماء ، تسفي عليهم الرياح حتى أتاح الله بقوم لم يشركوا في دمائهم كفنوهم

وجعلوهم تحت التراب .. وان أنس لا أنس اطرادك حسيناً من حرم رسول الله صلى الله عليه وسلم الى حرم الله ، وتسييرك الخيول إليه ، فما زلت بذلك حتى أشخصته إلى العراق ، فخرج خائفاً يترقب فنزلت به خيلك عداوة منك لله ولرسوله وأهل بيته الذين أذهب الله عنهم الرجس وطهرهم تطهيراً ، فطلب اليكم الموادعة وسألكم الرجعة فاغتنمتم قلة أنصاره وتعاونتم عليه كأنكم قتلتم أهل بيت من الترك والكفر . ووالله لا شيء أعجب عندي من طلبك ودي وقد قتلت ولد أبي ، وسيفك يقطر من دمي وانت أحد ثاري ، ولا يعجبك ان ظفرت بنا اليوم فلنظفرن بك يوماً والسلام .. »

فقال علي : هذا كثير يا عم .

– بل هو قليل على رجل سفك دماءنا بيد ، ثم مد يده الأخرى يمسح بها هذه الدماء .

– ومتى تبعث به اليه ؟

– صباح غد ان شاء الله .

– ورسولك ؟

– سأختار رجلاً يصلح لهذا ، واني افكر في ارسال عبدي شداد ، المقطوع اللسان .

– هذا هو الرأي ولكن احذر فيزيد لا يصبر على أذى .

– انه اضعف من ان يفعل شيئاً وانا في الحجاز .

– ومع ذلك فالحذر لا بد منه .

– سترى ان صاحبنا أجبن مما تظن وسيدفع كتابي هذا الى سرجون ، ليخفيه عن عيون رجال الخضراء .

ثم التفت الى الطرماح قائلاً : وانت يا ابا سعيد ، ما رأيك ؟

– سيتميز يزيد غيظاً ولكنه سيخفي الكتاب كما قلت .

– وهذه الفتنة التي لمستها بيديك ، في الحجاز ؟

– إما الفتنة فسيخمد ابن معاوية نارها ، اذا استطاع .

– اذن تظن انه سيستعين بالسيف ؟

– نعم .

– ويسير الى الحجاز جيش الشام ؟

– نعم .

– وهل نسيت ان ابن الزبير لا يفارق الكعبة، وان ابن حنظلة ، سيحتمي بها مثله ، اذا عجز عن الدفاع ؟

– وهل نسيت انت ان القضية قضيـــة خلافة ، وان العرش في نظر آل معاوية ، قبل كل شيء ؟

– ولكنهم لا يجسرون على انتهاك حرمة البيت .

– بل يجسرون ، من اجل الملك ، على اكثر من هذا .

قال : اذا فعلوا ذلك ثارت العرب .

فابتسم قائلاً : كانت العرب تثور قبل هذا الزمان.. من كان يظن يا مولاي ان رجلاً مثل عبيد الله بن زياد ، يوجه ، بأمر الخليفة ، الى الحسين ابن رسول الله ، رجالاً يقتلونه ويقتلون اصحابه واهل بيته . فسكت ابن عباس .

ثم قال الطرماح : ومن كان يظن ان العرب تسكت عند هذا الحد ..

قال : اصبت فقد كثر الفساد في الناس وقل الوفاء .. ومع ذلك فانا واثق بان ابن معاوية لا يهاجم الكعبة .

– اما انا فواثق بانه سيفعل .

فقال لعلي : لقد سمعت منذ ساعة ان اتباع عبد الله بن حنظلة يهمون باخراج عثمان بن محمد من المدينة .

– قلت الان لابي سعيد انهم سيطردونه .

– وهل خبرك أحد بذلك ؟

– لا ، ولكن طلائع الفتنة تدل على هذا .

قال : رأيت اليوم عبد الله بن زيد بن عاصم وهو الذي نقل الي ما يتهامس به القوم .

قال : ان عبدالله بن زيد يماشي ابن حنظلة وقد قيل لي، منذ ايام ، انه بايعه على الخلع .

ــ وما رأيك في محمد بن عمرو الانصاري ؟

ــ هذا ابن حزم ، وهو يبغض بني امية كما تعلم .

قال : متى قدمت يا ابا سعيد ؟

ــ اليوم .

ــ لأي أمر ؟

ــ لم آت المدينة بعد جناية كربلاء .

ــ أكنت خائفاً ؟

فرفع الطائي صوته قائلاً : لمثلي تقول هذا وانا الطرماح ؟ اني والله رجعت من بلدي الى كربلاء لادافع عن الحسين فحال القضاء بيني وبين الدفاع .. ووالله ما عرفت الخوف منذ قلدني ابي السيف الى هذا اليوم .

قال : بارك الله فيك .. انها كلمة طاب لي ان اوجهها اليك لأرى بعدها آثار غضبك وقام فقال: اني ذاهب يا علي فاحذر الفتنة، واغمض عنها عينيك.

قال : لا تخف يا عم فقد علمني الزمان ان احذر كل شيء .

وخرج ابن عباس وهو يقول : من يعلم فقد تصبح المدينة بعد حين ميداناً لخيل يزيد .

٢٦

كان ابن الحصين المرادي ، وابن الحجاج ، على مراحل أربع من المدينة ، وقد نزلا ليلتها ضيفين ، على ناس من ثقيف كانوا هناك وهما يهمان بالرحيل في صباح اليوم الثاني .

فلما كان الصبح ، ودعا القوم وخرجا ، ولكنهما لم يجاوزا الحي، حتى ابصرا فتى على فرس له ، مقبلاً من المدينة ، وقد أرخى عمامته وغمرت الكآبة وجهه فصاح ابن الحصين قائلاً : هذا عبد الرحمن .. اي والله انه هو ..

وكان الفتى قد رآهما ، واهتز مضطرباً على فرسه عندما وقعت عيناه على عيني ابن الحجاج ، واحس انه سيسقط على الارض .. فوثب ابن الحصين عن ظهر دابته وأقبل اليه يقول : لقد التقينا يا عبد الرحمن فالحمد لله .

قال : أهلاً بأخي !

ونزل وهو يرتجف وعيناه لا تنظران الى أبي امامة وكان عمرو قد ترجل ومد اليه يده .. فنظر اليه نظرة لوم فيه شيء من الغضب وقال : أتمد يدك يا ابن الحجاج الى فتى قتلت أباه ؟

قال : قتل الله قاتله فأنا بريء ..

قال : يظهر ان رجال الكوفة، الذين حاربوا الحسين وقتلوه في كربلاء جميعهم ابرياء من دم مسلم .. وحوّل وجهه عنه .

فبانت الدموع في عيني الرجل وتمتم قائلاً : لنرجع الى الحي .

فقال المرادي : أجل الى الحي ، فيجب ان يعلم عبد الرحمن كل شيء .

قال : من قتل ابي ؟

– ستعلم ذلك بعد قليل .

ومشى الثلاثة الى خيمة قريبة جلسوا فيها وابن الحصين يقول : الى اين انت ذاهب يا عبد الرحمن ؟

– الى أجا وسلمى .

– لترى زريحة ؟

– نعم فهي من طيء وقد تكون هناك .

– ولكن لن تجدها في الجبلين .

– واين هي ؟

– لحقت بمولاها مسلم .

فتنهد قائلاً : احمدك اللهم فقد قضيت على آخر امل بقي لي .

وجعل يبكي حتى تفطر قلب ابن الحجاج ولم يلبث حتى شاركه في البكاء ثم قال للمرادي : اسألك ان تسكت فلي كلام اقوله لعبد الرحمن ..

ودنا منه فقال : حدثني يا بني بما تشاء فأنا لم أترك الكوفة الى بني طيء ، والى الحجاز الا من أجلك واجل امامة .

فاجابه وهو لا ينظر اليه : كان عليك ان تفعل من اجلي واجل امامة ، غير ما فعلت .

قال : لقد تخليت عن الحسين وانتهى الامر .

– وقتلت مسلما وانتهى الأمر ، ولكن لم يخطر لك انك ستموت من يد ولده الذي يخاطبك الآن ، وارتجفت يداه ، واحمرت عيناه ..

فنهض قائلاً : قم يا بني .. قم واغمد خنجرك في هذا الصدر . اني والله الذي لا اله الا هو لا ادافع عن نفسي ، ولا ارفع يداً ولا يطرف لي جفن ، ولكنك ستعلم بعد اربعة او خمسة ايام انك قتلت رجلاً بريئاً ، قتل أبوك وهو بعيد عنه. فأحس الفتى ان الحقد يتلاشى من صدره ، وان أبا امامة صادق فيما يقوله له . وقد املت عليه الحكمة ، ان يخرج خنجره من حزامه ويقول : هذا هو الموت يا ابن الحجاج فتهيأ له. وهو يريد ان يختبر ، ليؤمن الايمان كله، ببراءة الزبيدي.

فقال عمرو وهو يبتسم : يا ابن الحصين ، قل لامامة ان دم ابيها البريء ، محا الشك الذي تغلل في صدر عبد الرحمن ، فلتكن زوجة له .. ولتذكر دائماً ، ان اباها اشترى هناءها ، وهناء زوجها بحياته ..

ثم وضع يديه وراء ظهره وقال : أمـا الآن فاضرب يا ابن مسلم . فوقف عبد الرحمن الآخر بين الاثنين وهو يقول : اقسم بالله وانبيائه انه بريء .

– ولكن من هو القاتل ؟

– اصبر فسيقول لك عمرو كل شيء .

وأخذ خنجره منه قائلاً : خبره يا أبا امامة بما تعلم ، وكان عمرو هادئاً ، فقال وهو يمسح الدمع : أتصدق يا بني ما أقول ؟

– لا اعلم .
– وما هي الغاية اذن ، من حديث لا يثمر غير الألم ؟
– لقد احتملت ألمي كل هذا الزمان وانا قادر على احتماله الساعة .
– قال : كان أبوك عند فسطاط الحسين يدافع عنه .
– نعم .
– والناس حول الفسطاط يردون خيل ابن سعد .
– عرفت ذلك .

– فهاجمت الفسطاط من ناحية الفرات ، فما راعني غير سيف أبيك يبري الرقاب ويفرق الرجال وهو يقول : ارجعوا فأنا مسلم بن عوسجة . فوالله لم أخف زماني كله مثلما خفت في تلك الساعة واني لا أخاف الموت كما تعلم ولكني كرهت ان يتصدى لي ابوك فارجع عنه فيعيرني الناس ..

– وبعد ذلك ؟

– همزت فرسي ورجعت الى خيام الجيش فرأيت أبا عدي الزبيدي يحمل الي من الكوفة رسالة خولة ، ثم سمعت الناس يقولون بعد لحظة قتل مسلم . ولم ألبث حتى سمعت صوت زريحة ، وهي تقول : قتلتم مسلماً قتلكم الله ..

فذكر عبدالرحمن عندئذ ، ان زينب أخت الحسين ، وصفت له هجوم ابن الحجاج من ناحية الفرات ، كما يصفه هو الآن ، وقام في ذهنه انه صادق فيما رواه فقال : وماذا صنعت ؟

– تخليت عن القتال في ذلك اليوم ، ثم خبرني بعضهم ان ابن ذي الجوشن يقول لأهل الكوفة : كان عمرو بن الحجاج ، في هذا اليوم ، أجبن الناس .. وقد احتملت ذلك كله ، وكنت أفكر في مسلم ، الذي قذف بنفسه الى اتون النار ، كأنه كان يؤثر الموت في سبيل الحسين على الحياة .

وجعل يقص عليه ما جرى له ، بعد مقتل الحسين ، من الذهاب الى الزارة والطواف في الكوفة سائلاً عن زريحة ، حتى انتهى الى خبر مجيئه ، مع عبدالرحمن ابن الحصين الى أجا يسأل عنها في طيء .. قص عليه هـذا وهو لا يكف

عن البكاء .

وجاء دور المرادي فقال : اما انا فقد وثقت وآمنت بما سمعت ، وآمنت أمامة مثلي ، وهي التي أرادت ان تقلب الأرض كلها لترى زريحة ونستمع من فمها الحكم النهائي .

– ولكنك قلت ان زريحة ماتت .

– أجل ، غير ان الطرماح ابن عدي لم يمت .

– وماذا يعلم الرجل ؟

– يعلم كل شيء ، فقد كانت زريحة تشكو همها إليه ، وهو الذي رافقها من عذيب الهجانات الى أجا .

– وهل سألته عن القاتل ؟

– انه في الحجاز عند أهل الحسين .

– عند أهل الحسين ؟.. ومن قال لك ذلك ؟

– أهل الجبل .

– ومتى ترك بلده ؟

– منذ زمن ليس بالقصير .

فغمرت ثغره ابتسامة الألم وجعل يقول : في المدينة ، عند أهل الحسين ، وانا لا أراه ؟.. انها رواية ليست صحيحة يا عبد الرحمن .

– وكيف ذلك ؟

– كنت في المدينة ضيف علي بن الحسين ؟ وقد مكثت بداره هذه الأيام كلها ولم تقع العين فيها على الطائي الذي ذكرت .

– وأين هو إذن ؟

– هو بين السماء والأرض .. ان يد القدر القاسي تبعد العزاء عن هذا القلب فلا حول ولا قوة إلا بالله .

فقال لابن الحجاج : ماذا ترى ؟

قال : والله لو كان الطرماح في خراسان لحملته على منكبي إلى الكوفة ليقص

علينا ما يعلم . ومع ذلك فأنا أرى ان نسأل عنه أهل الحسين .

فقال عبد الرحمن : لم يدخل دار الحسين وانا فيها ..

– يظهر انه انتهى اليها بعد رحيلك .

– في هذين اليومين ؟

– نعم .

– ألم تقولا انه ترك أجا منذ زمن .

– بلى .

– وفي أي بلد قضى هذا الزمن الذي ذكرتما ؟

– لا أعلم . وأطرق الثلاثة يفكرون في الأمر .

ثم قال عمرو : من الرأي ان تعود معنا الى المدينة ، فانزل انا ضيفاً على ابن عم لي ، وتتولى انت وعبد الرحمن أمر البحث عن الطرماح .

قال : ستعلم غداً ان اهل الحسين لم يروا له وجهاً .

– اذا لم نجده ، رجعنا الى أجا ، ثم نسير الى جميع نواحي العراق حتى نعلم اين هو . فوضع العاشق رأسه بين يديه وجعل يذرف الدموع .

فقال ابن الحصين : أتبكي وقد انتهى كل شيء ؟

– ابكي لخاطر هائل خطر لي .

– ولا تبوح لنا به ؟

– بلى ، خطر لي اني ان لم أرَ الطرماح اليوم رأيته غداً ، ولكن ماذا اصنع ، اذا قال لي هذا الرجل انه لا يعرف قاتل مسلم ؟

– انا واثق بان زريحة خبرته ما سمعت ورأت ؟

– واذا تبين لك غداً انك مخطيء ؟

– انصرف وانا مؤمن بأن عمراً بريء .

– اما انا فانصرف مؤمنا بأن الشك يحجب البراءة عن عيني ، ولا يمحو هذا الشك غير الدماء ...

فعرف عمرو انه يعنيه ، فقال : اذا رأيت ان الطرماح يجهل الامر فاعمد

الى خنجرك فانا راض بالموت .

ـ اذن فانا ارجع الى المدينة .

ـ الان ؟

ـ نعم فقد نفد الصبر .

فقال لابن الحصين : قم يا عبد الرحمن .

فقال ، وهو يضحك : قد تكون المدينة قبراً لك ..

فقال : إذا عجزت عن ان أضمن الهناء لأمامة فالموت خير لي .

قال : اسمع يا ابن مسلم ..

قال : لقد سمعت أذني ، أما قلبي فلم يسمع ..

وقام فركب فرسه ، ولحق به الاثنان ، وقد ساد السكوت .

٢٧

لم يبق ، بين أصحابنا الثلاثة ، وبين المدينة غير مرحلة وبعض الأخرى .

فبينا هم على دوابهم ، يتعجلون في المسير ، أبصروا غلاماً عرف عبد الرحمن ابن مسلم أنه من غلمان علي بن الحسين .

فناداه قائلاً : من أين أقبلت ؟

ـ من المدينة ، وكنت ذاهباً الى طيء لأعطيك هذا .

وناوله الكتاب ، فقرأه ثم قال : الحمد لله ، ان الطرماح عنـــد علي بن الحسين ، وعلي يسألني الرجوع إلى منزله .

فقال الاثنان : الحمد لله .

ثم قال المرادي : اتعلم لماذا سألك علي أن ترجع ؟

ـ لا والله .

– اقسم ان الطرماح حدثه بما يعلمه عن قتل ابيك فلم ير علي الا ان يدعوك.

وجعل قلب ابن الحجاج يضطرب في صدره ، لقد كان يخشى ان يقول ذلك الطائي ، ما قاله المرقع بن ثمامة لعبد الرحمن بن الحصين .

ان المرقع نقل ما سمعه ، دون ان يكون له في ذلك رأي ، وقد تكون الرواية ، التي رددها المرقع ، هي التي سمعها الطرماح ، فينقل الى عبد الرحمن ما سمع ، دون ان يخطر له أن روايته ستقتل بريئاً .

ولكنه تجلد بعد ساعة ، وكان يقول في نفسه : ان الموت خير من ان يشقى العاشقان .

وكان عبد الرحمن بن مسلم يحدث نفسه فيقول : الويل لي اذا قال الطرماح أن ابن الحجاج هو القاتل .

ان الدائرة تدور عندئذ ، على ابن الحجاج وعليّ وعلى امامة في وقت واحد وينتهي كل شيء.وشمل السكوت القوم ، من جديد .. حتى مرت بضع ساعات وهم لا يتكلمون .

فلما انتهوا الى المدينة عرّج ابن الحجاج على منزل ابن عم له،وهو يقول للاثنين: ليس من الرأي ان امثل بين يدي علي بن الحسين، وارجو ان لا تقولا له اني في المدينة . ولم يقل ذلك امام غلام علي .

وسار الفتيان حتى دخلا دار علي والطرماح بين يديه ، والاثنان يعرفان الطرماح ، وعلي يعرف عبد الرحمن المرادي .

فسلما وجلسا ، فقال علي : اردنا ان نكفيك مؤونة السفر الى بلاد طيء ، لأن جارية أبيك قد ماتت وابو سعيد يعرف اسرارها وهي من أهله .

قال : اشكر الله على نعمه ، واشكر لك عنايتك بي .

قال : ليس هنالك عناية وشكر ، وانما هو وفاء منا لك ولابيك رحمه الله. اسأل ابا سعيد عما تشاء .

فقال : ماذا جرى لزريحة يا عم ؟

– صارعت زريحة همها زمناً ثم جاء الموت فلم تستطع الدفاع .

— مسكينة فقد كانت لي اماً .
— بل كانت اعطف عليك من الأم .
— وأين رأيتها انت ، بعد كربلاء ؟
— كنت راجعاً الى كربلاء ، لادافع عن مولاي الحسين ، كما وعــدته ، فلقيتها في الطريق ، وقد انتهى الأمر وخاب الرجاء .
— وهل كانت ذاهبة الى طيء .
— أجل ، وقد رجعت معها ، واقامت في بيت لخالة لها في الجانب الشرقي من أجا ، تصارع همها كما قلت .
قال : فعلت ذلك رحمها الله دون ان تبعث اليّ بكلمة .
— بل اوصت المرقع بن ثمامة بان يقول لك ذلك لتلحق بها بعد حين .
فذكر عندئذ قول ابن الحصين فقال : أجل ولكن المرقع نفي من الكوفة وضاع أثره .
وجعل يدور حول غايته وهو لا يجسر على السؤال .
لقد كان يخشى ان يتهم أبو سعيد ابن الحجاج كما قرأت ، وهناك البلية التي لا يجد لها دواء غير خنجره .. ولكنه رأى أخيراً ان السؤال لا بد منه فقال :
ألم تصف لك زريحة حادث كربلاء ؟
— بلى وصفته لي كأني أراه ، ولم تنسَ شيئاً .
— ومن قتل مولانا الحسين ؟
— سنان بن أنس النخعي باغواء شمر بن ذي الجوشن .
— وذكرت لك الجارية مقتل أبي مسلم بن عوسجة ؟
— ذكرته لي ..
— ووصفت حال قاتله عمرو بن الحجاج ، ساعة القتل ؟
— نعم ، واني أعيد الآن ما سمعت دون ان أزيد حرفاً ..
فلما قال أبو سعيد ، نعم ، خيل الى عبد الرحمن أن ابن الحجاج هو القاتل . فاصفر وجهه ، وارتجفت شفتاه ..

وكان الطرماح يقول : أغارت خيـــل ابن الحجاج على مولانا الحسين ، من ناحية الفرات، فتصدى لها أبوك مسلم وعين جاريته ترعاه حتى غاص بين الصفوف والخيل تنفر من سيفه .. وكانت تظن ان ابن الحجاج سيأمر رجاله بأن يرفعوه على الأسنة .. ولكن الرجل لم يفعل ولم يدن من أبيك .

– وماذا صنع ؟ .. قل يا ابا سعيد ماذا صنع ..

– تراجع بهدوء حتى انتهى الى الخيام ..

– وبعد ذلك ؟

– كثر القوم حول ابيك ، بعد ساعة ، وتخطفته السيوف .

– وابن الحجاج بعيد ؟

– أجل بعيد ولم تكن غير لحظة حتى تفرق النـاس فأقبلت زريحة تحتضن الجثة وتقول : يا ابن عوسجة ..

وسكت كأنه لا يريد ان تهيج عاطفة الفتى ، فتساقطت دموع عبد الرحمن وجعل يقول : استحلفك بتربة مولانا الحسين ان تقص عليّ ما تعلم . وكان علي يبكي مثله .

اما عبد الرحمن المرادي، ذلك الرفيق الوفي، فكان يبتسم ، ولكن الابتسامة لا تظهر على شفتيه ، وقـــد نسي في تلك الساعة الحسين ومسلما ولم يذكر غير براءة ابن الحجاج وغير البهجة التي ستملأ قلب أمامة ، عندما ينقل اليهـــا بشرى الزواج ..

ولولا حرمة بيت الحسين لقال : حسبي ان أمامة ستزف إلى عبد الرحمن ..

ورأى علي ان الطرماح يتردد فقال له: لا تسكت يا أبا سعيد ..

فقال: وعندما بلغ مولانا الحسين ان مسلما صريع، مشى اليه وفيه رمق فقال: « رحمك الله : يا مسلم بن عوسجة ، منهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر » ثم دنا منه حبيب بن مظهر فقال : عزّ عليّ مصرعك ابشر بالجنـة ، ولولا اني أعلم أني لاحق بك لاحببت ان توصيني بما تشاء ، فقـــال مسلم عندئذ : « أوصيك بهذا ان تموت دونه » .

وأومأ نحو مولانا رضي الله عنه ، ثم مات .. وكان اصحاب عمرو ينادون : قتلنا مسلما ، وسمعت زريحة شبث بن ربعي يقول :

ثكلتكم امهاتكم انما تقتلون انفسكم بأيديكم . أتفرحون بقتل رجل مثل مسلم وهو الذي قتل في أذربيجان ، ستة رجال ، قبل ان تنام خيل المسلمين .

فارتفع صوت الفتيين بالبكاء .

فقال ابن الحصين: يكفي هذا يا أبا سعيد فقد علم عبد الرحمن ما أراد ان يعلم.

— أجل يكفي ، واني لا أزيد كلمة على ما قلت . فقال الاسدي : بل تقول كلمة اخرى اذا شئت .

— ما هي ؟

— هي ان تحلف لي انك سمعت من زريحة ما خبرتني به .

قال : اقسم لك اني لم اقل غير ما سمعت .

— اذن لم يبق لي ما اقوله فالشكر لك .

ونهض ابن الحصين عندئذ فقال: أتريد الآن يا عبدالرحمن ان تخرج إلى السوق؟

فعرف الفتى غايته فقال : أخرج ان أردت .

قال : قم قبل أن تغرب الشمس .

فقال علي : الطواف في المدينة اليوم لا يخلو من الخطر .

— لماذا يا مولانا ؟

— لأن القوم بايعوا أحدهم على خلع يزيد ، وسيخلعون عثمان بن محمد في هذين اليومين ، فاذا رأوا عراقياً ظنوه من أنصار الأمويين .

قال : يكفي ان يقول عبدالرحمن انا ابن مسلم .

قال : صدقت ، ولكن ارجعا قبل ان يجنّ الظلام .

فخرجا يريدان ذلك المنزل الذي عرج عليه ابن الحجاج ، فرأياه على بابه ومعه ابن عمه يصف له أحوال الفتنة في المدينة ، ويقص عليه أخبار ابن الزبير . فلما رآهما رقص قلبه من الفرح . ذلك لأنه رأى ابن الحصين يبتسم له ، وكان ابن عمه من وجهاء الناس ، فهش لهما ودعاهما إلى الدخول .

ثم قال عمرو قبل ان يجلسا : البراءة أم الخنجر ؟

فقال ابن مسلم : لقد كنت بريئاً فاغفر لي ..

وتعانق الاثنان والدموع تنوب عن الكلام .

ثم قال المرادي : أنسيت الماضي يا عبد الرحمن ؟

ـ نعم .

ـ وتفكر الآن في الرجوع إلى الكوفة ؟

ـ الشوق الى الكوفة كثير ، ولكن يصعب علي أن أقيم بهـا في ظل عبيدالله بن زياد قاتل أبي .

قال: الأرض أرضك وابن زياد لا يعلم إلى أي بلد يقذف به غداً يزيد بن معاوية.

ـ ومع ذلك فأنا لا أطيق أن أراه في أسواق الكوفة ، يحيط به حرسه ورجال الشرط ..

قال : تغض طرفك عنه عندما تراه ..

ـ لا أقدر ، وقد يسيء إلي أحد المقربين اليه ، فتسوء العاقبة .

فقال عمرو : لا يسيء اليك أحد وأنا في الكوفة .

قال : أكره والله العيش في بلد يعيش هو فيه ، ولو لم تكن هنالك فتاة جار عليها القدر لقتلته واستسلمت إلى يزيد يصنع بي ما يشاء .

ـ وأي بلد تختار ؟

ـ المدينة ، في ظل آل الحسين الاطهار الذين سال دمهم كما سال دمي ، وجفاهم الزمان كما جفاني .

فقال الفتى الآخر : ان المدينة ستحرقها نار الفتنة كما قال علي ...

ـ أما الفتنة فلا يد لي فيها ولا رأي ..

قال : ألا تريد أن تتزوج ؟ ـ بلى .

ـ وتنقل أمامة بعد الزواج الى ميدان الحرب ؟

فأطرق ولم يجب .

قال : أيطيب لك أن تجعل أيام زواجك حرباً ؟

قـال : لا ، ولكن الكوفة دار الظالم الذي يستحل دماء الناس .

قال : هو في قصره وأنت بين قومك .

ـ ولكني سأراه واسمع خطبته في المسجد ، وانظر إلى يديه الملطختين بدم البريء فتثور نفسي وأنسى من أنا ..

– وليس لك رأي غير هذا ؟

– لا أجد رأياً كما ترى .

قال: جو المدينة اليوم مكفهر ، فخير لك إذن أن تصبر ريثما يصفو هذا الجو ويبسط الأمن جناحيه .

– ومن ينقل ذلك الى أمامة ؟

– أبوها ، فسيرحل غداً عن المدينة ، ويأتي الكوفة فيقول لابنته : لقد تم لك الامر كما تشائين ، وسيجيء عبد الرحمن بعد شهر او شهرين فينتهي كل شيء.

فقال عمرو : وتبقى انت في المدينة ؟ – نعم .

قال : والله لو نزل ملاك من السماء ، وقال لامامة ان الامر قد انتهى ، لما صدقت كلمة مما يقول ..

– وماذا نصنع ؟

– تعود معي انت الى الكوفة أو يعود عبد الرحمن .

فقال الاسدي : اما انا فلا اترك اليوم عليا .. والفتنة على الابواب .

فقال المرادي : اذن اسير انا فأخبر امامة بما جرى ثم اعود اليك لاكون رفيقاً لك في رجوعك .

قال : عالجت هواي ، وعالجت امامة هواها بالصبر وان الله مع الصابرين .

ولم يكن المسكين واثقاً بالقدر ، بل كان يخافه ويكرهه كما يكره ابن زياد.

وكان ابن عم عمرو في الفناء ، فاقبل عندئذ وهو يقول :

رأيت اتباع ابن حنظلة يسيرون جماعات والسيوف في الايدي .

فقال عمرو : وسمعت ما يقولون ؟

سمعت احدهم يقول : سنرسل عثمان بن محمد الى يزيد ابن عمه غداً أو بعدغد.

قال : هذه هي طلائع القتال وخير لنا أن نتعجل في الرحيل .

فقال عبد الرحمن : أخرجا غداً عند الفجر وإلى اللقاء ...

فاجابه عمرو ضاحكاً : وماذا نقول لامامة ؟

– قل ما تشاء ، على ان تبقى امامة مؤمنة ، باني لها الى الابد . نعم الى الابد..

وخرج وهو يقول في نفسه : اللهم ، لقد ذاب القلب ... فاذا اردت ان اعود الى الكوفة فابعد عنها ذلك الطاغية ابن زياد .

ولم يلبث حتى دخل على علي قائلاً: ان ابن الحصين يرحل غداً أما انا فباق.
– بل ترحل معه لتتزوج من تحب ..
قال : لا تزد يا مولاي ، فقد عولت على البقاء حتى تخمد نار الفتنة ، فاما ان اعيش ، او اموت معك كما مات ابي مع ابيك ...
قال : ان نار الفتنة لا تمتد الى هذه الدار ...
– من يعلم ، فقد تحرقها كما تحرق سواها ، واني باق على كل حال .
فاختنق صوت علي ولم يزد على قوله : بارك الله فيك ... ثم عانقه وبكى الاثنان ...

٢٨

خرج ابن الحجاج وابن الحصين في صباح اليوم الثاني يريدان الكوفة ومر بعد ذلك يومان ، وصدر المدينة يغلي وتتقد فيه النار . فلما كان اليوم الثالث ، اصبح الناس ، وهم يرون انصار عبد الله بن حنظلة ، يطوفون في الاسواق ، ويلعنون الامويين ... ثم رأوهم يمشون الى قصر الامارة ، وعلى رأسهم سيدهم عبدالله فلما انتهوا اليه ، تصدى لهم الحرس بالحراب .
فقال ابن حنظلة : خير لكم يا رجال عثمان ، ان تكسروا حرابكم وتغمدوا السيوف .
قالوا : لا نفعل .
قال : لقد بايعني اهل المدينة على خلع خليفتكم يزيد ، وانا قد خلعته ، وسانتزع اميركم عثمان من قصره ، أحب ام كره ، وأبعث به ذليلاً الى الشام ، فاختاروا الان ... فجعلوا يتشاورون ، ولكن عبدالله ، اقتحم ابواب القصر ،

مع رجاله ، وكان يقول : اذا تصدى لكم حارس او جندي فاقتلوه .

فتراجع الحرس ، ثم تفرقوا ، وهم يرون انهم لا يستطيعون الدفاع عن اميرهم عثمان . ودخل عبدالله ، والقوم وراءه وعثمان يروح ويجيء في رواق القصر وهو لا يعلم ماذا يصنع .. وكان يظن ان القوم دخلوا ليقتلوه .

فلما اقبل عبدالله . قال له : ايطيب لك ان تسفك دمي يا ابن حنظلة ؟

قال : جئت لاحميك ، وانصح لك بان تخرج من القصر الساعة ، دون ان تتردد في ذلك ..

– واذا ابيت ؟

– اذا ابيت رفعوا جثتك على الاسنة ..

قال : استغث ببني امية فيجعلوك ويجعلوا رجالك داخل نطاق من السيوف .

فابتسم قائلا : ان بني امية ، في دار مروان بن الحكم .

– سأدعوهم اليّ .

– ولكنهم داخل النطاق الذي ذكرته الان ...

قال : لا اصدق .

قال : أصبت فانت لا تصدق الا السيف .

والتفت الى رجاله قائلا : اقبضوا على هذا واخرجوه .

قال : دعني آخذ ما احتاج اليه .

– خذ ما شئت مما هو لك ، اما اشياء القصر فهي للمسلمين .

قال : ثيابي ..

– اين هي ؟ .

فهمّ بأن يدخل مخدعه ، فسبقه إليه الناس، وجعلوا يعطونه ثيابه وهو على بابه حتى أخذ ما شاء . فقال عبد الله : اخرج الآن .

– الى أين ؟

– إلى الشام فتقول ليزيد : ارسلوني اليك وقد خلعوك ..

فحاول ان يتكلم ، فحملوه الى الخارج ، وليس في القصر حارس او غلام من

غلمان بني أمية .. وكانوا قد لجأوا جميعهم الى دار مروان .

ثم قالوا له : افعل الآن ما يطيب لك على أن تغادر المدينة ، في هذا اليوم ، قبل غروب الشمس ، والويل لك إن بقيت .

فخرج الامـــير يتعثر بذله ، وانصرف ابن حنظلة الى دار مروان ، فرأى رجاله قد حصروا القوم ، فجعل يقول : يا أهل المدينة ، نحن قوم ما اردنا غير خلع يزيد واخراج عثمان بن محمد ، فلا تسفكوا دماً ، ولا تعتدوا على أحد .

فصاح الناس : هؤلاء بنو امية أنصار يزيد ..

— ولكنهم لم يشهروا سيفاً فاكتفوا بأن تحصروهم في هذه الدار حتى يخلعوا صاحبهم الذي خلعناه .

— واذا ارادوا الخروج من المدينة ؟

— من أراد ذلك فليخرج .

فاجتمع من بني أمية ومواليهم وغلمانهم ألف رجل ، وكتبوا الى يزيد يصفون حالهم له ويستغيثون به. ثم خرج منهم من أراد ويقي الآخرون ، وأهل المدينة يتناوبون على حراسة الدار ، بسلام وهدوء دون أن يغلوا ، ودن أن تهرق الدماء.

حتى مرت الأيام نافرة مسرعة ، والحقد يشتد ، والفتنة تمتد ، وقـد عرف ابن حنظلة ، ان القوم كتبوا الى يزيد ، وان خيل الشام لا تلبث حتى تجيء .. فعمد مع كبار اصحابه ، الى تدبير حربي ، خطر لهم انه يضمن لهم النصر ، في اليوم العصيب . حفروا خندقاً ، وأعدوا حوله عدة الحرب .

وكان الذعر يملأ قلوب بني أمية ، وقد خاف مروان بن الحكم ، أن ترى نساؤه ، في ذلك الحصار ما يكره . فقال لأهل المدينة : اريد أن أكلم عبد الله ابن عمر ، بن الخطاب ، وعلي بن الحسين . فاذنوا له في ذلك .

فأتى ابن عمر فقـال له : يطيب لي أن أجعل نسائي في دارك حتى تتلاشى هذه الفتنة ويعود الأمن الى البلد ، فما تقول ؟

قال : لا استطيع أن أفعل .

قال : ليس في هذا ما يعيبك يا ابن عمر .

– ومع ذلك فلست قادراً على ما تسأل .
– وهل يخاف رجل مثلك ان يجير طائفة من النساء ؟
– لا اجير أحداً على أهل المدينة ولا ادخل فيما دخل فيه هؤلاء .
فانصرف الى دار علي، وبين يديه عبد الرحمن بن مسلم ، والطرماح بن عدي فقال له : أتريد يا ابن الحسين ان تكون لك يد عندي ؟
قال : ماذا تشاء ؟
قال : اسألك ان تجعل نسائي في دارك ريثما يصفو الجو .
فقال دون أن يتردد :
افعل فداري ملجأ لكل عاجز وضعيف .. فشكره وخرج .
فقال ابن مسلم : من هو الرجل ؟
– هو كبير بني امية مروان بن الحكم .
– وتجير يا مولاي نساء الامويين ؟
– أجل فأنا سليل قوم كانوا عوناً للناس ..
فبكى الطرماح قائلاً : أي والله، سليل قوم كانوا عوناً للناس وهدى للمسلمين.
وبعد ساعة بعث مروان بزوجته عائشة بنت عثمان بن عفان وجميع نسائه الى دار علي . فخرج علي بهن وبنسائه الى ينبع ومعه عبد الرحمن بن مسلم .. أما الطرماح فانصرف الى بلاد قومه وهو يرى ان المدينة ستغوص بعد حين في لجة الموت ..

٢٩

أقبل رسول بني أمية الى الشام ، ودخل على يزيد .
ويزيد جالس على كرسي ، وقد وضع قدميه في وعاء فيه ماء ، لنقرس كان

يشكو منه .

فلما قرأ الكتاب تمثل قائلا :

لقد بدلوا الحلم الذي في سجيتي   فبدلت قومي غلظة بليان

ثم قال للرسول : أما يكون بنو أمية ألف رجل ؟

– بلى والله واكثر .

– وما استطاعوا أن يقاتلوا ساعة من النهار ؟

– لا أعلم يا أمير المؤمنين .

قال : يا غلام ادعُ عمراً . وهو عمرو بن سعيد بن العاص .

فلما دخل قال له : كنت عاملنا على المدينة وتعرف القوم ، فخذ واقرأ .

فتناول الكتاب واطلع على ما فيه ثم قال : ماذا يريد مولانا ؟

– نريد أن تسير اليهم في الناس .

فأطرق قليلاً ثم قال : أنت تعلم يا أمير المؤمنين اني كنت قد ضبطت لك أمور البلاد ، أما الآن فإذا صارت دمـــاء قريش تهرق بالصعيد فلا أحب أن أتولى ذلك .

فالتفت الى سرجون وقـــال : عبيد الله بن زياد يعتذر ، وعمرو بن سعيد يعتذر مثله ، وهذا معناه ان الاثنين من الجبناء .

ثم قال : لقد خطر لنا من قبل ان نسير مسلم بن عقبة في الجيش فقلت انه شيخ كبير مريض .. أين هو الآن ؟

– في منزله ..

– ليحضر الساعة

فدعوه فأقبل ، فقال يزيد : كتب الينا بنو أميـــة في المدينة ان عبد الله ابن حنظلة ومن معه من المتمردين ، حصروهم في دار مروان بن الحكم واخرجوا عثمان بن محمد .

قال : انهم اكثر من الف رجل لما أعلم .

– هذا ما يقوله الرسول .

قال : إن الرجال الذين لا يدفعون ، عن كرامتهم يوماً واحداً ليسوا أهلاً لشيء .. انهم الأذلاء يا أمير المؤمنين .

— وماذا ترى ؟

— دعهم حتى يجهدوا أنفسهم في قتال عدوهم ويتبين لك من يقـــاتل على طاعتك ، ومن يستسلم ..

قال : ويحك يا ابن عقبة ، أتدعونا إلى التخلي عـــن قوم لا خير في العيش بعدهم ؟ أخرج بالناس ..

قال : يشهد الله إني لا أتردد عن خوف ، وإن أمير المؤمنين معاوية كان يعلم اني فتى الحرب ، ولكنني أحببت ان تتخلى عن القوم شهراً ، لتجعلهم رجالاً .

— أما نحن فما نحب ذلك فتهيأ للسفر ..

قال : سمعت وأطعت ، وسأدعو الرجال .

قال : وسنعطيهم عطاءهم قبل السفر ، وتحمل المال معك معونة لهم .. أسمعت يا سرجون .. أعطهم وكن كريماً .

ثم قال لمسلم : اجعل جيشك اثني عشر ألفاً وسيعرضهم امير المؤمنين بنفسه .

فخرج مسلم وخرج المنادون يقولون : أيها الناس تجهزوا الى الحجاز وخذوا عطاءكم . فأقبل إثنا عشر الفاً من رجال السيف .

ونزل يزيد يعرضهم وهو متقلد سيفاً وكان يقول :

أبلغ أبا بكر إذا الليل سرى — وهبط القوم على وادي القرى
أجمع سكران من القوم ترى — أم جمع يقظان نفى عنه الكرى

ثم قال : ادنُ يا مسلم .

فدنا منه فقال : أول كلمه اقولها لك انه إذا حدث بك حادث فاستخلف الحصين بن نمير فنحن نثق به .

— سأفعل يا أمير المؤمنين .

— وإذا انتهيت الى المدينة فادع أهلهـا ثلاثاً ، فإن اجابوك فارجع ، وإلا فقاتلهم كما تقاتل أعداء الخلافة .

– ذلك ما افكر فيه .

– وإذا كتب لك النصر ، فأبح المدينة ثلاثة أيام ، فكل ما فيها من مال او دابة او سلاح او طعام فهو للجند ..

– وهل بقي شيء ؟

– بقي الشيء الكثير فاسمع : اكفف عن الناس عندما تنقضي الأيام الثلاثة ، وإذا لقيت علي بن الحسين ، فاكفف عنه واستوص به خيراً فإنه لم يدخل مع الناس وقد أتاني كتاب منه ..

ثم قال : ولا تنس ان تعالج أمر ابن الزبير بما تعلم ، بعد ان يستقيم لك الأمر في المدينة .

ومد اليه يده قائلاً : هذا ما نأمرك به فانصرف.

فقبّل ابن عقبة يد مولاه ومشى الجيش ، وقد تقدمته الرسل ، تحمل اخباره إلى بني أمية ، وكان أهل المدينة قد تهيأوا كما قرأت ، واصحاب عبدالله ابن حنظلة ، الذين بايعوه على خلع يزيد ، لا يرون إلا الحرب ، فقد طاب لهم الموت في سبيل بيعتهم ، وآثروه على العيش في ظل خليفة يشرب الخمر ، ويجالس المغنين .

٣٠

كانت أمامة على رغم إيمانها بأن أباها بريء ، تضطرب في سرها ، كلما قام في الذهن ان زريحة ستضيع .. ومن حقها أن تضطرب ، فليس في العراق كله رجل يصدقه عبد الرحمن وامها وسلمى ، تعللانها بالأمل ، وهما واثقتان بأن عمراً وابن الحصين ، سيحملان اليها بشرى البراءة ، وينتهي الامر . حتى مرت الأيام ، وبدأ الريب يدب في صدور النساء الثلاث ، عندما رأين ان الرجلين لم

يرجما ، وجعلن يسألن الناس عنهما .

وقد انتهى اليهن أن أهل المدينة بايعوا احدهم على خلع يزيد ، وان معظم أهل الحجاز بايعوا ابن الزبير .

وبينا هن على الحال التي قرأت ، أقبل الرجلان ؛ ودخلت احدى الجواري تقول : هذا مولاي وابن الحصين .. فخرجن الى الرواق تخفق قلوبهن .

ثم ما لبثن حتى ابتسمن ابتسامة الفرح ، عندما قرأن البشرى على جبين عبد الرحمن المرادي . .وجعلت خولة تقول:أكاد ألمس بيدي الاثنتين براءة عمرو .

فقال الفتى : كما لمسها عبد الرحمن بن مسلم ، منذ أيام .

فبكت امامة بكاء الفرح ولم تقل كلمة .

ثم دخل القوم وجلسوا ، فقالت خولة : ألقيتما زريحة في بني طيء ؟

— اجل ، لقيناها ولكنها لم تتكلم .

— لماذا ؟

— لأن الاموات لا يتكلمون .

— ولكنك قلت أن عمراً بريء .

— نعم بريء ، ولو لم يكن هنالك رجل طائي يقال له الطرماح بن عدي لما عرفنا شيئاً . وجعل يقص عليها حكاية الطرماح ، فقالت : وبقي عبد الرحمن في الحجاز ؟

— بقي فيه كما ترين وقدمنا نحن .

قالت : يظهر ان القدر لم يكف عن جوره .

قال : الحمد لله ان زمان الجور قد انقضى .

فتنهدت قائلة : لو كان الأمر كما تقول ، لما آثر عبد الرحمن البقاء في المدينة بعد هذا الشقاء الذي رآه .

قال : المدينة في فتنة ، وهو لا يطيب له ، رغم اللوعة التي تغمر نفسه ، أن يتخلى في مثل هذا الزمن عن آل الحسين .

— وهل دخل آل الحسين ، فيما دخل فيه أهل الحجاز ؟

– لا ، فعلي بن الحسين وأهل بيته في أمن ولكن عبد الرحمن ، لا يرى ان يتركه الا بعد أن يصفو الجو .

– ومتى يصفو ؟

– عندما يمد اصبعه جيش الشام فاما ان يظفر ابن الزبير ومن معه واما أن يظفر يزيد .

– ويستطيع آل الحسين ان يتنحوا إلى النهاية .

– أجل الى النهاية ، فقد تعلم علي أن يعتزل الفتن ، وينظر بعين الحذر إلى ما يفعله الناس .

ثم قال : ولكن عبد الرحمن لا تطيب له الاقامة بالكوفة وفيها ابن زياد السفاح قاتل أبيه . .

– وأين يقيم ؟

– يختار الحجاز . .

– وتزف اليه امامة هناك ؟

– بل تزف اليه هنا لأني سأرجع الى المدينة بعد بضعة أيام ، وعندما اعود منها يعود معي عبدالرحمن .

قالت : قدمت اليوم وترجع غداً ؟

– لقد اكرهني ابو امامة على المجيء ،لأنه لم يشأ ان يحمل هو نفسه خبر براءته ، وجعل يصف لهن بهجة الفتى ، عندما لفظ الطرماح حكم البراءة ،ولم ينس ان يصف شوقه الكثير ، إلى الفتاة التي أحب .

وكان يقسم لامامة قائلا :

ليس في العرب كلها عاشق أشد اخلاصاً وأكثر وفاء من ابن مسلم .

وقد ضمها أبوها إلى صدره وجعل يقول : اقسمت اني لا اعود الى الكوفة الا اذا ضمنت لك الهناء وقد فعلت ولم يبق غير القليل من الصبر . . ولم يكن للفتاة أمل وعزاء ، الا هذا الصبر الذي يدعوها اليه .

٣١

كان عبد الملك بن مروان ، بن الحكم من فتيان امية النجباء اصحاب المنزلة والرأي فلما سمع ان يزيد ، سير الجيش الى المدينة ، قال لمن حوله : ليت السماء وقعت على الارض .

وبلغ أهل المدينة خبر الجيش ، فضيقوا النطاق على بني امية اللاجئين الى دار مروان وقالوا لرؤسائهم : والله لا نكف عنكم حتى نستنزلكم ونضرب أعناقكم ، او تعطونا عهد الله وميثاقه ، ان لا تبغونا غائلة ، ولا تدلوا لنا على عورة ، ولا تنصروا علينا عدواً ، انكم ان فعلتم اخرجناكم عنا .. فعاهدوهم على ذلك .

فأخرجوهم من المدينة فحملوا أشياءهم حتى لقوا مسلم بن عقبة ، بوادي القرى ، فقال لهم مسلم : لقد جعل اهل المدينة في كل منهل بينهم وبين الشام زقاً من قطران ليقتلونا عطشاً ولكن الله ارسل الينا غيثه فلم نستق بدلو .

ثم أمر بعمرو بن عثمان بن عفان فاحضر ، فقال له : ما وراءك ؟ خبرني وأشر علي ، فقال : لا أستطيع ..

– وكيف ذلك ؟

قال : اخذت علينا العهود والمواثيق ان لا ندل على عورة ، ولا ننصر على القوم عدواً ؛ فانتهره قائلاً : والله لو لا انك ابن عثمان لضربت عنقك .. اخرج فلا خير فيك .

فخرج الى اصحابه فخبرهم بما سمع .

فقال مروان بن الحكم لابنه عبد الملك: ادخل قبلي فقد يكتفي بما تقوله له.

فدخل عبد الملك فقال مسلم : هات ما عندك .

قال : أرى ان تسير بمن معك ، فاذا انتهيت الى النخيل الذي هو بظاهر

المدينة نزلت ، فاستظل الناس في ظله.. فاذا اصبحت من الغد ، وتركت المدينة عن يسارك ثم درت بها حتى تأتيهم مشرقاً من ناحية ثم تقاتلهم مستعيناً بالله .

– وما هي الغاية من هذا ؟

– الغاية ان تستقبل القوم عند الشروق ، فتجعل الشمس وراء اصحابك فلا تؤذيهم ويصيب اهل المدينة اذاها .

فقال له : لله ابوك أي امرىء ولد .

ثم انصرف عبد الملك ودخل مروان ، فقال له : هات أنت ؟

قال : ألم يدخل عليك عبد الملك ؟

– بلى ، وأي رجل عبد الملك؟ اني لم اكلم رجلا من رجال قريش شبيهاً به .

قال : اذا لقيته فقد لقيتني. وبعد أن سمع مسلم آراء القوم ، أمر الجيش بالمسير ، وكان يصنع في كل مكان ما أشار عليه به عبد الملك .

فلما انتهى إلى الحرة ، أقام من المشرق ثم دعا وجهاءهم وقوادهم فقال لهم على مسمع من الناس :

« يا أهل المدينة ، ان أمير المؤمنين يعلم انكم اصل البلاء كما يعلم اني اكره إراقة الدماء ، وقد أمرني بأن أؤجلكم ثلاثة أيام ، فمن ارعوى وتاب قبلت ذلك منه وانصرفت إلى هذا الملحد الذي يقيم بمكة ، وإن أبيتم كنت قد اعتذرت اليكم » .

فانصرفوا وهم يتشاورون ، وكان معقل بن سنان الاشجعي يقول : إذا استسلمنا إلى ابن عقبة فهذا هو الذل .

وعبد الله بن حنظلة يقول : لقد بايعتموني على خلع يزيد فلا تنكثوا العهد .

ويقول آخر : لم يبق هنالك مجال للرضى بما قاله مسلم . لقد خلعنا يزيد وطردنا عثمان بن محمد فمن الرأي أن نعمد إلى السيف .

وهكذا كان القوم جميعهم طلاب حرب إلا شيخاً واحداً كان يقول : لا تستطيعون يا أهل المدينة أن تقاتلوا اثني عشر الفاً من الرجال .

فقال ابن حنظلة : النصر بيد الله يهبه لمن يشاء .

— ولكن القوم في عدتهم ومالهم ، والمنجنيق الذي يحملون ، أصلب عوداً وأقرب منا إلى النصر ..

قال : فينا أكثر من مئة رجل مثل مسلم .

— وفيهم اثنا عشر الفاً من رجال البأس.

قال : سنحارب ولو قتلنا .

— وأنا اول من يحمل السيف،ولكني واثق بأني ذاهب مع ولدي وبنيقومي إلى الموت .. وسكت الشيخ وهو يبتسم ابتسامة المطمئن الذي لا يخاف .

وانقضت الأيام الثلاثة وقد اجمعوا على القتال فدعاهم مسلم فقال : مـــا تصنعون ، السلم أم الحرب ؟

فاجابه ابن حنظلة قائلا : الحرب .

قال : أأنت الذي بايعه القوم على خلع أمير المؤمنين ؟

— لقد بايعوني على خلع ابن معاوية الذي لا يصحو من سكره ولا يفـارق كلاب صيده .

قال : كذبت ..

— بل أنت الكاذب فقد رأيت ذلك بعيني .

قال : لقد اعطاك أمير المؤمنين وأعطى بنيك المال الكثير ، وهو يظن انك من اشراف الناس فكنت خائناً..

قال : أما عطاياه فليست من ماله ومال أبيه وانما هي من مالنا نحن المسلمين نأخذ منها ما يأخذه هو دون أن يكون له في ذلك فضل ، وامـــا اني كنت خائناً فوالله لم ادخل الشام الا وأنا عدوه ، وخرجت منهـا وأنا عدوه لا أبالي بماله ، ولا اعبأ بما يقوله المقربون مثلك يا ابن عقبة ..

قال : تخرج عن الطاعة ولا تخاف ؟

قال : خرجت من الباطل الى الحق وليس في ذلك معصية .

قال : أنصح لك بأن تحقن الدماء .

— ومن هو الذي يسفك الدماء يا مسلم . أنا الذي لم أضرب امويأ ولم أعتد

على أحد ، اما أنت الذي ارسلك مولاك مع هـذا الجيش لتدمر الحجاز وتجور على أهله ؟

قال : إذا دخلتم في الطاعة زحفت إلى مكة لقتال ابن الزبير ، الذي انضم اليه الفساق أعداء الله ..

قال : أنتم أعداء الله ، ووالله لو أردتم أن تسيروا اليه ما تركناكم ..نحن نعلم انكم ستستحلون حرمة البيت ، وتخيفون أهله وهذا ما لا نسلم به ..

– إذن لم يبق إلا السيف فتهيأوا للقتال ..

قال : لقد فعلنا وستعلم من أنت عندما تجول الخيل .

وانثنى قائلا لقومه : انصرفوا فقد أتت الساعة التي تباع فيها الأرواح .

وكان قد جعل الناس ارباعا ، على احدها عبد الرحمن بن زهير بن عوف ، وهو ابن عم عبد الرحمن بن عوف ، وعلى ربع قريش ، عبد الله بن مطيع ، وعلى المهاجرين ، معقل بن سنان الاشجعي وهو من الصحابة ، وتولى هو أمر الأنصار ، وهم أعظم الارباع ، وأشجع اهل المدينة .

وأما مسلم بن عقبة ، فقد ضرب فسطاطه ، من ناحية الحرة ، على طريق الكوفة ، وكان مريضاً كما علمت . وأمر ، فوضع له كرسي بين الصفين ورفع صوته قائلا :

يا أهل الشام ، قاتلوا عن أميركم واعلموا ان أمير المؤمنين يعرف كل شيء ، ولا يغفل عن شيء .. وأومأ إلى الخيل فأغارت وارتفعت الاصوات .. ثم رأى الناس بعد لحظة ، أن أرباع اهل المدينة ، تتراجع مذعورة ، ورجال الشام تمعن في الصفوف . إلا ربع الأنصار ، الذي يقوده ابن حنظلة ، فقد ثبت في وجـه القوة ، كالجبل الراسخ يدفعها عنه بالاسنة .

وابن عقبة يرى ذلك ، فقال لصاحب خيله : ابن الغسيل ، ابن الغسيل . (وهو يعني ابن حنظلة) .

فاندفعت الفرسان وهي تصيح : هذا يومك يا عدو الله ..

فحمل عليهم عبد الله فيمن معـه ، فردهم ، واكرههم على الرجوع حتى

انتهوا الى مسلم والخوف يملأ القلوب .

فنهض عن كرسيه وصاح بهم : ارجعوا وقاتلوا فأنتم سياج الخلافة .. فانثنوا يقاتلون قتالاً شديداً جرت بعده الدماء كالأنهار .

وأقبل عندئذ ، الفضل بن عباس ، من بني عبد المطلب وقال لابن حنظلة : قل لمن معك من الفرسان ان يلحقوا بي ، فاذا حملت فليحملوا معي فوالله لا انتهي حتى ابلغ مسلما فاقتله او اقتل دونه . فنادى عبد الله : ايها الفرسان ، اتبعوا الفضل بن عباس وافعلوا ما يفعل ..

فاجتمعوا وحملوا على أهل الشام فتضعضعت صفوفهم وعمدوا إلى الفرار .

واتسع المجال للفضل ، فقال لاصحابه : احملوا اخرى فوالله لئن عاينت اميرهم لاقتلنه فليس بعد الصبر الا النصر .. حملة أخرى وينتهى الأمر .. ففعلوا ما امرهم به ، ولم تكن غير ساعة ، حتى تفرقت خيل الشام عن مسلم بن عقبة . وبقيت حوله طائفة من المشاة ، فقال لهم : اجثوا على الركب وأشرعوا الرماح .. وكان الفضل يمشي إلى راية مسلم حتى انتهى اليها فضرب رأس صاحبها فقطع المغفر وخرّ ميتاً .

وقد سمعه الناس يقول : خذها مني وأنا ابن عبد المطلب .

وكان يظن انه مسلم ، فقال : قتلت طاغية القوم ورب الكعبة .

فقيل له : اخطأت انما هو غلام رومي .

ورأى مسلم رايته على الارض ، فتناولها وهو لا يبالي بالسيوف وجعل يحرض أهل الشام قائلا لهم : شدوا مع هذه الراية وأنا معكم . ومشى بها .

فشدت الرجال ، حتى انتهوا إلى الفضل بن عباس ، فقتلوه وليس بينه وبين فسطاط مسلم غير بضع عشرة ذراعاً .. وقتل معه زيد بن عبد الرحمن بن عوف .

ثم اقبلت خيل مسلم تريد ابن حنظلة وهو يصيح باصحابه قائلا : يا أهل المدينة ، إن عدوكم قد أصاب وجه القتال الذي كان ينبغي أن يقاتلكم به ، واني قد ظننت انهم لا يلبثون إلا ساعة حتى يفصل الله بينكم وبينهم .. إنكم أهل النصرة ودارکم دار الهجرة وان لكل امريء منكم ميتة هو ميت بها ووالله ما

ميتة أفضل من ميتة الشهادة وقد ساقها الله اليكم فاغتنموها ..

فدنا بعضهم من البعض الآخر .. فجعل أهل الشام يرمونهم بالنبال .

فقال ابن حنظلة : من أراد التعجيل إلى الجنة فليلازم هذه الراية .

وأخذ يقدم بنيه الثمانية واحداً بعد واحد حتى قتلوا جميعهم بين يديه وهو يضرب ويقول :

بعداً لمن رام الفساد وطغى وجانب الحق وآيات الهدى

لا يبعد الرحمن إلا من عصى

ولكنه لم يلبث حتى قتل ، وقتل معه اخوه لأمه ، محمد بن ثابت بن قيس ، وعبد الله بن زيد بن عاصم ، ومحمد بن عمرو بن حزم الأنصاري ، وانهزم الناس.

فجمع ابن عقبة جيشه وقال: أبحت لكم المدينة ثلاثة أيام ، تقتلون الناس ، وتأخذون ما يطيب لكم من المتاع والأموال.. ذلك ما أمرني به أمير المؤمنين.

فخاف شيوخ المدينة ورجال الصحابة ، وخرج منهم ابو سعيد الخدري حتى دخل كهفا في الجبل ، فتبعه رجل من اهل الشام واقتحم عليه الكهف فانتضى ابو سعيد سيفه يخوفه به فلم ينصرف.

فأغمد سيفه وقال : لئن بسطت يدك الي لتقتلني مـا انا بباسط يدي اليك لاقتلك ..

قال : من انت ؟

– أنا أبو سعيد الخذري .

– صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟

– نعم ..

فتركه ومضى ... ومرت الايام الثلاثة ، على نهب ، وذعر وخوف .

فمشى مسلم عندئذ الى دار الامارة ، ودعا وجهاء جيشه ورجـال الرأي وقال لهم : ماذا ترون الان ؟

قالوا : ما يراه الأمير .

قال : تدعو الناس الى البيعة قبل ان نسير الى مكة .

– على اي شيء ؟

– على ان يكونوا خولاً لامير المؤمنين يحكم في دمائهم واموالهم كما يشاء دون ان يكون لهم رأي .

– ومن امتنع ؟

– قتلناه .

قالوا : لك رأيك في هذا فانت اعلم.

ولم ينقض ذلك اليوم ، حتى علم النـــاس ان مسلما يدعو الى البيعة ورجاله لا يمنعون احداً من الدخول عليه ، الا اصحاب ابن حنظلة ، فقـد أمر حجابه بأن يستأذنوا لهم ويذكروا اسماءهم له ...

وطلب الامان ليزيد بن عبدالله ، بن ربيعة الاسود ، ولمحمـد بن أبي الجهم ابن حذيفة ولمعقل بن سنان الاشجعي .

فقال : اذا ارادوا ان يجيئوا ولا أمان لهم فليفعلوا .

فأتى بهم بعد الوقعة بيوم فلما اقبلوا قال: أتبايعون على الشرط الذي سمعتم؟

قالوا : ما هو ؟

– هو أن تكونوا عبيداً لامير المؤمنين .

فقال يزيد ومحمد وهما من قريش : نبايعك على كتاب الله وسنة رسوله .

– بل تبايعان على ما ذكرت ..

– لا والله لا نفعل .

فقال لرجل من حرسه : سيفك ... ثم اومـأ الى يزيد بن عبدالله وقال : أضرب عنق هذا .

فسقط رأس يزيد في لحظة ، ثم قال : وهذا محمد بن الجهم فاضرب عنقه ، ففعل ، وجعل ينظر الى معقل بن سنان .

فقال مروان بن الحكم : سبحان الله ، أتقتل رجلين من قريش أتيا بأمان ؟

فضربه على خاصرته بقضيب كان بيده وقال : وانت والله لو قلت بمقالتهما لقتلتك ... وكان معقل جالساً مع القوم وهو ساكت . فلما قتـــل الرجلان ، عرف أن دوره قد جاء .

فدعا بشراب ليسقى ، فقال مسلم : أي الشراب أحب اليك ؟

قال : العسل .

قال : اسقوه .

فشرب حتى ارتوى ، فقال له : أرويت يا ابن سنان ؟

— نعم .

قال : والله لا تشرب بعدها شربة الا في نار جهنم .

قال : اسألك بالله أن لا تفعل .

قال : الست أنت القائل : نرجع الى المدينة، فنخلع هذا الفاسق ابن الفاسق ونبايع رجلاً من المهاجرين او الانصار ؟ فسكت معقل .

فقال : اقسمت اني لا القاك في حرب أقدر فيها على قتلك إلا فعلت ، واني قاتلك الساعة .

قال : اتق الله يا ابن عقبة .

فابتسم قائلا : أتذكر الله وأنت عدوه ..؟ أقتلوه ... فقتل ..

ثم اتى بيزيد بن وهب ، فقال له : بايع يا يزيد .

قال : أبايع على الكتاب والسنة .

فلم يزد على قوله :واقتلوا هذا أيضاً..فشفع فيه مروان لقرابة كانت بينهما.

فامر بمروان فوجىء انفه..ومسلم يقول : اسمعوا لي ولا تترددوا في ضرب الاعناق ... فهوت عندئذ جثة يزيد .

وقيل لمروان في تلك الساعة : لقد جاء علي بن الحسين ، وهو مع الناس،في ساحة القصر ... فخرج هو وعبد الملك يبحثان عنه حتى لقياه .

فقال مروان : جئت لتبايع ؟

قال : سمعت منادي مسلم يدعو الناس الى القصر فأتيت .

قال : تدخل بيننا نحن الاثنين .

وأقبل علي يمشي بين مروان وابنه حتى دخلوا وجلس بينهما ، وابنَ عقبة

يبتسم ابتسامة الاستخفاف .. ثم دعا مروان بشراب ، وهو يريد أن يحترم بذلك ويرعى له حرمة ، وشرب منه الشيء اليسير ، ثم دفعه الى علي .

فلما تناوله قال له مسلم : لا تشرب من شرابنا يا ابن الحسين .

فارتجفت يده ، وأيقن بأنه غير آمن ، وان الرجل الذي أباح المدينة .. ينظر إليه كما ينظر إلى عدو ..

وأمسك القدح ولم يشرب .. وكيف يفعل وقد نهاه الامير عن ذلك ، كأنه يقول له : ليس لك عندنا حرمة فخير لك ان لا تشرب .

ثم قال الأمير : أجئت تمشي بين هذين الرجلين لتأمن عندي ؟

قال : لم أفكر في ذلك .

قال : والله لو كان اليهما أمر لقتلتك .. ولكن امير المؤمنين أوصاني بك وخبرني أنك كاتبته فان شئت فاشرب ..

فشرب وهو ساكت .. ومروان يتقلى على مثل الجمر ..

ثم لان مسلم فقال : ادن يا علي ..

فمشى حتى لامس السرير .. فأومأ اليـه بأن يجلس إلى جانبه ، ثم قال : أخاف أهلك يا علي ؟

— أي والله .

قال : ليس لنا أن ندعوك إلى البيعة ، على ما شرطنا على أهل المدينة .. اسرجوا له دابة واحملوه عليها .

فعرف الفتى انه نجا من الموت ..

وكان عبد الرحمن بن مسلم في فناء الدار .

فلما خرج علي قال: خفت يا مولاي أن يصيبك الأذى وكنت أهمّ بالدخول .

قال : الحمد لله الذي أنقذني من هذا الطاغية . انه يأمر بضرب الأعناق دون ان يطرف له جفن ..

وأتي بعلي بن عبدالله بن عباس ليبايع .

فقام الحصين بن نمير فقال : لا يبايع ابن اختنا إلا كبيعة علي بن الحسين ..

وكانت أم الفتى كندية . وقامت كندة تقول قول ابن نمير ..
فتركه مسلم ولم يكرهه على البيعة . فانصرف وهو يقول :

ابي العبـاس قرم بني قصي — وأخوالي الملوك بني وليعه
همُ منعوا ذماري يوم جاءت — كتائب مسرف وبنو اللكيعه
أرادوني التي لا عز فيهـا — فحالت دونه أيد سريعه

« عنى بقوله مسرف ، مسلم بن عقبة لأنه سمي بعد وقعة الحرة مسرفاً ، وبنو وليعة بطن من كندة منهم أمه ، واللكيعة أم أمه » .

وقيل ، لم يكن عمرو بن عثمان بن عفان ، فيمن خرج من بني امية ، فأتى به يومئذ الى مسلم فقال : يا أهل الشام ، تعرفون هذا ؟

قالوا : لا .

قال : هذا خبيث ابن الطيب ، هذا عمرو بن عثمان ، هي يا عمرو إذا ظهر أهـــل المدينة قلت أنا رجل منكم ، وان ظهر أهل الشام قلت أنا ابن أمير المؤمنين عثمان ..

ثم أمر به فنتفت لحيته ، ثم خلى سبيله ..

وكانت وقعة الحرة ، لليلتين بقيتا من شهر ذي الحجة ، في السنة الثالثـــة والستين ، وقد حجّ بالناس ، في تلك السنة ، عبد الله بن الزبير ، وكان يسمى يومئذ العابد ، وقد حمل اليه ، خبر يوم الحرة ، المسوّر بن مخرمة ، فعرف هو واصحابه أن مسلما نازل بهم ، فتهيأوا ، وأعدوا عدة القتال ..

٣٢

يا غلام ، احمل هذا الكتاب إلى أمير المؤمنين ، وخبره ان الأمر في المدينـة قد استقام له ، وسنغزو مكة . قالها مسلم ووجهاء جيشه بين يديه .

ثم قال : ألا ترون انه لم يبق لنا ما نصنعه في المدينة ؟

قالوا : إن هذا العام قـــد انتهى ، ومن الرأي أن نفاجىء ابن الزبير ، في مطلع العام الرابع والستين .

— أتسيرون بعد خمسة أيام ؟

— بل نسير بعد يومين فالشام بالانتظار ، ونحن لم نأت الحجاز لنقيم به العمر كله فمر بالرحيل .

قال : اختاروا رجلاً نستخلفه على المدينة .

— للامير وحده ان يختار .

قال : روح بن زنباع فماذا تقولون ؟

— لقد أحسن الامير الاختيار .

فقال لروح : لقد شهدت القتال وسمعت ورأيت كل شيء ، فاذا استخلفتك فكن ذلك الرجل الذي يرضي أمير المؤمنين .

قال : لا يرتفع في المدينة صوت وأنت في مكة .

قال : اوصيك بأن تترك اللين وتعمد إلى السيف ..

— لقد نادى مناديك بالأمان وانك لا تجد اليوم في المدينة رجلا من أهلهـا يحمل سيفاً .

قال : أخشى أن تستيقظ الفتنة من جديد فيخرجوا من الطاعة ويحصروك في دار الامارة كما حصروا عثمان .

— ولكنك تعلم اني ابن زنباع واني غير عثمان ..

قال : يكفي أن تعلم اني لا أطيق أن يكون عند أحد من أهل المدينة غش لامير المؤمنين .

— وأنا لا أطيق ذلك .

ويظهر ان مسلماً ، هـذا الشيخ الضعيف المريض ، لم يكن يعرف الرحمة ، ولا تتردد في صدره عاطفة حنو . كان سفاحاً مسرفاً كما رأيت ، بل كان مجرماً تعترف بجريمته العدالة والتاريخ .. وهو القاتل ، الذي تغوص رجلاه في الدماء

الى الركبتين ولا يبالي ..

يقول المستشرق دوزي : « كان ابن عقبة رجلا لا يؤمن بالله وبالاسلام » .

ورأي دوزي ، رأي مؤرخ رأى المدينة المقدسة الزاهية تغرق في بحر من الدم ، وابن عقبة يشرب من هذا البحر ولا يرتوي ، ويستحل مـا لا يحله الله ، فقام في ذهنه ان الرجل قائد جبار ولكنه غـير مؤمن .. وأي بطاش يفعل ما فعله مسلم ؟

تدمير وقتل ونهب إلى النهاية .. حتى بلغ عدد القتلى يوم الحرة ، من قريش والمهاجرين والانصار ، الفا وسبعمائة من الرجال ، وعشرة آلاف من سائر الناس ما عدا النساء والغلمان .. أباح المدينة لجنده يفعل بأهلها ما يشاء ، فطغى الجند وبغى ، ونحن ندلك الآن على أثر من آثار طغيانه :

دخل جندي دار امرأة من نساء الأنصار وعلى صدرها طفل فقـال لها : هل من مال ؟

قالت : لا والله ما تركوا لي شيئاً .

قال : لئن لم تخرجي الي شيئاً لاقتلنك وطفلك هذا .

قالت : ويحك انه حفيد ابي كبشة الانصاري صاحب رسول الله ولقدبايعت رسول الله ﷺ معه يوم بيعة الشجرة على أن لا أزني ولا أسرق ولا أقتل ولدي ولا آتي ببهتان أفتريه ، فما اتيت شيئاً فاتق الله .

ثم قالت لابنها : والله لو كان لي شيء يا بني لافتديتك به .

فأخذ الجندي برجل الطفل ، والثدي في فمه ، وجذبه بعنف ثم ضرب به الحائط فانتثر دماغه .. ذلك هو مسلم وجند مسلم ..

ووصف المؤرخ الهندي امير علي ، يوم الحرة قال :

« عندما انتهت الاخبار الى يزيد بخروج أهل المدينة عليـه وخلعهم إياه ، وطردهم عامله ، جن جنونه ، فأرسل اليهم جيشاً كبيراً من المرتزقة ، ومـن أنصار بني أمية من أهل الشام تحت قيادة مسلم بن عقبة فقاتل أهل المدينـة في مكان يقال له الحرة ، حيث وقعت بين الفريقين معركة حامية غلب فيهـا أهل

المدينة وهزموا هزيمة منكرة على الرغم مما أظهروه من الاستبسال في القتال ».

« وقد استشهد في تلك المعركة ، التي كانت وبالاً علـى الاسلام والمسلمين من نواحٍ كثيرة ، زهرة أهل المدينة من الفرسان ومن خـيرة أصحاب الرسول . وهكذا اباح الامويون المدينة ودنسوها ، ذلك البلد الذي آوى الرسول مـدة حياته ، والذي كان مهبط رسالتـه كما قاسى أهلها الذين آووا الرسول وبذلوا أنفسهم دونه في ساعة الضيق أقسى الوان العذاب وأشد أنواع الفظائع » .

« ولا عجب ، فقـد حول جيش الشام المسجد الجامع إلى اصطبل لخيولهم وهدموا الحرم والاماكن المقدسة لسلب ما فيهـا من اثاث ومتاع وهكذا شاء القدر أن تنتصر الوثنية ولو مرة على الاسلام ، تلك الوثنية التي كان ثأرها في هذه المرة على ما يقول مؤرخ اوربي مؤلماً قاسياً » .

« وأما أهـل المدينة فمنهم من قتل ومنهم من فر لينجو بحياته الى بعض الاقطار وأما القليل منهم ، ممن ظل بالمدينة ، فقد أصبحوا سبايا وعبيداً ليزيد ابن معاوية ومن أبى منهم ذلك كان يكوى بالنـار على رقبته ليوسم بتلك السمة المخزية » .

« ولم ينج من ذلك العار غير علي بن الحسين وزين العابدين وعلي بن عبد الله ابن عباس » .

« وأما دور العلم والمباني العامة التي بنيت في عهد الخلفاء الراشدين ، فمنها ما أغلق ومنها ما تهدم ، ولم تستعد المدينة ما كان لها من حضارة ومجد بعد هـذه الفاجعة ابداً ، حتى إنها كانت تبدو تحت حكم الامويين كأنها مدينـة لا ماض لها ولا تاريخ » .

« وقـد احتاج المنصور ثاني الخلفاء العباسيين حين زارها ، إلى مرشد يهديه إلى الاماكن التي كان يعيش فيها السابقون من ابطال المسلمين » .

وتستطيع الآن بعد الاطلاع على الكتاب الذي بعث به مسلم إلى يزيد أن تحكم عليه بما يستحق ، قال :

« بسم الله الرحمن الرحيم .

« لعبد الله يزيد بن معاوية أمير المؤمنين من مسلم بن عقبة .

« سلام عليك يا أمير المؤمنين ورحمة الله فاني احمد الله اليك الذي لا اله الا هو

« اما بعد تولى الله حفظ امير المؤمنين والكفاية له فاني اخبره ابقاه الله اني خرجت من دمشق ونحن على التعبئة التي رأى امير المؤمنين يوم فراقنا ، فلما كنا بوادي القرى رجع معنا مروان بن الحكم وكان لنا عوناً على عدونا ، وانا انتهينا إلى المدينة ، فإذا أهلها قد خندقوا عليها الخنادق ، وأقاموا على أنقابها الرجال والسلاح ، وأدخلوا ماشيتهم وما يحتاجون لحصارهم سنة ، وقد أخبرناهم بعهد أمير المؤمنين ، وما بذل لهم فأبوا ، ففرقت أصحابي على أبواب الخنادق . وليت الحصين بن نمير ناحية ذباب وما والاها عليها الموالي ، ووجهت جيش ابن دجلة إلى ناحية بني سلمة ، وعبدالله بن مسعده إلى ناحية بقيع الفرقد وكنت ومن معي من قواد امير المؤمنين ورجاله في وجوه بني حارثة ، فأدخلنا الخيل عليهم عندما ارتفع النهار . من ناحية عبدالأشهل بطريق فتحه لنا رجل منهم بما دعاه اليه مروان بن الحكم إلى صنيع أمير المؤمنين ، وسلم الله رجال أمير المؤمنين فلم يصب أحد منهم بمكروه ولم يقم لهم عدوهم ساعة واحدة من ساعات نهارهم ، فما صليت الصبح أصلح الله أمير المؤمنين إلا في مسجدهم ، بعد القتل الذريع والانتهاب العظيم ، وأوقعنا بهم السيوف وقتلنا من أشرف لنا منهم واتبعنا مدبرهم وأجهزنا على جريحهم .. وانتهبناها ثلاثاً ، كما قال أمير المؤمنين ، وجعلت دور بني الشهيد المظلوم عثمان بن عفان في حرز وأمان »

« فالحمد لله الذي شفى صدري من قتل أهل الخلاف القديم والنفاق العظيم ، فطالما غشوا ، وقديماً ما طغوا » .

« أكتب هـــذا إلى أمير المؤمنين ، وأنا في دار سعيد بن العاص ، مدنف مريض ، ما أراني إلا لما بي ، وما كنت لأبالي متى مت بعد يومي هذا » .

« كتب لهلال المحرم سنة ثلاث وستين » .

أفلم تر ، أن مسلماً نفسه ، يعترف بكتابه ، بالقتل الذريع .. والانتهاب العظيم .. والاجهاز على الجريح ..

ولم ترَ ، ان مسلماً ، وعبيدالله بن زياد ، هما من ناحية القساوة والطغيان ، من صف واحد ، وهما اللذان جعلا دولة أمية ، في نظر المسلمين ، دولة ظلم وانتهاك للحرمات ..

هذه مذبحة كربلاء ، ومذبحة الحرة .. ان في الاثنين درساً لرجال الرأي ورجال السياسة ، في كل زمان ومكان .

وهل كان يزيد بن معاوية بريئاً ؟

– لا لقد حدث ببراءته رجال بلاطه وأهل الحسين ، ولكنه لم يستطع ان يثبت للتاريخ أنه ذلك البريء .

هو الذي عهد إلى عبيد الله بن زياد ، في إخماد فتنة الحسين ، دون ان يدله على مواضع الشدة ومواضع اللين ، فكان عبيدالله ، بأمر مولاه ، حراً مطلق اليد في كربلاء ، يقتل الابرياء ،ويذبح الاطفال ، ويحمل الرؤوس على الرماح..

هو الذي رأيناه يتميز غضباً على عبيدالله ، بعـــد مقتل الحسين ، وسمعناه يلومه ويلعنه في قاعة العرش ، في الخضراء ، ثم رأيناه بعد ذلك ، يجـــالسه في مجالس سكره ولهوه ، ويطلق يده من جديد ، في شؤون الامارتين الكبيرتين ، في الكوفة والبصرة ، بدلا من ان ينحيه ، او يقـــذف به الى اقليم آخر بعيد عن العراق .

وهو الذي رأينـا رسوله في الكوفة ، يسأل ابن زياد نفسه ، ان يسير الى الحجاز ، لقتال اهل المدينة وابن الزبير ، ولولا اعتـذار عبيدالله ، كما قرأت ، لكانت اليد التي صبغتها دماء الضحايا في كربلاء ، هي اليد التي صبغتها دماء الضحايا في المدينة ...

اذن كان غضب يزيد على عامله الجاني ، مظهراً من مظاهر السياسة ، اراد ان يخدر به اعصاب المسلمين .

ولو كان بريئاً من دم الحسين ، كما كان يقول ، لكان موقفه مع عبيدالله ، غير الموقف الذي رأيت ...

انتهى كتاب مسلم بن عقبة الى يزيد ، فدعا ابنه معـــاوية ، وعبدالله بن جعفر وقال لهما : اقرآ هذا .

ودفع اليهما الكتاب ... فقرأه عبدالله فسالت دموعه ... ثم قرأه معاوية فبكى ، فطال بكاؤه ، حتى كادت نفسه ان تخرج .

فقال يزيد لعبدالله : ألم أجبـــك الى ما طلبت ، فبذلت للقوم العطاء ، وأجزلت الاحسان ، واعطيت العهود والمواثيق على ذلك ؟

ثم قال لابنه .. فما بكاؤك انت يا بني ؟

قال : ابكي على قتل من قتل منهم ، وانما قتلنا بهم أنفسنا ..

فقال : هو ذاك قتلت بهم نفسي وشفيتها ...

ولم يلبث حتى غادر الخضراء ، الى حوارين ، بين دمشق وحمص ، ينصرف بها الى لهوه ، وقد اوصى رجـال دولته بان ينقلوا اليـه اخبار ابن عقبة ، وابن الزبير ، عندما تنتهي الى دمشق .

٣٣

ترك جيش الشام المدينة يريد مكة ، وقد خارت قوى قائده مسلم، وانشب المرض والضعف مخالبهما فيه . وقد تكون حوادث المدينة ، والدماء التي سالت في خنادقها سبباً من اسباب ضعفه .

فلما بلغ المكان الذي يقال له المشلل ، بين مكة والمدينة، قسا مرضه وجار، ورأى الموت يدنو منه ، وعلى شفتيه السوداوين ، ابتسامة الاستهزاء ...

فقال عليّ بالحصين بن نمير ، وكان يزيد قد أوصاه بان يستخلفه كما مر ، فلما

مثل بين يديه قال له : والله لو كان الأمر اليّ ما وليتك أمر هذا الجند ، ولكن امير المؤمنين ولاك بعدي ولست بقادر على رد أمره .

وجعل يوصيه بما يصنعه بعد موته ، ثم قال : اللهم ، اني لم اعمل قط ، بعد شهادة ان لا اله الا الله وان محمداً عبده ورسوله عملاً احب اليّ من قتلي اهـــل المدينة ولا ارجى عندي في الاخرة ...

كأنه كان يرى ، ان في قتله أهل المدينة ، عملا من اعمال البر يرضي به الله عز وجل .

ولم يطل زمان مرضه في المشلل فقد كانت حمّاه قاتلة زهقت معه روحـــه بعد بضعة ايام .

ودفن في ذلك الموضع ، في آخر محرم من السنة الرابعـة والستين ، ولكن بعضهم اخرجوا جثته من القبر ، بعد رحيل الجيش ، واحرقوها بالنـــار فلم يبق له في المشلل أثر .

وكان ابن الزبير قد اظهر دعوته بعد ثورة المدينة ودعا الناس الى خلع يزيد لا يتردد في ذلك ولا يخاف ، كأن ثورة المدينـة نفخت في صدره قوة جديدة يستخف معها بقوة الخلافة ، أو كأنه كان واثقاً بانه ليس في الاسلام من يجسر على اقتحام الكعبة التي هي بيت الله .

ولكن المدينة دمرتها العاصفة ، وفرق السيف رجالها البسلاء خصوم يزيد فما راعه غير هؤلاء الرجال يلجأون الى مكة ، وهم يلتفتون الى الوراء خوفاً من مسلم الطاغية السفاح .

ولم يحس بالحقد يتغلل في صدره، مثل احساسه به يوم نقلوا اليه : ان جثث المهاجرين والانصار تملأ المدينة ، وقد عم البلاء .

واروع من ذلك كلـــه قول اللاجئين : ان جيش مسلم بن عقبة سيغزو الكعبة ..

وماذا يصنع ابن الزبير ، الطامع بالخلافة ، وهو امام جيش لا يخاف الله ، ولا تثنيه عن غايته حرمة ؟

ان الكعبة ، اذا هو لم يتدبر امرها ، لا تثبت في وجه مسلم ، وان وثوقه، بانه آمن وهو عائذ بها ، وثوق كاذب ، فخير له ان ينظر في الامر ، كأنه بعيد عنها ، او كأنه في ساحة من ساحات القتال ..

لقد بايعه الناس وخلعوا ابن معاوية، وأقبل نجدة بن عامر في جماعة الخوارج يدافعون عن الكعبة ، فلم يبق إلا أن يحتاط للحادثات ، ويهيىء وسائل الدفاع قبل ان يجيء الجيش .

وقويت شوكته بقدوم المختار بن أبي عبيد ، والمختار من أبطال الناس الذين يبغضون بني أمية كما يبغضون ابن زياد .

نشأ هذا البغض منذ قدم الكوفة مسلم بن عقيل بأمر الحسين، رضي الله عنه، وتغلل الحقد في صدره من ذلك الحين ، حتى أنه كان يقول :

قتلني الله إن لم أقطع أنامل إبن زياد وأعضاءه .

ذلك لأن إبن زياد قبض عليه في الكوفة ، ووضعه في السجن ، بعد ان شتر عينه بقضيب كان بيده .

ولو لم يشفع فيه ، عند يزيد ، صهره عبدالله بن عمر بن الخطاب ، لما أخرجه ابن زياد من سجنه بعد مقتل الحسين .

وعند قدوم المختار كان القوم من قريش والانصار وثقيف قد بايعوا ابن الزبير ، ولم يبق رئيس من رؤساء العشائر إلا أتاه .

حتى بلغهم ان مسلماً قد مات ، والحصين ابن نمير خليفته على ذلك الجيش .

وأقبل الحصين فجعل رجاله حول مكة ، والمجانيق والعرادات على الجبال ، وكان يعلم ان الحرب حرب حصار .

٣٤

في ذلك اليوم نفسه ، أقبل إلى المدينة من الكوفة عبد الرحمن بن الحصين

المرادي يريد دار علي بن الحسين . وقـــد قل صبر عبدالرحمن بن مسلم وخانه الجلد .

وأي شيء في الحجاز ، فيه عزاء له ..

المدينة تلبس السواد على رجالها الأموات ، وقد أمسى رجالها الأحياء عبيداً ليزيد ، وابن نمير يحاصر البيت الحرام ، وحوله وجهاء الناس يدافعون عنه .. والنفوس تضطرب وتغلي ، والفتنة تمتد .

والشوق يذيب قلبه وأمامة في الكوفة ، تبكي غرامها الذي عبثت به يـــد الزمان ..

وقد رأى أن علياً ، الذي لم يشأ أن يتخلى عنه في أيام الضيق ، لم تمتد إليه يد الغازي .. وكرامة أهل الحسين جميعهم لم تمس ..

فخير له أن يخرج من لوعته وعزلته ويتعجل في أمر الزواج .

وكانت أخبار المدينة قد انتهت إلى الكوفة ، والفتى المرادي يعلم كل شيء ، ولكنه لم يكن يعلم ماذا جرى لعبد الرحمن .

فلما دخل بيت علي ، رأى علياً وعبدالرحمن في الرواق ، وآثار الكآبة والهم على الوجهين ، فقال: الحمد لله الذي حفظ حياة الاثنين ، وكنت اظن ان القدر الجائر قدا معن في الجفاء ..

فأجابه علي قائلا : اما نحن فقد بقينا ، ولكن المدينة خسرت ازاهير قريش والانصار ، ولم يبق فيها غير الضعفاء الاذلاء ..

قال : عرفت كل شيء يا مولاي ، انا لله وانا اليه راجعون .

وقبل يد علي ثم صافح عبد الرحمن وهو يقول : احمل اليك سلام عمرو بن الحجاج واهل بيته ...

ودخلوا فجلسوا ، فقال علي : كيف تركت الكوفة ؟

– كما تعلم ، هذا يلعن معاوية وابنه ، وهذا يلعن ابن الزبير ، ولكن الاولين أضعف من هؤلاء ..

فابتسم ابتسامة السخرية قائلا : هذه هي الكوفة لا تتغير .. ألسنة كاذبة ،

ونفوس خائنة ، وبسالة تظهر في المنازل ، وتبقى فيها.. ثم قــال : وعمرو بن الحجاج الذي ذكرت ؟

قال : بخير ..

— ولكننا لا نسألك عن عافيته .. بل عن رأيه ..

— ليس له رأي ، ولم أسمع منه كلمة تدل على غاية له ..

— وكيف ترك آل معاوية ، وهو الذي حمل سيفـه يوم كربلاء يضرب به اصحابنا ويدفع رجاله الى خيامنا وقـــد نسي انه كتب الى الحسين يدعوه الى الكوفة ويبايعه على الطاغية ..

— لقد ندم على ما بدر منه يا مولاي .

— ذلك ما يظهره الخائن لمن حوله ولكنه في الباطن عبد من عبيد الامويين يمشي وراءهم إذا مشوا ويدعو الناس إلى الخضوع لهم لا يسأل عـــن شرف ولا يبالي بعهد ..

قال : لقد مضى الآن ما مضى يا مولاي .

— أجل مضى الماضي ولكنه لم يغب عن الذهن .. اني لا أدين الناس فالديان الله وانما هي بادرة ألم قذفت بها . قالها وسكت، كأنه احس انه يسيء في ذلك القول الى عبد الرحمن ، وهو اخاص الناس له ..

وعرف عبد الرحمن ، في الوقت نفسه ، ما خطر لعلي ، فعول على التضحية ، الى النهاية ، دون أن يتردد في الأمر .. واختلجت في صدره ، في تلك اللحظة ، عاطفتان : عاطفة غرامه ، الذي تزول حياته ، ولا يزول .. وعاطفة الوفاء ، الذي من اجله مات ابوه في كربلاء ..

فارتجفت شفتاه وهو يقول لغرامه : لا تستطيع أيها الغرام ، أن تضيع شرف ابن مسلم !

ثم قال لعلي : أحببت امامة يا مولاي ، وأنا مؤمن بأن أباها من الشيعة .

— نعم .

— ولكني رأيته بعد ذلك ، يحمل لواء الأمويين ، ولمست خيانتـه بيدي .

الاثنتين .

– نعم ..

– وكنت قد عاهدت الفتاة ، على الوفاء لها حتى الموت .

– والآن ؟

– أما الآن فلا أحب أن تكون لي صلة بابن الحجاج !

فضحك قائلا : لماذا ؟

– لأن يده يد خائن ، ويدي لا تمتد إلى مثله ..

– ويد الفتاة ؟

– يد طاهرة ليس عليها أثر من آثار الذل .

– إنها اليد التي ستمتد اليك ..

– ولكن عمراً كان نذلاً ، وأنا لا أطيق أن تكون زوجتي ابنة نذل ..

قال : تعاهد امامة على الوفاء حتى الموت ، ثم تقول لها اليـوم : اذهبي عني فقد نكثت العهد ؟

قال : سيرافقني هذا الوفاء الى القبر ..

قال : لماذا دعوت ابن الحجاج خائناً ؟

– لأنه حارب الحسين .

– وعمر بن سعد حارب الحسين ، فهل كان من الخونة؟

– لم يكن عمر بن سعد من أتباع ابيك .

– اذن فابن الحجاج لم يكن خائناً ، الا لأنه عاهد أبي على الاخلاص له ، ثم تخلى عنه .. أليس كذلك ؟

– بلى .

– ونسيت الآن أنك خائن مثل عمرو ؟

– أنا ؟

– نعم أنت ، فقد أقسمت لامامة أنك العاشق الوفي ، وكنت كاذباً ..

وسأقول أنا غداً ، ويقول أهل الكوفة : ان عبدالرحمن بن مسلم من أكذب الناس ..

فحنى الفتى رأسه ولم يجب .

فقال علي : هات يا عبد الرحمن .. من هو الخائن؟

قال : كفى يا مولاي .

– ولكن قل لي ، أكنت من الأوفياء ؟

– انك تدفعني يا مولاي إلى أن أقول كل شيء ..

– أجل ، قل كل شيء .

قال : أخشى أن تستخف بي غداً وتقول في نفسك : هذا عبدالرحمن الذي قتل أبوه من أجل الحسين ، يتزوج فتـــاة من الكوفة ، اشترك أبوها في جريمة القتل ..

قال : أقسم بذلك التراب الطاهر الذي كفنوا به الحسين ، لئن تركت الفتاة لأتركنك إلى الأبد .

– وتقسم أنك لا تستخف بي ؟

– استخف بك إذا فعلت غير ذلك .

قال : لقد انتهى الأمر وسأتزوج امامة .

– وتسير بعد بضعة أيام الى الكوفة من أجل هذه الغاية ، ثم تكتب إلي بعد زواجك !

قال : قد أعود مع امامة إلى الحجاز

– لك أن تعود إليه عندما تشاء فأنا لك .

ونهض قائلا : سأرجع بعد ساعة .

ثم انصرف ليخلو للفتيين الجو ..

٣٥

– ما وراءك يا عبد الرحمن ؟

فقال ابن الحصين : ورائي فتاة تذوب غراماً ، وعينان جفت فيهما الدموع.

فاضطرب قائلا : أي والله ، لقد طال زمن الفراق واشتد الشوق .. قل ماذا صنعت ولا تكتمني شيئاً فأخبار الكوفة ، الخائنة ، تلذ لي ...

قال : خبرت امامة بما جرى ، فغفرت لأبيها خروجه على الشيعة ، وابتسم الأمل على جبينها الوضاح .

– أعد علي ما قالته لك .

– طلبت إلي أن أعود إلى المدينة ، لأسألك باسم الحب الذي تتقد ناره في الصدر ، أن تتعجل في الرحيل .

– وقلت لها أن العيش لا يطيب لي في الكوفة ، وفيها ابن زياد ؟

– ان ابن زياد في البصرة ، وسيقيم بها ستة أشهر على عادته في كل عام .

– ولكنه سيعود .

– من يعلم ، فخلافة يزيد في خطر كما ترى .

– ان الخطر في الحجاز .

– أجل ، إذا استقام الأمر لابن الزبير ، في الحجاز ، خرجت الكوفة من يد ذلك الأموي اللعين .

قال : مسكين ابن الزبير ؛ انه لاجىء إلى الكعبة لا يجسر على أن يبرز إلى الساحة ..

– ولا يجسر أهل الشام على اقتحامها .

– بل يفعلون ما يطيب لهم فهم لا يخافون الله .. لقد كان أهل المدينـــة

يقولون،قبل قدوم الجيش: إن المدينة لا تغلب ، ولكن الموت بين ليلةوضحاها، بسط على هذه المدينة جناحيه ، وابتلع الناس لا يرحم شيخاً ولا يلين لطفل ..

قال : سمعتهم يقولون ان ابن عقبة قد مات .

– ولكن الحصين بن نمير حي ، وهو الذي تولى الأمر بعد مسلم .

قال : إذا كان الله لم يشأ انقاذ المدينة من سيف الظالم فسينقذ البيت الحرام .

قال : إن الله على كل شيء قـــدير ، ثم تنهد قائلاً : من هو خليفة ابن زياد على الكوفة ؟

– عمرو بن حريث .

– ومتى رحل الطاغية ؟

– في أول العام .

– قال نسير غداً الى الكوفة ونمكث بها حتى تنتهي الأشهر الستة التي يقضيها الظالم في البصرة .

– وماذا تصنع بعد ذلك ؟

– تكون هذه الحرب قد انتهت ، فاذا ظفر ابن الزبير بقينا في العراق ، وان لم يظفر رحلنا عنه .

– انه رأي لا بأس به .

وخطر لابن الحصين عندئذ خاطر اضطربت له نفسه فقال : أتمكث بالكوفة هذه الاشهر التي ذكرت دون ان تتزوج ؟

– الرأي في ذلك رأي امامة .

– بل هو رأيك ، وأنا انصح لك بأن تفعل قبل أن تضيع الأمل .

– ويلك وأي أمل هذا ؟

– امامة فهي ستموت إذا ظلت بعيدة عمن تحب ..

فوضع يده على صدره وقـــال : أصبت ، وهذا القلب يحدثني بذلك ..

ورجع علي في تلك الساعة ، فرأى الفتيين يبتسمان، فقال : أعولت على الرحيل

يا عبد الرحمن ؟

— نعم يا مولاي .

— وترجع الى الحجاز كما قلت ؟

— لا اعلم الآن .. ان عبيد الله ابن زياد امير الكوفة ، فاذا رحل عنهـــا بقيت ، وإذا بقي رحلت ..

قال : سيبقى ما بقي يزيد بن معاوية ..

— وإذا استقام الأمر لابن الزبير ؟

— يستقيم له في الحجاز ويبقى الآخر في الشام .

— والعراق ؟

— أما العراق فلا أعرف عنه شيئاً لأنه لا عهد له .

فقال ابن الحصين : قلت ان العراق اليوم يتشيع لابن الزبير إلا جماعة قليلة تدين بدين الامويين هي الجماعة التي تشيعت لهم من قبل ..

قال: اني لا أعلم ما في العراق كما ترى ولكني واثق بأن هؤلاء المتشيعين لإبن الزبير يتشيعون له وراء الجدر ولا يجسرون على أن يذكروا إسمه .

— هذا صحيح .

— إذن فتشيعهم هذا ، صورة عن تشيعهم لأبي الحسين ، ولأبيه من قبل ، كانوا يقولون : إن الحسين وحده صاحب الحق في الخلافة . فلما أراد الحسين أن يمد يده إلى حقه تراجعوا عنه .. ذلك شأنهم مع عبد الله .. يخطو خطوتين إلى الأمام فيقولون : هذا خليفتنا الصالح ، ولكنهم يتراجعون غداً إذا خطا الحصين بن نمير في مكة خطوة واحدة ثم يقولون : يزيد خليفتنا لا خليفة لنا سواه .

قال : إذا غلب ابن الزبير على أمره فإبن زياد باق كما قلت ولكن إذا ظفر كان العراق له .. فرفع علي عينيه إلى السماء وتمتم قائلاً : اللهم إنك تخذل من تشاء وتهب النصر لمن تشاء ..

ثم ضم عبدالرحمن إلى صدره وقال إنك أخي سواء أكنت هنا أم في الشام وإن لك في الحجاز أهلاً أنت أحب الناس اليهم هم أهل الحسين وأرجو أن تثق الوثوق

كله بأن علياً الذي يخاطبك الآن لا ينسى المخلصين له.

ودمعت عيناه فقد ذكر عندئذ مسلم بن عوسجة الذي وقف عند فسطاط أبيه وهو شاهر سيفه وكان يقول : « أنحن نتخلى عنك ؟ أما والله لا افارقك حتى اكسر في صدورهم رمحي وأضربهم بسيفي ما ثبت قائمه بيدي .. والله لو لم يكن معي سلاحي لقذفتهم بالحجارة دونك حتى أموت معك » .

وجعل علي يردد هذه الكلمات ثم قال: يكفي أن يذكر هذا، آل الحسين..

٣٦

أطلّ الحصين بن نمير على مكة . فخرج ابن الزبير الى لقائه ، ومعه أخوه المنذر ، ونجدة بن عامر ، والمختار ، وأبطال الحجاز .. فطلب المنذر البراز فتصدى له بأمر الحصين، رجل من الشام،هو أحد القواد الذين خاضوا الميادين..

ففتح الموت شدقيه للبطلين ساعة طويلة حتى ضرب كل واحد منهما صاحبه ضربة كانت القاضية عليه . وسقط الإثنان قتيلين .

فحمل جند الشام حملة تضعضع لها جند مكة ، ثم عثرت بغلة ابن الزبير فنزل وصاح باصحابه : إلى الامام .

فأقبل اليه المسور بن مخرمة ، ومصعب بن عبد الرحمن بن عوف فقاتلا في أول الصف حتى قتلا . ولكن عبد الله لم يرجع ، بل ظل يضاربهم وهم يتراجعون حتى أقبل الليل ، وقد صبغت ثيابه بالدماء .

وطلع الصبح ، وأصحاب الحصين ينصبون المجانيق على الجبال ويعدون عدة الحصار .

على ان همة عبد الله لم تضعف.. كان ابن الحصين يمعن في العنف ، وابن الزبير ورجاله يدافعون دفاع الابطال الذين يؤثرون الموت على الاستسلام .

وقد استطاعوا بفضل ذلك الثبات المستمر أن يظفروا بعدوهم بعض الظفر، ويثبتوا له ، كلما تلاحمت الصفوف ، والتقت الخيل بالخيل ، إنهم الرجال البسلاء الذين لا يبالون بالمجانيق والعرادات ..

حتى طالت أيام الحصار ، ومرّ عليه شهران كاملان ؛ فرأى الحصين ، وقد خاف أن يفشل ، أن يرمي الكعبة بالمجانيق ويحرقها بالنار . وكان ذلك في اليوم الثالث من شهر ربيع الأول من السنة الرابعة والستين ونزلت الحجارة والنار .. فاحترقت الكعبة ..

وقد ضاقت صدور أهل مكة ،وهم معتصمون بالحرم الشريف ، يدافعون كلما رأوا مجالاً إلى الدفاع ، وتزيد رغبتهم ، في إيثار الموت على الحياة .

على ان جند الشام لم يكن ناعم البال ، فقد رأى ان الحصار سيمتد زمانه ، ويطول عهده ، وان مكة غير المدينة ، وعبدالله بن حنظلة ..

أي أن الجيشين كانا قد ملا القتال .. وبينا ابن الزبير يحدث رجاله وشيعته ، في البيت الحرام ، بأمر الحصار ، دخل رجل ، من أنصاره فسلم وقال : يا ابن الزبير ، اني أحمل اليك ، وإلى هؤلاء الناس ، بشرى يرقص لها هذا البيت .

فقال له وهو هادىء : تراجع الحصين ؟

قال : لا .

— وهل تخلى عنه أهل الشام ؟

— لا .

— إذن ماذا ؟

فرفع صوته قائلا : لقد مات يزيد ..

فارتجفت ركبتا عبدالله وقال : ويلك .. يزيد بن معاوية ؟..

— نعم وأنا أحمل نعيه إلى الحجاز ..

قال : أخشى والله أن تكون كاذباً .

قال : أقسم بهذا البيت أني رأيت جثته بعيني الاثنتين .

فقال اجلسوا .. ثم قال الرجل : أين كنت أنت ؟

– في حمص .

– ومات يزيد فيها ؟

– مات في حوارين .

– وهل كان مريضاً ؟

– سمعت بعضهم يقول : سقط عن جواده وكان ثملا ، فمات . وسمعت آخرين يقولون : مات بمرض .

– ومتى كان ذلك ؟

– في اليوم الرابع عشر من ربيع الأول .

– وأي رجل صلى عليه ؟

– ابنه خالد ، لأن ابنه الأكبر معاوية لم يكن حاضراً .

« وكان يزيد مطلا على الأربعين »

فسكت ابن الزبير وسكت القوم .. ولا نعلم في أي أمر كانوا يفكرون ..

ثم قال عبدالله : أبلغ النعي جيش الشام ؟

– لم يبلغ أحداً بعد .

– إذاً أنقله غداً بنفسي إلى الحصين ..

– وباتوا يتحدثون بأمر هذا الموت الفجائي .

وابن الزبير مستسلم إلى أحلامه .. حتى انتصف الليل فناموا كما ينام الحرس.

وعند الصباح، خرج ابن الزبير ووجهاء أصحابه من البيت، وجعلوا ينادون جند الشام قائلين : علام تقاتلون ؟ قد هلك طاغيتكم ..

فجعل بعضهم ينظر إلى البعض الآخر وهم لا يصدقون .. حتى قدم ثابت بن قيس النخعي، من أهل الكوفة ، ومعه طائفة من رجال العراق يريدون الكعبة فمروا بالحصين ، وكان ثابت صديقاً له ، فقال : ماذا حدث في الشام ؟

قال : مات يزيد .

فملأ الخبر الجيش ، في ساعة واحدة ، وازدادت الرغبة في ترك الحصار ،

والرجوع إلى الشام .

وخطر لإبن الحصين خاطر ، فدعا أحد رجاله فقال : تسير إلى إبن الزبير فتقول له : إن الحصين يريد أن يراك والموعد بينك وبينه الليلة بالأبطح ..

وكان اللقاء ؛ فقال الحصين : إن الخليفة قد هلك ، وأنت أحق النـــاس بالخلافة هلمّ فنبايعك وتخرج معنا إلى الشام فإن هـذا الجند الذي معي هم أعيان الشام وفرسانها ووالله لا يختلف عليك منهم إثنان.

ثم قال : تؤمن الناس وتهدر هذه الدماء التي كانت بيننا وبينك وبـين أهل الحرة وينتهي كل شيء ..

فرفع عبد الله صوته وقال : أنا لا اهدر الدماء ، والله لا أرضى أن اقتل بكل رجل منهم عشرة منكم ..

وجعل الحصين يتكلم سراً وهو يرفع صوته .

فقال الحصين عندئذ : قبح الله من يعدك بعد هذا داهية .. قـد كنت أظن أن لك رأياً اكلمك سراً وتكلمني جهراً وأدعوك إلى الخلافة وأنت لا تريـــد إلا القتل ..

قالها وتركه ، ثم أمر أصحابه بالرحيـــل إلى المدينة . وندم ابن الزبير على ما صنع .

فأرسل اليه يقول :

أما المسير إلى الشام فلا أفعله ، ولكن بايعوا هناك فإني مؤمنكم وعادل فيكم وذلك خير لـكم .

فأجابه قائلاً : إن لم تقدم بنفسك لا يتم لك الأمر فان هنالك ناساً من بني أمية يطلبونه ولا يتخلون عنه .

وأقبل الحصين إلى المدينة .. فاجترأ أهلها على جيشه وكان الواحد منهم لا ينفرد بجندي إلا أخذ دابته وسلبه ما معه . وغادر بنو امية المدينة مع الجيش إلى الشام . ولو خرج معهم ابن الزبير ، لاستقام له الأمر ولم يختلف عليه أحد .

٣٧

كان ينظر اليها وهي تنظر اليه ، والعيون تبوح بالهوى وتصف ما في القلبين من غرام .. وابو امامة وخولة يبكيان من الفرح .

أما سلمى فقد نسيت حزنها في تلك الساعة ، وأقبلت إلى الحبيبين تنصت إلى همس العاطفة ..

انه لقاء نسي معه العاشقان ، ذلك الفراق المر ، وبهجة محت كل ما كان من عذاب ، وشقاء ، وألم .

وكان الاثنان ، عبد الرحمن بن مسلم ، وعبد الرحمن بن الحصين ، قد بلغا الكوفة ، منذ ساعة . وكانت امامة تعد نفسها باللقاء ، وترى في كل ليلة طيف الحبيب .

ومرت ساعتان والقوم على ما رأيت ...

ثم قال عمرو : اما اخبار المدينة فقد انتهت الينا كما جرت ، ولكن ما هي أخبار مكة ؟

فقال ابن مسلم : ماذا يظن اهل الكوفة ؟

– يظنون ان الحصين سيخيب رجاؤه .

قال : بلغنا ونحن قادمان ، ان الحصار قد اشتد وان النصر في القتال الاول كان حليفاً لابن الزبير .

– وهذا ما نعرفه نحن .

– ولكن جيش يزيد سيضرب الكعبة بالمجانيق ..

– ايفعلها الحصين ؟

– اذا هو فشل في حصاره صنع كل شيء .

قال : خير له ان يخسر جيشه كله من ان يجترىء على البيت .

– تقول هذا انت ، اما يزيد ؛ فلا ينظر الا الى ملكه يبنيه على الجثث ، ويهرق على اركانه دماء الناس ... ولكنه ملك لا يعيش وسيجيء يوم يرى فيه يزيد هذا الملك ، نهباً مقسما بيد الله ...

وبرقت عيناه وجعل يقول : ذلك هو ايماني بالله .. وابن زياد ، هذا الطاغية الظالم . الذي تمشى الغرور والزهو في بردتيه ، سيعطي الله بعد حين ، حساباً عما فعل .

فقالت خولة : لا تحدثنا بهذا يا عبد الرحمن فالنفوس لا تستطيع الاحتمال .

قال : اتيت الكوفة لأتزوج ، ولكني اريد ان اعلم ، اي بلد اقيم به ، مع امامة ، بعد الزواج ؟

– الكوفة ، فهي بلدك وبلد ابيك وقومك .

فهز رأسه قائلاً : وهي في الوقت نفسه ، بلد عبيدالله بن زياد ، تخضع لسلطانه ، وتحني رأسها لظلمه ، وفيها الجلادون .. ورجال الشرط .. والحرس .. هؤلاء الناس ، الذين يقتلون ، كل يوم ، بريئاً من المسلمين .. ويحملون رأسه على الاسنة .

– ليس لنا مع هؤلاء شأن ، فليفعلوا ما يطيب لهم فلهم الله ...

– ولكن ابن زياد قاتل ابي ، وانا لا اعيش في البلد الذي يعيش فيه ..

قالت : دع عنك هذه الذكرى يا بني .

قال : أتريدين ان اتزوج امامة ، ثم اخرج الى المسجد ، فارى ابن زياد يخطب على المنبر .. وانا انظر الى وجهه .. واسمع صوته ... ثم تمتد يدي الى سيفي ، فأخرجه من غمده ، وانا لا ابالي بالموت ، وامشي الى الطاغية فاضربه به وانا اقول : مت يا قاتل ، ثم تتخطفني سيوف الحرس بعد ذلك ... أتريدين هذا ؟

– لا والله ، بل اريد ان تعيش سيداً آمناً ، في دار ابيك ، وحولك قومك بنو اسد ..

– لا اقدر على ذلك .

قالت : يقيم ابن زياد ستة اشهر بالبصرة ، ومثلها بالكوفة فاصنع انت كما يصنع . تقيم بالبصرة يوم يتركها هو ، وتعود الى الكوفة بعد ان يرحل .

قال : يكفي انه امير البلدين ، وله فيهما سلطان .

– وأي ارض تختار ؟

– المدينة ، فاعيش في ظل آل الحسين .

– لا نأمن عليك في بلد تشتعل فيه نار الثورة كل يوم .

والتفتت الى المرادي قائلة : هات يا عبد الرحمن .

قال : لي رأي ، ارجو ان توافقني امامة وعبد الرحمن فيه .

– ما هو ؟

– هو ان لا يتم الزواج اليوم !!

فجعلت أمامة تتفرس فيه ، وقلبها يضطرب .

ولكن امها أومأت اليها بان تصبر ثم قالت : ومتى يكون موعده ؟

– بعد ان ينتهي حصار الكعبة ..

فضحكت قائلة : ما هذا الرأي يا بني ؟

– انه الرأي الذي لا تجدين خيراً منه .

– ولكن أي شأن للحصار مع الزواج ، ونحن في الكوفة ، ومكة بعيدة عنا كما تعلم ؟

قال يريد عبد الرحمن،ان ينظر في امر ابن زياد قبل ان ينظر فيأمر زواجه .

– نعم .

ولكنه لا يستطيع ان يتبين شيئاً مما يريد ، الا اذا انتهى امر الحصار الذي ذكرت .

– وكيف ذلك ؟

– نحن أمام أمرين لا ثالث لهما ، اما ان يظفر ابن الزبير فيمسي العراق له، وتذهب دولة ابن زياد ، واما ان يفشل فيخيب الامل ، ويرحل عبد الرحمن من الكوفة الى حيث يشاء .

فقال عبد الرحمن : لقد رضيت بهذا .

– وأمامة ؟

فأجابته خولة قائلة : اما أمامة فلا ترضى الا على شرط ، هـــو ان يبقى عبد الرحمن في الكوفة لا يتركها الا بعد ان ينتهي الحصار ...

فقال الفتى : اني باق ولا يفصل بيني وبين امامة الا الموت .

– وتعدنا بانك لا تغادر الكوفة الا بعد زواجك ؟

– أعد بهذا، وان الرجل الذي استطاع ان يحتمل ويصبر على جور الزمان، بضعة أعوام ، يستطيع ان يصبر على هــذا الجور بضعة اشهر .

ثم قال للفتاة : ألك يا أمامة رأي غير هذا ؟

فقالت وهي مطرقة : ابقَ في الكوفة وافعل ما شئت ...

فضحك القوم وأحسوا جميعهم ان الهناء بدأ ينشر ظله في ذلك المنزل ، بعد تلك الكآبة الدائمة ...

٣٨

ان الزمان يمر ولا يهدأ ...

فبينا القوم في الـــكوفة ، يفكرون في حصار الكعبة ، ويسألون الوفود عنه ، أتاهم نعي يزيد ... فشمت الشامتون ، واسودت وجوه الاخرين ..

ثم بلغهم أن الحجاز بايع ابن الزبير ، وبايعت الشام معاوية بن يزيد ، فكان للإسلام خليفتان ، لكل خليفة منهما منزلته وشأنه .

ولم يتردد ابن الزبير فيما يصنع.. ولى أخاه عبيدالله المدينة،وجعل عبدالرحمن ابن جحدم الفهري عاملاً له على مصر . ثم أمر باخراج من بقي في المدينة من بني أمية ، إلى الشام ، فخرجوا ، ومعهم مروان بن الحـكم .. وعبدالملك بن مروان يومئذ ، ابن ثمان وعشرين سنة .

وقد انتهى مروان ومن معه إلى الشام ، قبل ان ينتهي إليها الحصين بن نمير حاملاً خيبة الرجاء .

وكان همّ عبد الرحمن بن مسلم أن يتتبع آثار ابن زياد في البصرة ويحصي عليه أنفاسه ، فأرسل عبد الرحمن المرادي ، من أجل هذه الغاية ، وأوصاه بأن يحمل اليه أخباره وأخبار القوم الذين يتشيعون له ..

وكان حمران ، مولى عبيد الله بن زياد ، قد حمل نعي يزيد الى سيده ، فقال له عبيد الله : أكتم الناس الخبر .. ثم أمرَ فدعا الناس إلى الصلاة .

فلما إجتمعوا صعد المنبر قال : أنعي لكم أمير المؤمنين ..

فقال الأحنف بن قيس : لقد كانت ليزيد في أعناقنا بيعة ..

فأعرض عنه ثم قال : « يا أهل البصرة ، ان مهاجرنا اليكم ومولدي فيكم ، وقد وليتكم وما يحصي ديوان مقاتليكم إلا سبعين الفاً ولقد احصى اليوم مئةالف، وما كان يحصي ديوان اعمالكم إلا تسعين الفاً ولقد احصي اليوم مئة وأربعين .. وما تركت لكم من اخافه عليكم الا وهو في السجن . وإن يزيد قد توفي ، وقد اختلف الناس بالشام، وأنتم اليوم أكثر الناس عدداً، وأعرضهم جاهاً ،وأوسعهم بلاداً فاختاروا لأنفسكم رجلاً ترضونه لدينكم وجماعتكم فأنا أول راض ، فان اجتمع أهل الشام على رجل ترضونه دخلتم فيما دخل فيه المسلمون ، وان كرهتم ذلك كنتم على أحد يليكم حتى تقضوا حاجتكم فما بكم إلى أحد من أهل البدان حاجة ولا يستغني الناس عنكم » .

فقام خطباء أهل البصرة فقالوا : قد سمعنا مقالتك وما نعلم أحداً أقوى عليها منك فهلمّ نبايعك .

قال : لا حاجة لي إلى ذلك .

فأعادوها مرتين وهو يأبى ، ثم بسط يده فبايعوه .. وخرج من المسجد بعد ساعة .

فانصرفوا ، وجعلوا يمسحون أيديهم بالحيطان ويقولون : أيظن ابن مرجانة إننا ننقاد له ..

وكان ابن الحصين المرادي معهم ، وقد سمع كل شيء . ثم لم يلبث حتى أتى دار الامارة ليتبين ما يصنعه ابن زياد .

فلما دخلها ، أبصر الناس ، وفيهم عمرو بن مسمع ، وسعد بن القرحاء فقال لغلام من غلمان القصر : لقد بايع أهل البصرة الامير فهل عرفت ذلك ؟

— أجل ، وقد أمر ابن مسمع وابن القرحاء بالذهاب إلى الكوفة ليدعوا أهلها إلى البيعة ويعلماهم بما صنعنا نحن .

— ومتى يذهبان ؟

— في هذا الليل .

فمكث ساعة ، حتى رأى الرجلين يركبان راحلتيهما ، فتقدمها على فرسه يمشي نهاره وليله حتى بلغ الكوفة وهما على بعد مرحلتين ، وقص على عبد الرحمن ما جرى .

فقال عبد الرحمن : من هو أجرأ رجل في الكوفة اليوم ؟

— يزيد بن الحرث الشيباني.

— ذلك الرجل الذي كان صديقاً لأبي ؟

— نعم .

— ولكنه لم يحمل سيفه قط .

قال : شهر سيفه في وجوه أعداء الاسلام وأغمده في الكوفة .

— وماذا تعلم من أمره . أيحب ابن زياد ؟

— أعلم انه لم يكن من أصحابه كما انه لم يكن من غلاة المتشيعين .

قال : أريد أن أراه الليلة ، ولكن لا تذكر ذلك لعمرو بن الحجاج .

قال : أتخشى أن يخونك ؟

— لا . ولكن أخشى أن ينهاني عن ذلك ، وتساعده امامة ، وأنا لا أرجع عما افكر فيه ..

— وماذا تقول للقوم ؟

— أقول لهم اني ذاهب إلى قومي بني أسد .

– إذن نسير عندما يجن الليل ، ولكن أتذكر لي غايتك ؟

– ستري وتسمع .

وخرجا عندما خيم الظلام ، فلما وصلا إلى منزل يزيد ، رأياه في الفناء ، وهو يحدث غلاماً له ..

فقال المرادي : لنا كلمة نقولها لك يا أبا شيبان .

فقال : أهلاً .

ثم عانق عبدالرحمن بن مسلم وجعل يقول : لقد طال بعادك .

قال : انك تعلم أسباب هذا البعاد .

ودخلوا الدار فقال يزيد : سيقتل الله اولئك الذين قتلوا الحسين وأصحابه .

– بل يرفع الله بعضهم إلى العروش .

– أتقول هــــذا وأنت مؤمن ؟ ألا تعلم ان الله يسحق الظالمين ويحطهم إلى حضيض الهوان ، ثم يبعث بهم إلى النار ؟

– كنت أعلم ذلك من قبل .

– واليوم ؟

– أما اليوم فقد ضعف هذا الإيمان ، عندما رأيت الناس يبايعون ابن زياد الظالم ويولونه الأمر بعد يزيد .

فاضطرب الرجل وقال : لو قص عليّ غيرك هذا الخبر لخطر لي أنه يهزأ بي. من قال لك ذلك ؟

فقال ابن الحصين : أنا ..

– ومن هم الناس الذين بايعوا ابن زياد ؟

– أهل البصرة .. ولكنهم مسحوا أيديهم بالحيطان بعـــد خروجهم من المسجد . وسمعت بعضهم يقول : لا نخضع لابن مرجانة .

فابتسم قائلاً : بيعة خداع واستهزاء .. وهذا كل ما رأيت ؟

– لا ، فابن زياد لم يكتف بما فعل ، بل أرسل إلى الكوفة رجلين يطلبان إلى أهلها أن يبايعوه هما : ابن مسمع وابن القرحاء .

– وقدما الليلة ؟

– تراهما في الكوفة غداً .

فاستوى جالساً وقال : والله لا يبايع رجـــل كوفي وأنا حي ، والويل لعمرو بن حريث إذا أكره الناس على الأمر .

فقال الأسدي : أتستعين بالرجال يا أبا شيبان ؟

– إذا رأينا أننا في حاجة إلى حمل السيف حملناه ..

قال : لا تنس أن تجعلني في الطليعة ..

– وهل يطيب لك القتال وابن زياد بعيد ؟

– يطيب لي أن أبذل دمي من أجل غـــاية واحدة هي أن أنقذ المسلمين من ظلمه .

قال : طب نفساً فليس في الأمة من يرضاه .

فنهض قائلاً : موعدنا غداً .

قال : إذا دعا ابن حريث الناس الى المسجد فلا تترددا في المجيء وعلي الباقي .

فانصرفا إلى بني أسد فقالا لهم : إذا سألكم أحد غداً أو بعد غد ، أن تبايعوا ابن زياد فافعلوا ما يفعله يزيد بن الحرث ، فقالوا لعبد الرحمن : بل نفعل ما تفعله أنت ، فأنت سيد العشيرة بعد مسلم ..

فشكرهم ، وعاد الاثنان إلى منزل عمرو والاسدي يقول : دعني احـــدث عمراً بالأمر الليلة وامامة حاضرة .

ولم يكن خبر البيعة قد انتهى إلى ابن الحجاج ، فلما أقبلا ، قال عمرو لابن الحصين : لم تقص علينا شيئاً من أخبار البصرة .

قال : نقلت هذه الأخبار إلى عبد الرحمن وهو ينقلها اليك .

قال : هات يا بني ؟

قال : لقد بايع أهل البصرة صاحبك بعد يزيد .

– عبيد الله ؟

– نعم وسيأتينا غداً رجلان يطلبان الينا أن نبايع ..

– وهل نسي ابن زياد أن للخليفة الذي نعي الينا، أحد عشر ولداً ، أكبرهم معاوية ، وجميعهم أحق منه ؟

قال: لم يعرف هذا الطاغية الحق من قبل ، ليعرفه اليوم.. قيل له أن يزيد قد مات ، فخطر له أن يجعل المسلمين جميعهم عبيداً له ..

– ولكنه أضعف من أن يبلغ غايته .

قال : سيدعوك ابن حريث غداً ويأمرك بأن تبايع فماذا تصنع ؟

قال : لا أفارق الجماعة.. إذا بايع القوم ابن الزبير بايعته وإن بايعوا معاوية ابن يزيد ، فعلت .

– وإذا بايعوا ابن زياد ؟

– لا يبايع الناس جميعهم ابن زياد ، وهب انهم فعلوا فأنا لا أفعل.

– وتسكت ؟

– أركب راحلتي وأترك الكوفة إلى حيث تشاء ..

– إذن إلى الحجاز ..

– نعم إلى الحجاز وسيغفر ابن الحسين لي ..

فقالت امامة : إن الله لا يريد بالمسلمين سوءاً ولا يجعلهم رعية لهذا الظالم .

فقال أبوها : ليس لنا إلا أن نصبر يومين وإني واثق بأن القدر وإن جار لا يستطيع أن يرفع الرجل إلى العرش ..

وباتوا ليلتهم وابن الحصين والاسدي مؤمنان بما قال لهما يزيد بن الحرث سيد بني شيبان .

٣٩

قدم الكوفة ، في مساء اليوم الثاني ، رسولا ابن زياد . وأتيا ابن حريث

وهو في قصر الامارة فخبراه بما حدث ، وطلبا اليـــه أن يدعو الناس غداً إلى المبايعة .

فوعدهما بأن يفعل ، ولكنه لم يكن واثقاً بأهل الكوفة . فلما كان الصبح جمع ابن حريث الناس ..

وقام الرسولان فخطبا قائلين : ليس فينـــا أصلب عوداً وأعز جانباً من عبيد الله بن زياد وقد بايعه أهل البصرة فبايعوه .

وكان ابن مسلم وابن الحصين ، وراء يزيد ، وخلفه بنو شيبان وبنو أسد ، ووجهاء الكوفيين ..

ثم جعل الخطيبان يصفان ابن زياد ، والناس يصغون اليها ولا يقولون كلمة.

فقام يزيد عندئذ فقال: « الحمد لله الذي أراحنا من ابن سمية ، أنحن نبايعه؟ لا والله » .

ورماهما بالحصى ثم رماهما الناس بعده .

وارتفعت الأصوات تقول : لا والله ، لا نفعل .

فتراجع ابن حريث والرسولان واحتجبوا عن العيون .

وجعل القوم يدعون ليزيد بن الحرث منقذ الكوفة ، وقد شرفه ذلك العمل ورفعه إلى العلاء ..

ولم يلبث الرسولان حتى تركا البلد راجعين إلى البصرة ، في ظلام الليـل ، وأحدهما يقول للآخر : ان الله لا يريـــد أن يتولى ابن زياد أمور المسلمين . حتى دخلا عليه وخبراه .

وعبدالرحمن بن الحصين المرادي في الوقت نفسه يخبر أهل البصرة بما فعله أهل الكوفة .

أجل ، ان عبدالرحمن رجع إلى البصرة في الساعة التي رجع فيها ابن مسمع وابن القرحاء .

فجعل القوم يقولون : أيخلعه أهل الكوفة ونوليه نحن ؟ ان هذا لن يكون.

وأتاه من ينقل إليه هذا القول .

فضعف سلطانه وزالت هيبته حتى أنه كان يأمر بقضاء أمر فلا يقضى له ، ويرى الرأي فيرد عليه ، ويأمر بحبس المجرم فيخرج الحرس إلى القبض عليه فتحول عشيرته بينهم وبينه كأن ابن زياد غير موجود ..

وبعد بضعة أيام أقبل الى البصرة سلمة بن ذؤيب وهو من تميم فوقف في السوق وبيده لواء وجعل يقول : ايها النـــاس هلموا الي ، اني ادعوكم الى ما لم يدعكم اليه أحد . ادعوكم الى العائذ بالحرم ، وهو يعني عبد الله بن الزبير .

فاجتمع الناس حوله وجعلوا يصفقون على يديه ويبايعونه .

فبلغ الخبر ابن زياد فجمع الناس وخطب قائلاً :

يا أهل البصرة : دعوتكم الى من ترضون ، فبايعتموني وأبيتم غيري ،ثم بلغني انكم مسحتم اكفكم بالحيطان وقلتم ما قلتم ، واني اليوم آمر بالامر فلا ينفذ ويرد علي رأيي ويحال بين اعواني وبين المجرم ...

وسكت قليلاً ثم قال : هذا سلمة بن ذؤيب ، يدعو الى الخلاف ، ليفرق جماعتكم ويضرب بعضكم رقاب البعض الآخر بالسيف فماذا تصنعون ؟

فقال الأحنف : نحن نأتيك بسلمة ، وكان القوم قد كثروا حول الرجل وهم يبايعون ابن الزبير . فأرسل الاحنف من يقول لابن زياد : ان الفتق قـد اتسع وقد قصد الناس عنك ، فدعا رؤساء الفرق فقال : قاتلوا معي هؤلاء القوم .

قالوا: إن أمرنا قوادنا فعلنا ...

فقال له اخوته : ليس لنا خليفة تقاتل عنه وترجع اليه اذا هزمت .. وقد تكون هذه الحرب عليك ، ونحن قد اتخذنا بين هؤلاء القوم اموالا فان ظفروا بنا اهلكونا واهلكوها فلا تبقى لنا بقية .

فارسل الى الحرث بن قيس الازدي فأتاه فقال : « يا حرث ، ان ابي أوصاني اني ان احتجت الى العرب يوماً ان اختارك ، وقد اخترتك الآن » .

فقال : إن قومي قد اختبروا أباك فلم يجدوا عنده مكاناً ولم يجدوا عندك مكافأة ووفاء ، ومع ذلك فأنا لا أردك . غير أني لا أدري كيف يكون هذا

الأمان لك ، اني ان أخرجتك نهاراً أخاف أن تقتل وأقتل ، ولكني أقيم معك إلى الليل ثم أردفك خلفي لئلا تُعرف » .

قال : نعم ما رأيت ، وأقام الحرث بقصر الامارة حتى أقبل الليل فحمله خلفـــه . وكان في بيت المال تسعة عشر الف الف ، ففرق ابن زياد بعضها في مواليه ، وحفظ الباقي لآل زياد . ومشى الحرث به ، فكان يمر على الناس وهم يتحارسون ، وعبيد الله يسأله أين نحن ، والحرث يخبره ، حتى انتهيـــا إلى بني سليم ، فقال عبيد الله : اين نحن الآن ؟

– في بني سليم .

قال : سلمنا ان شاء الله .

فلما أتيا بني ناجية ، قال : أين نحن ؟

– في بني ناجية .

قال : نجونا ان شاء الله.

فقال بنو ناجية للحرث : من أنت ؟

قال : الحرث بن قيس. وكان رجل منهم يعرف عبيدالله فقال: ابن مرجانة؟

وأرسل سهماً فوقع في عمامته . وطارت فرس الحرث بالاثنين حتى نزلا في دار الحرث نفسه .

فقال ابن زياد : لقد أحسنت يا ابن قيس فاصنع ما أشير به عليك .

قال : ماذا ؟

قال : قد علمت منزلة مسعود بن عمرو ، في قومه الأزد ، وعرفت شرفه وسنه ، فهل لك أن تذهب بي إليه فأكون في داره ؟ انك ان لم تفعل أفسد قومك عليك الأمر ..

فأخذه الحرث فدخلا على مسعود وهو جالس وحده ، فلما رآهما عرفهما ، فقال للحرث : أعوذ بالله من شر ما طرقتني به .

قال : ما طرقتك إلا بخير ، قد علمت ان قومك أحيوا زياداً ووفوا له ، فصارت مكرمة يفتخرون بها على العرب ، وقد بايعتم عبيدالله بيعة الرضى ..

قال : أترى لنا أن نعادي أهل البصرة في عبيد الله ولم نجد من أبيه شكراً على ما صنعنا معه ؟

قال : لا يعاديك أحد على الوفاء حتى ينجو عبيد الله ، أفتخرجه من بيتك بعدما دخله عليك ؟ فأدخله مسعود بيت أخيه عبد الغافر بن عمرو ..

ثم ركب من ليلته ، ومعه الحرث وجماعة من قومــــه ، فطافوا في الأزد وكانوا يقولون : ان ابن زياد قد فقد ، ونحن لا نأمن أن يقول الناس غداً أنه بيتنا،فاذا أصبحتم فأصبحوا في السلاح.وأفاقت البصرة في اليوم الثاني وليس لها أمير.

فعهد القوم إلى قيس بن الهيثم السلمي ، والنعمان بن سفيان الرامي ، في ان يختارا لهم اميراً . وكان رأي قيس في بني أمية ، ورأي النعمان في بني هاشم .

فقال النعمان : ما ارى احداً احق بهذا الامر من فلان الاموي ..

وكان هوى قيس فيه ... وانما قال النعمان ذلك ، خديعة ومكرا ...

فقال قيس : قد قلدتك امري ورضيت من رضيت . ثم خرجا الى الناس ، فقال قيس : قد رضيت الرجل الذي يرضاه النعمان .. فاخذ النعمان العهود على الناس بالرضى.ثم أتى عبد الله بن الأسود وأخذ بيده حتى ظن الناس انه ولاه الأمر.ثم تركه وأخذ بيد عبد الله بن الحرث بن نوفل وهو من بني هاشم ، من بني عبد المطلب .. ثم حمد الله وذكر النبي ، وحق أهل بيته وقرابته إلى أن قال : أيها الناس لقد اخترت لـكم رجلا من بني عم نبيكم هو هذا .

فقالوا: قد رضينا ، وكان بنو الأزد ، وبنو ربيعة ، قد اتفقوا على أن يردوا ابن زياد إلى أمارته وقد بذل ابن زياد مالاً كثيراً من أجل ذلك . ومشوا في الأحياء ورئيسهم مسعود بن عمرو ، وقد سألوا ابن زياد أن يسير معهم فأبى .

وخرجت ربيعة وعليها مالك بن مسمع . حتى دخل مسعود المسجد،فصعد المنبر وعبد الله بن الحرث في دار الأمارة فقيل له: إن مسعود وأهل اليمن وربيعة قد خرجوا ، وسيهيج النـــاس فلو ركبت في بني تميم وأصلحت بينهم .

قال : لا افسد نفسي في اصلاحهم أبعدهم الله . ودخل مالك بن مسمع حي بني تميم . فأتى بنو تميم الأحنف ، فقالوا له : يا ابا بحر إن ربيعة والأزد قــد

تحالفوا وساروا الى الرحبة فدخلوها وهم الآن بالمسجد .

قال : لستم أحق بالمسجد منهم .

قالوا : وقد دخلوا دار الامارة .

قال : لستم أحق بالدار منهم !

فأتته امرأة بمجمر وقالت : ما لك وللرياسة إنما أنت إمرأة تتجمر !

فقال : ليست امرأة أحق بالمجمر منك .

ثم اتوه فقالوا : لقد قتلوا الضياع التي على طريقك ، وقفلوا المقعد الذي على باب المسجد ، ودخل مالك بن مسمع دور قومك .

فقال : أقيموا البينة على هذا ففيه ما يحل قتالهم .. فشهدوا على ذلك .

فانتزع معجراً في رأسه ، وعقده في رمح ، ثم دفعه إلى عبس بن طلق بن ربيعة وقال له : سر ، فصاح الناس : هاجت زبرا . « وزبرا أم الأحنف » .

فلما وصل عبس إلى المسجد ، قاتل الازد على أبوابه ومسعود على المنبر ، يهيج الناس .. فأتاه بنو تميم واستنزلوه ، ثم قتلوه .

وكان القوم قد خبروا ابن زياد أن مسعوداً صعد المنبر ، فتهيأ للمجيء إلى دار الأمارة .

ثم خبروه ان مسعوداً قد قتل .

قال : لم يبق إلا الفرار إلى الشام .. وخرج من يومه ، ومعه ناس بينهم مسافر بن شريح اليشكري .

فبينا هم يسيرون ذات ليلة . قال ابن زياد : لقد ثقل علي ركوب الإبل .

فجعلوا له قطيفة على حمار ، فركبه ثم سار وهو مطرق ، فقال مسافر بن شريح في نفسه : لئن كان نائماً لأوقظنه ، ثم قال له : أنائم أنت ؟

ــ لا ، وإنما كنت أحدث نفسي ..

قال : الا احدثك بما كنت تحدث به نفسك ؟

قال : هات .

قال : كنت تقول ليتني لم أقتل الحسين ..

– وماذا أيضاً ؟

– وكنت تقول ليتني لم اقتل من قتلت ..

– وماذا ؟

– وكنت تقول ليتني لم استعمل رجال الفرس على الجباية .

– وماذا ؟

– وكنت تقول ليتني كنت أسخى مما كنت .

فقال : أما قتلي الحسين ، فقد أشار يزيد بقتله أو قتلي فاخترت قتله . وأما قولك ليتني لم اقتل من قتلت فما عملت بعد كلمة الاخلاص عملا هو أقرب إلى الله عندي من قتل من قتلت من الخوارج ، وأمـــا استعمال رجال فارس ، فإن عبد الرحمن بن أبي بكرة أراد أن يسعى بي ، فقال لمعاوية ما قال ، وبلغ خراج العراق مئة الف ألف ، فخيرني معاوية بين العزل والضمان ، فكرهت العزل وكنت إذا استعملت العربي كسر الخراج فإن غرمت عشيرته أوغرت الصدور ، وإن تركته تركت مال الله وأنا أعرف مكانه ، فوجدت الدهاقين أبناء فارس أبصر بالجباية وأهون بالمطالبة منكم مع إني قد جعلتكم امناء عليهم لئلا يظلموا أحداً ، وأما قولك في السخاء فما كان لي مال فأجود به عليكم ، ولو شئت لأخذت بعض مالكم فوهبته لبعضكم دون البعض الآخر فيقولون : ما أسخاه .. ولكن اسمع ما قلته في نفسي ، قلت ليتني كنت قاتلت أهل البصرة فانهم بايعوني طائعين ، وليتني أخرجت أهل السجن فضربت أعناقهم ..

ثم سكت وسكت ابن شريح ، وقد اكتفى الواحد منهما بما سمعه من الآخر.

●

عرفت الكوفة ، من عبد الرحمن بن الحصين ومن سواه أن أمر البصرة قـد انتهى وان ابن زياد غادرها إلى الشام .

فاجتمع الناس وعزلوا ابن حريث وقالوا : نؤمّر علينا رجلاً إلى أن يجتمع الناس على خليفة . ثم رأوا أن يختاروا عمر بن سعد .. فمد ابن مسلم وابن الحصين

اصبعيها .. وأقبلت نساء همدان في صباح اليوم الثاني يبكين الحسين والرجال وراءهن متقلدو السيوف .. وأطافوا بالمنبر .

فقال محمد بن الأشعث : لقد جاء غير ما كنا فيه .. وكانت كندة تقوم بأمر عمر بن سعد لأنهم أخواله . فقالوا للقوم: نختار عمر بن مسعود الجمحي. فوافقوهم في الرأي ، وكتبوا بذلك إلى ابن الزبير .

فاعترف به عاملاً ، ثم أرسل اليهم بعد ذلك عبد الله بن يزيد الخطمي الأنصاري ، فكان على الصلاة ، وابراهيم بن محمد بن طليحة على الخراج .

وجعل محمد بن الأشعث على الموصل ، وعمر بن عبيدالله بن عمر التميمي على البصرة ، وعبيدالله بن حازم على خراسان ..

وأقام القوم ينتظرون ما تفعله الشام ، فقد بلغهم ان معاوية ابن يزيد يرغب عن الخلافة ..

٤٠

بويع معاوية في الشام كما علمت ،فلبث معظم أيام خلافته محجوباً عن العيون ، ثم خرج بعد ذلك فجمع الناس وقال :

« أما بعد ، فاني ضعفت عن أمركم وقد ابتغيت لكم مثل عمر بن الخطاب حين استخلفه أبو بكر فلم أجده ، فابتغيت ستة مثل ستة الشورى فلم أجد ، فأنتم أولى بأمركم فاختاروا له من أحببتم .. »

ثم دخل منزله وتغيب فيه حتى مات .. « وقيل انه مات مسموماً » وكانت خلافته ثلاثة أشهر . وقال بعضهم ، كانت أربعين يوماً ، وقد مات وعمره إحدى وعشرون سنة ، بعد أن أوصى الضحاك بن قيس بأن يصلي بالناس ، حتى يقوم لهم خليفة . وقد قيل له قبل موته : استخلف يا أمير المؤمنين .

فقال : لا أتزود مرارتها وأترك لبني أمية حلاوتها .

وكان ليزيد احد عشر ولداً هم : معاوية ، وخالد ، وأبو سفيان ، أمهم فاختة ابنة أبي هاشم بن عتبة بن ربعة ، وقد تزوجها بعده مروان بن الحكم ، وعبدالله ، وأمه أم كلثوم بنت عبدالله بن عامر ، وعبدالله الأصغر ، وعمرو ، وأبو بكر ، وعتبة ، وحرب ، وعبدالرحمن ، ومحمد ، لأمهات شتى .

وبعد موت معاوية ، كثرت آراء بني أمية ، هذا هواه في خالد بن يزيد ، وهذا هواه في عمرو بن سعيد بن العاص ، وهذا يرغب في خلافة مروان .

ومروان في بلد قريب من دمشق .

فأتاه الحصين بن نمير ، فقال له ولمن حوله : نراكم في اختلاف ، فاختاروا خليفتكم قبل أن تستعر النار ، وتكون فتنة عمياء صماء .

وكان من رأي مروان أن يسير إلى مكة فيبايع ابن الزبير . ولكن القدر أرسل إليه رجلا غير رأيه ، ولم يكن ذلك الرجل ، غير عبيدالله بن زياد ..

قدم عبيدالله من العراق ، وقد بلغه ما يريد مروان .

فأقبل إليه فقال: بلغني أنك تريد أن تبايع أبا خبيب ،« كنية ابن الزبير »

قال : نعم أريد ذلك .

قال : والله قد استحييت لك من هـــذا .. أنت كبير قريش تمضي إلى أبي خبيب فتبايعه ؟ فتردد مروان ثم قال : ما فات شيء بعد ..

وقام بنو أمية ومواليهم الذين حوله يدعونه إلى ترك رأيه ، والذهاب إلى دمشق ، وساعدهم في ذلك أهل اليمن . فسار إلى دمشق .. وكان الضحاك بن قيس يصلي بالناس ، ويقيم لهم أمرهم وهو في السر ، من أنصار ابن الزبير .

وزفر بن الحرث الكلابي ، في قنسرين ، يبايع لابن الزبير ، والنعمان بن بشير بحمص ، يبايع له .

أما حسان بن مالك ، في فلسطين ، فكان يريد بني أمية ، وقد استخلف على فلسطين ، روح بن زنباع ، وسار إلى الاردن يدعو النـــاس إلى بيعة واحد من هؤلاء. فقام ناتل بن قيس ، فأخرج ابن زنباع من فلسطين وبايع لابن الزبير،

وكان حسان قد جمع أهل الاردن وقال لهم: ما شهادتكم على ابن الزبير وقتلى الحرة؟

قالوا : نشهد انه منافق وان قتلى الحرة في النار .

قال : فما شهادتكم على يزيد وقتلاكم بالحرة ؟

قالوا : نشهد انه على حق وان قتلانا في الجنة .

وأنا أشهد لئن كان يزيد وشيعته على حق انهم اليوم على حق ، ولئن كان ابن الزبير وشيعته على باطل انهم اليوم عليه .

قالوا : صدقت ، نحن نبايعك على أن نقاتل من خالفك وأطاع ابن الزبير ، ولكن على شرط .

— ما هو ؟

— هو ان تنحي هذين الغلامين ، خالداً وعبد الله ، ولدي يزيد ، فانا نكره أن يبايع الناس شيخاً ونبايع نحن صبياً ..

فكتب حسان الى الضحاك كتاباً يعظم فيه حق بني أميـــة وحسن بلائهم ويذم ابن الزبير .

وقد جاء في كتابه : إني قد خلعت خليفتين فاقرأ كتابي على الناس .

وكتب في الوقت نفسه كتاباً آخر سلمه إلى الرسول ، واسمه باغضة وقال له : ان قرأ الضحاك كتابي فقد انتهى الأمر وإلا فاقرأ أنت هذا الكتاب .

وقدم باغضة ، فدفع كتاب الضحاك اليه ، وخبر بني أمية ، فلما كانت الجمعة صعد الضحاك المنبر فقال باغضة : إقرأ كتاب حسان .

فقال له الضحاك : اجلس ، فأعادها مرتـــين وهو يقول له : اجلس ، حتى قام فأخرج كتابه وقرأه على الناس .

فقام قوم من بني غسان وكلب ، فصدقوا حساناً وشتموا ابن الزبير وقـــام آخرون ففعلوا غير ذلك ... وخاف الناس الفتنة .

وبعد خلاف قصير العمر ، اعتـــذر الضحاك إلى بني أمية انه لا يريد ما يكرهون وأمرهم بأن يكتبوا الى حسان ليسير من الاردن إلى الجابية ويسيروا هم من دمشق فيجتمعوا معه هناك ، ويبايعوا الرجل الذي يختارون .. ففعلوا

ما امرهم به. ثم ساروا والضحاك معهم يريدون الجابية . فأتاه ثور بن معن السلمي فقال : دعوتنا إلى ابن الزبير فبايعناك على ذلك وأنت تسير إلى هذا الاعرابي من كلب تستخلف ابن اخته خالد بن يزيد ؟

قال : فما الرأي ؟

– الرأي أن تظهر ما كنا نكتم .

فرجع الضحاك ومن معه من الناس فنزل مرج راهط ودمشق بيده .

واجتمع بنو أمية وغيرهم مع حسان وهو يصلي بهم اربعين يوماً وهم يتشاورون.

وكان مالك بن هبيرة السكوني يميل إلى خالد بن يزيد ، والحصين بن نمير يميل إلى مروان ، فقال مالك للحصين : لقد عرف هذا الغلام منزلتنا من أبيه ، فإذا بايعناه حملنا غداً على رؤوس العرب . « وهو يعني خالداً » .

فقال الحصين : لا والله ، لا تأتينا العرب بشيخ ونأتيها بصبي .

قال : والله لئن استخلفت مروان ليحسدك على سوطك وشراك نعلك وظل شجرة تستظل به .. ان مروان أبو عشيرة وأخو عشيرة فان بايعتموه كنتم لهم عبيداً .

قال : رأيت في المنام قنديلا معلقاً من السماء ، وان من يلي الخلافة يتناوله فلم ينله أحد إلا مروان .

وقام روح بن زنباع فقال : أيها الناس ، انكم تذكرون عبدالله بن عمر بن الخطاب وصحبته وقدمه في الاسلام ، وهو كما تذكرون ، ولكنه ضعيف وليس بصاحب أمة محمد . وتذكرون ابن الزبير ، وهو ابن حواري رسول الله ﷺ ، وابن ذات النطاقين ، اسماء ، بنت أبي بكر ، ولكنه منافق قد خلع خليفتين يزيد ومعاوية ، وسفك الدماء ، وشق عصا المسلمين ، وليس المنافق بصاحب أمة محمد . وأما مروان بن الحكم ، فوالله ما كان في الاسلام صدع إلا كان ممن يعالجه ، وهو الذي قاتل ابن أبي طالب يوم الجمل ، وانا نرى ، أن يبايع الناس الكبير ، ويستشيروا الصغير .. « يعني بالكبير مروان ، وبالصغير خالداً » .

فاجتمع رأي القوم ، على البيعة لمروان ، ثم لخالد بن يزيد ، ثم لعمرو بن

سعيد بن العاص ، على ان تكون أمارة دمشق لعمرو وامارة حمص لخالد .

ثم دعا حسان خالداً فقال له : يا ابن أختي ، إن الناس قد أبوك لحداثة سنك ، واني والله ما أريد هذا الأمر إلا لك ولأهل بيتك ، وما أبايع مروان إلا نظراً لكم .

قال : بل عجزت عنا .

– والله ما عجزت عنكم ولكن الرأي ما رأيت .

وتمت البيعة لثلاث خلون من ذي القعدة ، سنة أربع وستين .

●

رأى الخليفة الجديد ، أن الأمر لا يستقيم له إلا إذا ظفر بالضحاك بن قيس ، الذي يوغر الصدور عليه .

وكان الضحاك في مرج راهط ، وقد استمد النعمان بن بشير عامل حمص ، فأمده ، وفعل مثل ذلك زفر بن الحرث وهو على قنسرين ، وناتل بن قيس ، وهو على فلسطين وانضوت جنودهم تحت لوائه .

وانضم إلى مروان ، بنو كلب ، وغسان ، والسكون ، وقد جعل على جناح الجيش الأيمن ، عمرو بن سعيد بن العاص ، وعلى الجناح الأيسر ، طاغية الكوفة عبيدالله بن زياد .

وكان يزيد بن الغمس الغساني ، مختفياً بدمشق لم يشهد الجابية ، فلما انصرف الضحاك الى المرج ، تصدى لعامله في عاصمة الخلافة ،واخرجه منها بحد السيف، واستولى على بيت المال ، ثم بايع لمروان،وبعث اليه بالاموال والرجال والسلاح. فكان ذلك اول فتح في عهد ابن الحكم ...

واستعرت نار الحرب بين الضحاك ومروان في المرج عشرين ليلة اقتتل فيها الجيشان قتالا لم يرَ أشد منه ... حتى قتل الضحاك وقتل معه ثمانون رجلاً من اشراف الشام وطائفة كبيرة من رجال البأس .

فلما رأى مروان رأس الضحاك ساءه ذلك وجعل يقول : الان ، حين

كسرت سني ودق عظمي اقبلت بالكتائب اضرب بعضها بالبعض الاخر ؟...
وجعل يلوم نفسه على ما فعل .

وكان اهل حمص قد فروا ،فلما علم النعمان بن بشر ان مروان ظفر بالضحاك خرج من حمص ليلا ، ولكن القوم طلبوه في اليوم الثاني فقتلوه..

وفر زفر بن الحرث صاحب قنسرين ، الى قرقيسيا ، وناتل بن قيس صاحب فلسطين الى الحجاز ... وخلا الجو في الشام لمروان .

ولكن بقيت مصر ، فالشام لا تتخلى عنها ولا يطيب لبني امية ان تكون لابن الزبير . وخطر لمروان ان يسير اليها بنفسه ، وهو يعلم ان عبد الرحمن بن جحدم القرشي يدعو الناس الى مولاه ... وترك الشام زاحفاً الى مصر .

فلما بلغ قدومه الأمير القرشي ، خرج الى لقائه فيمن معه ، فقال مروان لعمرو بن سعيد : سر الى مصر فليس فيها امير الآن .فسار عمرو حتى دخلها .

فلما عرف ابن جحدم ذلك ، رجع وقد غلب على امره . فبايع المصريون مروان ، وعاد الى الشام ، وقد جعل عامله على مصر ، ولده عبد العزيز .

فلما قارب دمشق ، انتهى اليه ان عبدالله بن الزبير ، ارسل اليها اخاه مصعبا في جيش من اهل الحجاز . فعهد الى عمرو بن سعيد ، في رد مصعب .

ومصعب بن الزبير ، فارس شجاع ، لم يكن في رجال اخيه عبد الله فارس مثله . فقاتله عمرو ، قبل ان يدخل الشام ، فهزمه .

ودانت الشام ومصر لمروان .

٤١

هذه خولة وسلمى ، وعمرو بن الحجاج وابن الحصين وامامة وعبد الرحمن جميعهم في منزل هانيء ، في ليلة شديدة الحر . وهم يتحدثون بشؤون العراق ، وماضيه الذي مر .

وكان ابن الحصين يبتسم ، ثم قال لعبد الرحمن : هـذا العراق ، امسى اقليما من اقاليم دولة الحجاز ، وهذا ابن زياد لحق بمروان بن الحكم في الشام ولم يبق له في العراق ظل فاذا طاب لك ان تتزوج فافعل ..

فضحك قائلاً : لقد خطر لي ان احدثكم بهذه الليلة ، ولكني عرفت ان امامة ليست راضية فقد انساها هواها ، فرار الطاغية الى دمشق وتخليه عن الامارتين ..

فاجابته وهي تضحك مثله :

ومن يعلم ، فقد اخرج من الكوفة في ظلام الليـل لألحق به الى عاصمة الامويين فأقول له : لا يطيب لي في الكوفة عيش الا اذا رجعت ..

قال : ولا تنسي ان تقولي له : ان عبد الرحمن يفديك بالمال والروح .

فقالت سلمى : قلبي يحدثني بان ابن زياد لا يموت حتف انفه ..

وجعل كل واحد منهم يقول كلمة والبشر يطفح على الوجوه .

وكان عمرو ساكتاً فقال : اما انا فاخشى ان يمد الموت يده الي قبـل ان ارى امامة زوجة لعبد الرحمن ..

فقالت خولة : تزفها الليلة...

وقالت سلمى : في هذه الساعة .

فقام المرادي فقـال : وانا اتولى الامر وارى من يحب ان يراه ... وخرج يعد العدة وهو لا يلتفت الى احد .

وتبعه عمرو وهو يقول : اصبر ، فالامر يقضي بأن أذهب معك . ولم يقض الهزيع الثاني من الليل ، حتى أمسى العاشقان زوجين ..

وكانت امامة تقول : اللهم انت الذي جمعتنا فلا تفرق ..

وعبد الرحمن يقول : كل شيء يهون الا الفراق ....

وسألته عند الصباح قائلة : أي الرجلـين احب اليك ، عبدالله بن الزبير او مروان ؟

قال : لا احب الاثنين ، وليس لي رأي ، في احدهما ، ولكن لي رجـاء

ارجو ان لا يخيب هو ان يقتل الله قتلة الحسين ويجعلهم عبرة لكل ظالم ...

واقبلت وفود الكوفيين ، في اليوم الثاني ، تصافح العروسين ، وقد مد الهناء رواقه فوق المنزل الذي يقيمان به .

وقد عول عبد الرحمن ، ان ينظر الى التيار السياسي في الدولتين ، دون ان يتشيع لاحد .

وعول ابن الحصين ، على قضاء حياته كلها مخلصاً للزوجين ، اللذين احبهما الحب كله ..

اما ابن الحجاج ، فقد كان خائفاً .. وهو لا يعلم سبباً لخوفه ، غير اشتراكه في قتل من قتل يوم كربلاء ..

●

لما قتل الحسين ، رأى رجال الشيعة في الكوفة انهم اخطأوا خطأ كبيراً بدعوتهم الحسين ، وتركهم نصرته حتى قتل الى جانبهم . ورأوا انه لا يغسل عارهم الا قتل من قتله .

فاجتمعوا ، ورؤساؤهم خمسة : سليمان بن صرد الخزاعي ، والمسيب بن نجبة الفزاري وعبد الله بن سعد بن نفيل ، وعبد الله بن وال التيمي ، ورفاعة بن شداد البجلي ، وجميعهم من خيار اصحاب علي .

فبدأ المسيب بن نجبة فقال : اما بعد فقد كنا مغرمين بتزكية انفسنا فوجدنا الله كاذبين ، في كل موطن من مواطن ابن بنت نبيه .. لقد وعدنا الحسين بان نكون اعوانا له ، فلما جاء ، بخلنا عليه بانفسنا حتى قتل الى جانبنا ، لا نحن نصرناه بايدينا ولا جادلنا عنه بالسنتنا ، ولا قوّيناه باموالنا ، فما عذرنا عند ربنا ، وعند لقاء نبينا وقد قتل فينا ابن حبيبه وذريته ونسله لا والله لا عذر دون ان تقتلوا قاتله او تموتوا في طلب ذلك .

ايها القوم : ولوا عليكم رجلا منكم فانه لا بد لكم من امير ترجعون اليه ، وراية تحفون بها .

فولوا سليمان .

ثم قال خالد بن سعد بن نفيل : اما أنا فوالله لو اعلم انه ينجيني من ذنبي ويرضي ربي عني قتل نفسي لقتلتها ، وانا اشهد كل من حضر ان كل ما املكه سوى سلاحي الذي أقاتل به عدوي ، صدقة على المسلمين .

وقال غيره مثل ذلك .

فقال سليمان : حسبكم ، من أراد من هذا شيئاً فليأت به عبدالله بن وال ، فإذا اجتمع عنده كل ما تريدون اخراجه جهزنا به الفقراء .

وكتب إلى رجال الشيعة ذلك في السنة الحادية والستين ، وما زالوا يجمعون آلة الحرب ويدعون الناس في السر إلى الطلب بدم الحسين حتى هلك يزيد بن معاوية ، فلما مات جاء إلى سليمان أصحابه فقالوا : قد هلك هذا الطاغية والأمر ضعيف ، فان شئت وثبنا على عمرو بن حريث ثم أظهرنا الطلب بدم الحسين ودعونا الناس إلى أهل البيت .

قال : ان قتلة الحسين أشراف الكوفة وفرسان العرب ، فمتى علموا ما تريدون كانوا أشد الناس عليكم .

— وماذا نفعل ؟

— نبث الدعاة وندعو إلى الأمر .

وكان أهل الكوفة قد أخرجوا ابن حريث كما قرأت وبايعوا لعبد الله ابن الزبير .

ثم قدم المختار بن أبي عبيد ، وقدم عبد الله بن يزيد الانصاري أميراً على الكوفة . وابراهيم بن طلحة على الخراج .

فأخذ المختار يدعو الناس إلى قتال قتلة الحسين ويقول : جئتكم من عند المهدي محمد ابن الحنفية « اي محمد بن علي » وزيراً وأميناً ، فانضمت اليه طائفة من الشيعة .

وكان يقول أيضاً : يريد سليمان أن يخرج فيقتل نفسه ومن معه فليس له بصر بالحرب .

وقيل لعبد الله بن يزيد : اقبض على المختار واجعله في السجن ، فقال : إن هم قاتلونا قاتلناهم وإن تركونا لم نطلبهم .. إنهم يطلبون بدم الحسين بن علي فرحم الله هؤلاء فليخرجوا ظاهرين إلى قاتل الحسين فقد أقبل اليهم.

وهو يعني ابن زياد ، ثم قال : هذا ابن زياد قاتل الحسين وقاتل أخياركم ، قد فارقه القوم على ليلة من جسر منبج فالقتال والاستعداد له أولى من أن تجعلوا بأسكم بينكم فيقتل بعضكم البعض الآخر فيلقاكم العدو وقد ضعفتم .

أجل يا أهل الكوفة قد قدم الآن أعدى خلق الله لكم ، من ولي عليكم هو وأبوه سبعة أعوام لا يقلعان عن قتل أهل العفاف والدين .

وكان مروان قد سير ابن زياد إلى الجزيرة ثم إذا فرغ منها سار إلى العراق .

فخرج أصحاب سليمان يشترون السلاح على مرأى من الناس ، وهم يسبون المختار لتلك الكلمة التي قالها لعمه سعد بن مسعود أمير المدائن يوم انتهى اليها الحسن بن علي .

لقد قال لسعد يومئذ : « أوثق الحسن واستأمن به إلى معاوية ».

والمختار يدعو الشيعة إلى ما قدم لأجله ، وأثقل خلق الله عليه ، سليمان ابن صرد .

فلما خرج سليمان ومن معه نحو الجزيرة قال شبث بن ربعي وعمر بن سعد وزيد بن الحرث لأمير الكوفة :

لقد خرج سليمان يقاتل عدوكم أما المختار فهو يريد أن يثب عليكم في داركم فأوثقوه واسجنوه حتى يستقيم أمر الناس .

فأتوه فحملوه إلى السجن فكان يقول فيه :

« أما ورب البحار ، والنخيل والأشجار ، والمهام والقفار ، والملائكة

الأبرار لاقتلن كل جبار بكل مهند بتار .»

●

خرج سليمان ومن معه في السنة الخامسة والستين حتى انتهوا إلى قبر الحسين. فلما وصلوا صاحوا صيحة واحدة ، وجعلوا يبكون ، وتابوا عنده من خذلانه وترك القتال معه وأقاموا يوماً وليلة يتضرعون ويترحمون عليه وعلى اصحابه . ثم ساروا حتى أقبلوا الى موضع يقال له عين الوردة وقد أقبل جيش الشام .

وكان شرحبيل بن ذي الكلاع ، والحصين بن نمير ، من قواد أهل الشام قد اختلفا على قيادة الجماعة . وهما ينتظران أمر ابن زياد .

فأغار الكوفيون ، وبلغ الخبر ابن زياد فسير الحصين في اثني عشر الفاً فظفر بهم سليمان . ولكن أقبل شرحبيل في اليوم الثاني في ثمانية آلاف . وتلاحم الجيشان ، والنصر في جانب سليمان ، حتى كثر جيش الشام ، وأرسل ابن زياد رجالاً آخرين فأحاطوا بأهل الكوفة ، من النواحي الأربع .

ولم تكن غير ساعة ، حتى قتل سليمان ، والمسيب بن نجبة ، وعبد الله بن سعد بن نقيل ، وأخوه خالد ، وعبد الله بن وال ومعظم القواد .

ورجع من بقي من أهل الشيعة إلى الكوفة ، بينهم رفاعة بن شداد ، وهو من وجهاء الناس . وكان المختار بن أبي عبيد في السجن فأرسل إلى رفاعة يقول :

مرحباً بالعصبة التي عظم لهم الله الأجر ، حين انصرفوا ، ورضي عنهم حين قتلوا ، أما بعد ، فان سليمان قد قضى ما عليه ، وتوفاه الله وجعل روحه مع أرواح الصديقين والشهداء الصالحين، ولكنه لم يكن بصاحبكم الذي به تنصرون، اني أنا الأمير المأمور والأمين المأمون ، وقاتل الجبابرة ، والمنتقم من أعداء الله ، فابشروا واستعدوا اني ادعوكم الى كتاب الله وسنة نبيه والطلب بدم اهل البيت .

٤٢

عندما هزم ، عمرو بن سعيد بن العـــاص ، مصعب بن الزبير ، من ارض الشام ، رجع الى دمشق ، ومروان بن الحكم فيها ، وقد خضعت له الشام ومصر كما مر .

فبلغ مروان ان عمراً يقول لقومه : ان الامر لي بعد مروان ..

فدعا مروان حسان بن ثابت ، بن نجد وخبره ما يقوله عمرو ثم قال : اريد ان ابايع لولديّ عبد الملك وعبد العزيز .

قال : انا اكفيك عمراً .

فلما اجتمع الناس في مجلس مروان عند المساء ، قام حسان فقال : قد بلغنا ان رجالا يتمنون اماني .. قوموا فبايعوا لعبد الملك وعبد العزيز من بعده .

فبايعوا عن آخرهم دون ان يبقى واحد .

وكان حسان بن بحدل ، خال يزيد بن معاوية ، قد بايع مروان ، وهو يريد ان يجعل الامر بعده لخالد بن يزيد .

فقيل لمروان : من الرأي ان تتزوج ام خالد ، « وهي بنت ابي هاشم بن عتبة » حتى يصغر شأن ابنها فلا يطلب الخلافة ... فتزوجها .

فدخل خالد يوماً على مروان وهو يمشي بين صفين من قومه ، فقال له مروان : والله انك لاحمق ..

قال : تقول هذا لأسقط من عيون اهل الشام ؟.. ورجع الى امه فخبرها..

فقالت : لا تذكر هذا لأحد انا اكفيك مروان ...

ثم دخل عليها مروان فقال : هل قال لك خالد فيّ شيئا ؟

قالت : انه لأشد تعظيما لك من ان يقول شيئاً فيك .

فصدقها ، ومكث اياماً ، ثم نام عندها يوماً، فغطته بوسادة حتى قتلته ... ومات وهو ابن ثلاث وستين .

فقام بالامر بعده ابنه عبد الملك وقد اراد ان يقتل ام خالد فقالوا له : اذا فعلت ظهر للناس ان امرأة قتلت أباك .. فتركها .

●

وهذا نسب مروان :

هو مروان بن الحكم بن ابي العـــاص بن امية بن عبـــد شمس ، وأمه آمنة بنت علقمة بن صفوان من كنانة ، وكان مولده سنة اثنتين من الهجرة ، وقد أسلم أبوه عام الفتح ، ونفاه رسول الله صلى الله علية وسلم إلى الطائف لأنه يتجسس عليه .

وكان مروان قصيراً أحمر ، يقال له ولولده ، بنو الزرقاء ، والزرقاء جـدة مروان لابيه ، وقد كانت من ذوات الرايات .. قبل أن يتزوجها أبو العاص .

صدر من سلسلة

روايات تاريخ العرب والإسلام

- الحارث الأكبر الغساني
- النعمان الثالث
- بلقيس ملكة اليمن ١ / ٢
- زينب ملكة تدمر ١ / ٢
- حسناء الحجاز ١ / ٢
- الحارث ملك الأنباط
- هند والمنذر
- هند أسيرة كليب
- اليتيمة الساحرة ١ / ٢
- فتاة الشام
- محمد وأم كلثوم
- فاجعة كربلاء
- خيانة وغدر
- لقاء المحبين
- السفاح والمنصور
- الأمير العاشق



دار الأندلس
للطباعة والنشر والتوزيع